حكايات من القبائل العربية

ألف ليلة وليلة من نمط خاص



تأليف : سي . جي . كامبل

ترجمة: عطيه بن كريم الظفيري

مكتبة آفاق

حكايات من القبائل العربية

(ألف ليلة وليلة من نمط خاص)

سي. جي. كامبل

حكايات من القبائل العربية

(ألف ليلة وليلة من نمط خاص)

ترجمة
عطيه بن كريم الظفيري
atiya.zafiri@gmail.com

مكتبة آفاق

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

810.9 الظفيري، عطية كريم.

حكايات من القبائل العربية/ عطية كريم الظفيري. ـ ط1. ـ
الكويت: آفاق للنشر والتوزيع، 2010

268ص: ايض؛ 24 سم.

ردمك: 978-99966-51-05-2

1. الأدب العربي- تاريخ النقد 2. تراث الشعبي 3. القبائل العربية أ. العنوان

رقم الإيداع: 508/ 2010

ردمك: 978-99966-51-05-2

الطبعة الأولى

1432 هـ / 2011 م

مكتبة آفاق

Tel.: +965 22256141 - Fax : +965 22256142
P.O.Box: 20585 Safat - Postal Code: 13066 Kuwait
Info@aafaq.com.kw
www.aafaq.com.kw

الفهرس

تقـــديم

تراث القبائل العربية أو«ألف ليلة وليلة من نمط خاص»

بقلم: محمد الأسعد

طوال عدة قرون ظلت القبائل العربية تمارس حياتها ضمن تضاريس جغرافية واقعية وخيالية معا. أما الواقعية فمصدرها التنقل على مساحة شاسعة تمتد بامتداد ما كان يعرف باسم جزيرة العرب قديما، وبخاصة في أجزائها الشمالية. وتصدر الخيالية عن أن هذا التنقل رافقه تاريخ تختلط فيه الأسطورة والواقع ظل على هامش التاريخ الرسمي للمنطقة العربية.

والناظر إلى هذا الوجود منذ أقدم الأزمنة وحتى منتصف القرن العشرين يخيل إليه أن مسيرة الأحداث التاريخية الكبرى التي شهدتها المنطقة كانت تتواصل بعيدا عن خط مسيرة القبائل وان تدخلت معها أحيانا أو بعبارة أخرى أن القبيلة العربية مارست وجودها بثوابت لم تتغير إلا لماما طوال قرون وقرون اندثرت فيها دول وعواصم وقامت أخرى.وتغيرت المشاهد

الإقليمية والدولية.ولكن ظلت هذه الجغرافية قائمة.لها ثقافتها وتاريخها وأحداثها.

هذا الكتاب يروي مترجما مجموعة من حكايات القبائل العربية أو مخزونها الشفاهي، استطاع صاحبه أن يصل إليها ويسمعها من رواتها في أربعينات القرن المنصرم أي أن الوقت الذي كانت فيه حياة القبائل تتعرض لتغيرات جارفة، وقبل أن يحل التلفاز والمذياع والصحيفة محل الذاكرة الشفاهية تمامًا.

حكايات من القبائل العربية.لصاحبه سي. جي. كامبل Tales From The Arab Tribes by C.G.Campbell صدر بالإنجليزية في عام 1949 في لندن[1] ويتضمن ست عشرة حكاية سمعها المترجم من رواة من أمثال «حمد» و«حسين» و«عبد» وما إلى ذلك من أسماء عربية. وتشكل هذه الحكايات جزءا من موروث ضخم يمكن اعتباره «ديوان القبيلة» العربية وهو غير الديوان الرسمي المعروف باسم «ديوان العرب» أي الشعر العربي هذا الموروث الضخم بخيالياته وواقعياته، لم يقيض له أن يدون في لغة من اللغات. ويعتقد صاحب الكتاب انه اندثر بموت حامله، أي الراوي القبلي رغم أن القبيلة لم يندثر دورها الذي تحول فقط حين انتقلت من الهوامش إلى العواصم والحواضر، وبدأت حياه جديدة.

---

(1) C.G.Campbell. **Tales From The Arab Tribes** Lindsay Drummond, (London1949).

يمكن اعتبار الكتاب «ألف ليلة وليلة» القبائل التي لم تعرف طوال عدة قرون سوى الرواية الشفاهية، فجمعت في هذه الحكايات حكمتها وقيمتها، وعكست فيها عدة أزمان تاريخية وخيالية. ويبدو أن مترجم الحكايات كان أحد الضباط الإنجليز الذين عملوا في خدمة جهود الحلفاء في المنطقة العربية خلال الحرب العالمية الثانية. وإشارته الوحيدة إلى نفسه تأتي حين يذكر زمان ومكان سماعه لهذه الحكايات فيقول: «اتصلت بهذه القبائل لأول مرة حين كنت قادما من الصحراء الغربية في شتاء العام 1942» وخلال جولاته بين مضارب القبائل المنتشرة في مناطق الجزيرة والفرات الأسفل وهضاب شرقي الأردن، استمع إلى هذه الحكايات مرة في المضافات الواسعة ومرة في بيوت الشَّعْر المتنقلة على خلفية صوتية متنوعة، اختلط فيها ثغاء الأغنام بصوت المضخات المائية التي كانت قد دخلت حياة القبائل لتوها، وكانت موضع تبجيل إلى درجة أن الكثيرين أطلقوا على أولادهم أسماء العلامات التجارية لهذه المضخات.

يكتشف المؤلف، الذي يجيد العربية ولهجاتها الشعبية منذ البداية الفرق بين لفظتين «العرب» و«البدو» يقول أنه شاهد خلال جولاته مع دليلين من شبان القبائل بيوت شعر. فسأل الدليلين عن القبيلة التي ينتمي إليها هؤلاء البدو. ولدهشته استغرب الدليلان هذا الجهل الفظيع، وقالا له أن هناك فرقًا بين اللفظتين. فإذا شاهد عددا كبيرا من الأغنام والقليل من الإبل فمعني ذلك أن ما يراه هم «عرب» أما إذا شاهد عددا كبيرا من الإبل والقليل من الأغنام فهو أمام بيوت شعر بدوية!

ومعنى «العرب» لدى القبليين يشير إلى القبائل المستقرة التي تمتلك الأرض وتزرع النخيل والحبوب وعددا آخر من المحاصيل، إلا أنها ترسل أغنامها إلى المرعى في الربيع مع بعض أفرادها. وهو أمر لم يكن معروفا لدى إنجليزي مثله رغم أنه يجيد العربية.

ويبدو أن هذه الفترة التي شهدت اهتمامًا غير عادي بحياة القبيلة العربية، جاءت في الوقت الذي بدأ فيه رجال القبائل يودعون تاريخهم العسكري الطويل والمعقد في ما بين الحربين، فتتفكك الأحلاف القبلية، وتتوزع القبائل في إطارات الكيانات السياسية الحديثة. وقد لاحظ صاحب الكتاب جانبا من هذا الواقع حين قال بأن شبان القبائل بدءوا يساهمون في جهود الحلفاء الحربية، فكنت تراهم يقودون الشاحنات على طول الطريق المسمي «طريق المساعدة الكبرى لروسيا» عبر إيران وكنت تراهم موزعين على أماكن متباعدة تمتد من «مصيرة» العمانية وصولًا إلى «حيفا» الفلسطينية.

وأحدث هذا الانتقال إلى حياة جديدة أثره على مهمة الراوي في بيت الشعر، كما كان قد أحدث أثره على مهمة الراوي في زوايا المدن العربية خلال القرن التاسع عشر، فبدأت مهنته بالتلاشي ولم تعد الحكايات هي التسلية الكبرى التي تلبي حاجة نقل الحكمة والتاريخ: تاريخ صراع القبائل مع بعضها البعض، وتاريخ صراعها مع الحكم العثماني في القرون الأربعة الماضية، في زمن لم تكن فيه وسائط الأدب العربي المكتوب متيسرة.

ورغم إشارة المؤلف إلى أن هذه الحكايات لا تنتمي إلى مدرسة أدبية عربية كبرى، بل هي حكايات بسيطة أما من تأليف رجال القبائل أو مما تناقلوا منذ أقدم العهود هدفها تزجية الوقت في ليالي الشتاء أو خلال المسيرة الطويلة، إلا أن هذه الحكايات تنتسب في بنيتها السردية إلى الحكاية العربية التقليدية المعروفة في «ألف ليلة وليلة» وفي سير أبطال القبائل من أمثال: «عنترة» و«أبو زيد الهلالي» ويلتقط بعضها شيئا من روح الأزمان والبيئات المختلفة، وبخاصة بيئة السيطرة العثمانية، وبيئة الصراع مع الفرس، ويدور بعضها في جغرافيات خيالية تذكر بجغرافيات الأساطير الكبرى.

في هذا الإطار الأخير يقع ابرز هذه الحكايات المسمى «حكاية المقداد» وتدور حول سيرة بطل قبلي يحمل سمات أبطال الأساطير الشهيرة، فهو الطفل ذو الأرومة الكريمة الذي يجهل أصله إلى أن تطلعه أمه على السر، وتعهد إليه بسلاح وأموال أبيه المقاتل الشهير في الزمن البعيد، وتدفعه ليشق طريقه ويعرف بنفسه. وتمر هذه الشخصية بتجارب معروفة، مثل قتل الوحش في كهفه والذي لا يستطيع أن يقتله سوى البطل بسماته المعروفة. وتساعده «جنية» حررها من أسر الوحش في الخروج من الكهف، وتعد بتلبية طلبه للقاء بأجداده المتوفين لينال شيئا من حكمتهم. إلا أن لقاء «المقداد» بأبيه وأجداده يختلف عن الطريقة التي اعتدناها لدى أبطال الأساطير الذين يهبطون إلى العالم السفلي مثل «جلجامش» و«يولسيس» و«وارفيوس» و«اينياس»..الخ. أن طريقته تنسجم مع إيقاع الحياة القبيلة.

إنه يسير حسب التعليمات ليلا باتجاه نجمة الشمال. وعند منتصف الليل يشاهد نارا عظيمة وبيوت شعر. ويستقبله أبوه ويدعوه للقاء أجداده المجتمعين في بيت الشعر.وهنا يقوم هؤلاء بتعليمه استخدام كل سلاح بمفرده وفنون القتال وتنظيم المعارك والجيوش، أي كل ما يهتم به القبلي في حياته اليومية. ثم يدعوه أبوه إلى النوم لأن الأجداد يجب أن يرحلوا قبل شروق الشمس، فيفكون خيامهم ويحملون جمالهم ويغادرون عائدين إلى الفردوس. وهكذا يستيقظ «المقداد» في اليوم التالي متأخرا وقد أشرقت الشمس، وينظر حوله فلا يجد إلا البرية الشاسعة.. وحصانة الوحيد.

هذا الجانب الأسطوري من الحكايات الذي يمثل إعداد البطل، يليه جانب دخوله في معترك واقع الحياة، وتحقيق الانتصارات التي تتوج عادة بالحصول على مرتبة عالية واعتراف من الجميع بنسب البطل. وفي خلال هذه التجربة الثانية يجسد البطل في تصرفاته قيم حياة القبيلة بشكل مثالي، فهو يمتلك الحكمة والفن والمقدرة والمروءة، وهو ما يؤهله في النهاية لتسيد قومه.

مراقبون ومصححون لقيم المدينة العثمانية!

تكشف بعض أقاصيص هذا الكتاب عن جانب طريف لا يكاد يذكر في الأدب التاريخي الشائع ويتناول هذا الجانب موقف القبلي العربي من فساد المدينة العربية في العصور العثمانية. وظهوره بمظهر الحافظ والمدافع عن القيم العربية التي تحللت في بيئة المدينة.

وترسم هذه الحكايات صورة طريفة لفساد الولاة العثمانيين وتحكمهم، وانغماسهم في حياة اللهو والرشوة بخطوط بسيطة لا افتعال فيها. وفي المقابل تقدم هذه الحكايات رجال القبائل النائين بأنفسهم عن هذه الحياة بوصفهم ملجأ ومأمن المظلومين والمضطهدين الذين تبطش بهم المدينة العثمانية وقيمها.

ابرز الحكايات في هذا الصدد «حكاية الشيخ مزعل القرنيشي: رجل نبيل رغم افتقاره» فقد تضاءلت ثروة الشيخ بسبب الضرائب واضطهاد العثمانيين إلى أن افتقر تماما. وهكذا عاش الشيخ في بيته مع ابنته الوحيدة دون خدم ولا عبيد، ولا أثاث ولا أنية لأنه باع كل هذا ليستطيع شراء الطعام..» ولم تتوقف المشكلة عند هذا الحد، فابنته لا تجد أحدا يتقدم لخطبتها لأن لا أحد يعرفها فهم لا يزورون ولا يزارون. ويقترح الأب على ابنته أن يقدما على الانتحار، ويعطيها آخر قطعة ذهبية لتشتري بها ثيابا لائقة، حتى إذا واراهما الجيران الثرى وجدوهما في حاله تليق بكرامتهما.

ولكن مصير الشيخ وابنته ينقلب حين تذهب لشراء الثياب، فيعجب بجمالها البائع ويتبعها ليعرف بيتها، ثم يعود في اليوم التالي ليطلب يدها من أبيها الشيخ الذي يجن جنونه أمام وقاحة هذا التاجر الذي يطلب القربى من العائلة النبيلة.. ويطرده شر طرده.

وتمضي الحكاية إلى أن التاجر المهان فكر بالانتقام فذهب إلى الباشا

التركي وقدم له هدية ثمينة معربا له عن عظيم امتنانه لحكمة الباشا.ويخبر الباشا أنه يرغب في إطلاعه على مؤامرة خطيرة هدفها السلطان العثماني نفسه، وان زعيم هذه المؤامرة هو «مزعل القرنيشي» فيأمر الباشا باعتقال القرنيشي فورا وزجه في السجن لأنه خطير على الدولة. وتختبئ ابنته بعيدا عن أنظار الجندرمة. وتتغلب على حزنها وبكائها لأنها كما تقول الحكاية «فتاة عربية أصيلة» وتفكر في تخليص نفسها وأبيها، فترتدي ثياب الفتيان وتخرج من البيت الكبير هاربة لا تعرف إلى أين تمضي ثم تهتدي إلى الفكرة المخلصة، وهي أن تخرج من المدينة وتلجأ إلى القبائل الكبيرة لأن أناس المدينة لا شهامة لديهم، ومن يذهب إلى القبائل يجد الطعام والمأوى. تبدأ القيم القبلية بالظهور هنا بوصفها الرافعة التي تقوم بتعديل ميزان العدالة الذي اختل في المدينة العثمانية ويقوم الشيخ واتباعية بإعداد خطة لإنقاذ الشيخ مزعل وتكون خطة بارعة، لا يصطدم فيها الشيخ الشاب بالسلطة العثمانية، ولكنه ينقذ الشيخ مزعل من مخالبها. وتقوم خطته على أساس نوع من الحرب النفسية على التاجر تجبره في النهاية على محاولة النجاة من التهديد الذي يصله في الخفاء.

ويبدو أن تميز الحكاية القبلية بالصدق سببه أنها شفهية أولا وأنها ظهرت في أوساط متحررة نسبيًا من الارتباط بأجواء المدن الرازحة تحت النير العثماني. ولا نعتقد أن الراوي القبلي كان يستهدف الدعاية أو تحقيق أمر يتجاوز أغراضه الآنية في عرض ما يعتقد أنه الأصالة العربية مقابل التشويه العثماني الذي ألمّ بالمجتمعات العربية المتحضرة.

على صعيد الواقع سمحت الحياة القبلية إلى حد ما بالتحرر العقلي من طغيان قيم ومعتقدات وموضوعات الحياة في إطار مؤسسات الدولة وهو ما أدى إلى أن تبرز بشدة الروح النقدية في هذه الحكايات، تلك الروح التي تكاد تكون غائبة في النصوص العربية الرسمية المكتوبة إلا اللهم تلك النصوص التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، أما في القرون التي سبقته، السادس والسابع والثامن عشر، فكلها تقريبًا تتميز بتمجيد «الدولة العلية».

بالإضافة إلى حكاية الشيخ النبيل مزعل، هناك حكايات أخرى تبرز فيها موضوعة الصراع بين القيم العربية، وتمثلها القبيلة الحرة من سيادة العثمانيين والقيم المشوهة في المدينة، وتمثلها جملة السكان الخاضعين. ولا يندر أن ينتهي هذا الصراع بانتصار القيم الأصيلة وأهلها، أي الانقياء بلا جدال، أن من ناحية النسب أو من ناحية السلوك. وكأننا أمام مسرح يقيمه رواة القبيلة لتنوير المستمعين وتدريبهم على طرق الحياة الحقة، وقيادتهم باتجاه أفاق الحرية.

الباشا... والبيك ... وحريم السلطان!

تظهر الشخصية العثمانية في المرويات القبلية بوصفها شخصية سلبية، أي مضادة لكل القيم التي يحترمها القبلي العربي. وسنتناول هنا سمات هذه الشخصية، كما تظهر في ثلاث حكايات، الأولى: «حكاية الروح الضائعة» والثانية: «حكاية النحاس خالد» والثالثة: «حكاية الراقصَيْن»، ولئن كانت

الأولى تدور حول موضوعة جهل وغباء الأرقاء أوالعبيد بتعبير تلك الأيام. إلا أنها تتصل في بعض فصولها بشخصية باشا عثماني يتجول في المدينة بحثا عن اللذة والتسلية، وخلال جولته يتعرض له ثلاثة من الأرقاء اعتادوا على السرقة وأنفاق النقود في دور اللهو والشراب. ويهرع أحدهما إلى الباشا ويلقيه أرضا، ويدوس عليه، وتمالك الباشا نفسه وضرب الرقيق بسيفه ضربة قاتلة ثم مضي في حال سبيله. وقام زميلا الرقيق القتيل يبحثان عن روح رفيقهما التي غادرته فيلتقيان بعثماني آخر هو البيك قائد الجندرمة الذي اعتاد ارتياد بيت لهو سرًا. ولا يجد البيك طريقة للإفلات من افتضاح أمر وجوده في هذا البيت سوى محاولة إخافة الرقيقين. فتنكر في هيئة شبح وخرج إليهما مهددًا إلا أنهما يعتقدان أمام هذا المشهد أنهما أمام روح رفيقهما. فيحاول أحدهما إيقاف الشبح بضربة تطرحه أرضا، فيغمى على البيك، ثم تعمل صاحبة البيت والرقيقان على التخلص من جثته وإلقائها بعيدًا ملفوفة ببطانية ومربوطة بالحبل. وتستمر الحكاية في سرد مفارقات ليلة البحث عن الروح الضائعة، ويصحو البيك، ويزحف وهو مربوط بالبطانية عبر شوارع المدينة إلى أن يسمع غناء وموسيقي، فيعرف أنه قريب من بيت لهو كبير اعتاد الباشاوات الأتراك التردد عليه، فيقتحم القاعة زاحفًا. وهكذا لا نجد شخصية «الباشا» أو «البيك» إلا في إطار أمثال هذه الأماكن، أنها شخصية عابثة همها اللهو والتسلية وما ينتج عن ذلك من مفارقات.

أما على صعيد الحكم وشؤونه، فأن الحكاية الثانية، حكاية النحاس، تقدم طرفًا من أساليب الإدارة العثمانية. فخالد النحاس عامل فقير في سوق

النحاسين يهبط علية الحظ والحظوة فجأة ودون أن يدرك لماذا. ذلك أنه متورط في الزواج من امرأة مبذرة أثقلته بديون هائلة حين جلبت إلى بيته العاري افخر أنواع الأثاث. وفي تلك الأيام، كما تقول الحكاية، كان والي المدينة التركي على صلة بعين له في العاصمة يوافيه بالأخبار والتقارير أولا بأول، ذلك لأن هذا الوالي يقتطع لنفسه ثلاثة أرباع أموال الجباية ويزعم أن مدينته فقيرة. وخشية أن تكشف العاصمة حقيقة الأمر، وحتى لا يفاجئ بقرار يتخذ ضده وضع له عينا يراقب الأمور عن كثب في العاصمة. وذات يوم تسلم تقريرا من عينه يحذره فيه من جاسوس أرسلته العاصمة للتحقيق سرًا في أمور الجباية ويسارع الوالي إلى إرسال عينه وأرصاده إلى أسواق المدينة بحثا عن شخص بهذه الصفات. وتحوم الشبهات حول النحاس خالد، بسبب فقره الظاهر وحالة بيته الظاهر الثراء. فيقرر الوالي الخلاص منه بقتله، إلا أن مستشاره، وبعد تفكير طويل، ينصحه بعدم ارتكاب هذه الحماقة، لأن العاصمة سترسل غيره، والأفضل استمالة الرجل إلى صفه بالذهب.

والحكاية الثالثة. «حكاية الراقصين» تغوص أعمق في حياة الحكم العثماني، فجزء من أحداثها يدور في قصر حريم السلطان. وتبدأ بوجود شابين، أخ وأخته، من الشراكسة، يستعبدهما تركي صاحب دار لهو. ويعملان كراقصين لتسلية الباشاوات. ويقرر الاثنان إلى الخلاص من التركي والهروب. وفي طريق هربهما يختبئان في صندوق تحمله قافلة من القوافل إلى عاصمة السلطنة. ويجد الشابان نفسيهما بعد مسيرة أيام على بلاط أحد القصور في قاعة كبيرة.

ويكتشفان بعد الخروج من الصندوق أنهما في قصر حريم السلطان بين آلاف الجواري. وتصف القصة نمط الحياة في هذا القصر الذي لا تغادره امرأة ولا يدخله رجل ويقوم على حراسته «الاغوات» أي الخصيان. ورغم تخفي الشاب وأخته بارتدائهما ثياب الجواري إلا أن الأمور تتأزم حين يكتشف الأغا الكبير حمل أكثر من ثمانين جارية.

في هذه الحكايات الثلاث، والتي كانت متداولة شفاهيًا بين القبائل العربية، تبرز أنماط الحياة تحت الحكم العثماني بشكل لم يسبق له مثيل في الكتابة العربية التي جاءتنا من تلك العصور وقد تكون أكثر الشهادات صدقًا على أحوال تلك الأيام بواقعيتها الفذة، وبساطة بنيتها الحكائية وروحها المتحررة من ضغوط الولاء للسلطنة أو دوافع التقرب منها وربما كان غرض هذه الحكايات الشفاهية في تفاصيل الواقع التاريخي مما لم يستطع الأدب المكتوب الوصول إليه إلا نادرا وفي السنوات الأخيرة فقط.

بين الثقافتين الكبرى والصغرى: عناصر بنائية...وتوازيات...واستبدال!

لا يخلو هذا التراث الشفاهي الذي وصفناه بأنه «ألف ليلة وليلة» القبائل العربية من الحكايات المرحة على غرار حكايات ألف ليلة الأصلية، بل إن هناك استعارة لبعض شخوص الليالي العربية، وبخاصة المغامر المرح «أبو نواس» المهرج والمسلي في بلاط الخليفة العباسي.

إلا أن مغامرات «أبو نواس» هنا تتميز بالمرح والألمعية، وهو في حكاية «الشاب جميل» رجل محتال يظهر حيلة واسعة لمساعدة الشاب التاجر

جميل في الوصول إلى محبوبته والزواج منها، وحكمة هذه القصة كما يقدم لها الراوي، هي أن على من يسمعها أن يأخذ حذره ويعتني بأمواله حين يدخل المدن الكبيرة.

في حكاية «الشاب جميل» اللافت للنظر في هذه الحكاية أن الراوي القبلي، رغم انه يرجع زمن حكاياته إلى زمن هارون الرشيد إلا أن الإطار الذي يدير فيه الأحداث هو إطار قريب من بيئته في العصر العثماني والقيم التي تحكم تصوراته هي قيم مستمدة من البيئة القبلية، مما يشير إلى أن هذه الحكايات ليست اختراعًا خاصًا بالحياة القبلية بل تمثل اندماجًا بين حياتين: حياة المدينة وحياة الصحراء، فالمدينة تتكرر دائمًا وتثبت حضورها وكذلك ما هو خارجها، وربما يشير هذا إلى التيارات المتبادلة بين الثقافة العربية الكبرى والثقافات الصغرى، وإلى العناصر التي انتقلت من هذه إلى تلك عبر العصور، فنحن نجد في هذه الحكايات ما يوازيها في الحكايات المكتوبة، فمثلما نجد توازيا بين أجزاء الثقافة الكبرى وأجزاء الثقافة الصغرى، ونعني بذلك الشعر والحكاية والأمثال والحكم.

إلا أن الملاحظ بشكل متواتر هو انصراف قصص وحكايات وأشعار الثقافة الكبرى، أي ثقافة المدن إلى تمجيد الحياة الحضرية، بينما نجد في الثقافة، الصغرى نفورا من هذه الحياة وحكمها أخلاقيا عليها بالفساد، والسبب الذي نميل إلى ترجيحه هو أن الثقافة الكبرى تكونت عناصرها في أزمان أقدم وقبل أزمان الركود التي ترافقت مع الحكم العثماني

فاحتفظت بصورها تلك، بينما ولدت الثقافات الصغرى في إطار تفتت الكيانات السياسية، والعزلة النسبية التي ضربت حول المناطق النائية عن المدن الرئيسية.

وهناك بالإضافة إلى العناصر المتوازية عملية استبدال تجري لأهم العناصر وبخاصة عنصر البطل، فنحن نعرف أن التاجر يكاد يكون بطل حكايات ألف ليلة وليلة التي كان يرويها الرواة في زوايا المدن العربية، وبخاصة «حكاية السندباد»، إلا أن البطل لدى الراوي القبلي لابد أن يكون «قبليًا» كما في حكاية «المقداد» التي مرت بنا، وفي حكاية أخرى تحمل اسم «شرف الرجل في شاربة» وحكاية تحمل اسم «ابن الحاج»، وكلها حكايات تجعل «القبلي» حاملًا للقيم الأصيلة ومدافعًا عن الحق، ووفيًا ونزيها إلى درجة التضحية بحياته لحماية شرف العائلة أو القبيلة أو من يلجأ إليه، وهي عناصر بنائية لا نجد مقابلًا لها في حكايات المدينة، أو حكايات الثقافة الكبرى إلا في العناصر التي استعارتها من الموروث القبلي من الفترة التي سبقت ظهور الإسلام.

«فاوست» عربي من تراث عجيب!

نصل الآن إلى أكثر الحكايات أهمية في الكتاب: إنها أسطورة مفزعة لم نصادف مثيلا لها في الأدب العربي المكتوب، سواء في جوها الأسطوري أم في بنيتها المحكمة، تحمل عنوان «حكاية عبد الرحمن ولسان الميتة» الأسطورة الوحيدة التي تماثل هذه القصة في الأدب العالمي هي «أسطورة

الدكتور فاوست» الموروثة من العصور الوسطي الأوروبية، تماثل في الفكرة العامة لا في التفاصيل، ولأن هذه القصة الشفاهية التي نقلت إلى الإنجليزية تكاد تكون مجهولة في الأوساط العربية.

يبدأ الراوي بسرد حكاية «عبد الرحمن» ،النجار الفقير الحال، الذي يتطلع إلى وسيلة يحصل فيها على الثروة لتحسين وضعه، وفي المقهى، حيث يجتمع الأصدقاء يدور الحديث عن الثروة والثراء وطرق الوصول إليها، فيعبر الحاضرون عن قناعتهم بأن لا سبيل إلا عمل الإنسان إلا أن عبد الرحمن لا يجد معنى في هذه الطريقة، التي لم تجلب له إلا القليل، فيتطوع أحد الحاضرين ويقول له: «هناك طريقة للغنى تمنحك ذهبًا أكثر مما تستطيع حمله، وجواهر أكثر مما تستطيع عدها، وحكمة واسعة تجعلك سيد العالم...وكل هذا في يوم واحد فقط» فيسأله عبد الرحمن: «ولماذا لم تتخذ هذه الطريقة؟» فيقول الرجل: «أنني راغب عنها لأنها تتضمن سرقة الأموات»، وهنا يروى له الرجل حكاية عثوره على نفق تحت الأرض بطريق الصدفة حيث وجد في آخره كومة من الذهب والجواهر تجلس عليها امرأة حسناء شفتاها بلون الدم، ومقابل تنفيذ شروط المرأة يحصل الرجل على ثروة طائلة، عندئذ يطلب منه عبد الرحمن أن يدله على مكان النفق.

ويأخذه الرجل إلى مكان النفق في الصحراء حيث تقوم خرائب مدينة أثريه ويتركه، يقتحم عبد الرحمن النفق، وينفذ طلبات المرأة ويصاب

بالرعب ويحاول التفلت من المرأة إلّا أنه لم يستطع ويحاول تلاوة البسملة إلا أن الكلمات لا تخرج من فمه لأن اللسان لم يعد لسانه، وينطق اللسان في فمه بصوت هو ليس صوته، ولا يملك عبد الرحمن أمام هذا إلا أن يبكي بصمت.

وتتوالى الكوارث بعد ذلك حين يعود عبد الرحمن إلى مدينته، ويتسبب اللسان الذي ينطق بما لا يريده في مقتل صديقين له، وفي طلاق زوجته، وغرق ابنه الوحيد في البئر، ويحاول عبد الرحمن دخول المسجد إلا أن اللسان يضغط على حنجرته ويكاد يخنقه.

في أسطورة «فاوست» الذي باع روحه للشيطان حسب رواية العصور الوسطى يتعذب فاوست في النهاية ويأخذ الشيطان روحه إلى الجحيم، بعد أن منحه لسنوات معدودة الثروة والسلطة والحكمة، أما صاحبنا عبد الرحمن، فمنذ أن وقع عقده الدموي مع المرأة أو روح الشر، أو الشيطان، وارتضى كل شروطها لم يحظ بلحظة سعادة، وحتى وعودها التي تشبه تنبؤات العرافين في الأساطير القديمة «ظاهر لفظي ودلالة غير متوقعة» فلم تكن في حقيقتها كاذبة، لقد كانت صادقة على طريقتها الخاصة.

حكاية السلطان علي وابنه الأمير خيّون

كان هناك سلطان من بين السلاطين الذين حكموا العراق قبل أيام العثمانيين، اسمه حجي علي(أو الحاج علي)، ولهذا السلطان ابن واحد فقط، هو الأمير خيّون. كان الأمير خيون شابا يافعا، يبلغ عشرين عاما من العمر، وسيم الوجه كالقمر.عندما يخرج من قصره ويمر في طرقات المدينة، تكتظ الطرقات بالناس ويطوقها جمهور كبير جدا، ومن شدة تزاحم الناس لا تستطيع النملة دخول المدينة. وكان الأمير خيون مقاتلا شهيرا في خوض المعارك، وقائدا لجيوش أبيه السلطان، وكان يتحدى أعداء السلطان بالمبارزة الفردية: وعلى الدوام ينتصر عليهم ويقتل قادة الأعداء أمام جيوشهم. وكان مطيعا لوالده لا يعصي أوامره في كل شيء، لأن هذه الخصلة من عادات العرب.

في أحد الأيام استدعى الحاج علي ابنه الأمير خيون، وقال له: في هذا العالم هناك فقط شيء واحد معروف ومؤكد، وهو الموت، الذي يأتي إلى

كل إنسان، ولا يمكن لأحد أن يهرب منه. والأيام والسنون تمضي مسرعة. أنت لا تشعر بها، وأنت ستخلفني سلطانا على هذه الأرض، ولكن عندما تموت.بعد عمر طويل إن شاء الله) هل فكرت بمن سيحل محلك؟ لذا فإنه من المناسب أن تتزوج الآن.

ولكن خيون، الابن المطيع رفض أمر والده، ولم يسمع كلماته، وقال: لقد درست الأمر جيدا، وقرأت كل كتاب يتعلق بالمرأة، قرأت كتبا لمختلف الحكماء والفلاسفة من العراق ومن بلاد فارس ومن الهند ومن الصين ومن روما،كلهم توصلوا إلى خلاصة مفادها أن المرأة مصدر الشر والسحر، والكذب وليست محل ثقة، وبالتالي فكيف يمكن لرجل أن يتخذ امرأة كزوجة له.

فكر السلطان ورأى أن ما قاله ابنه يمثل حماقة الشباب فقط، وسوف يأمر ابنه بالزواج في وجود وزرائه ومستشاريه وقواته، وعندما يرى الابن كل هذا الحشد يخجل من أن يعصي أوامره.

فاستدعى قضاته، ووزراءه، وقواته، وأرسل لشيوخ القبائل ورجال البلاد البارزين، حتى غص قصره بالناس، وأرسل إلى ابنه الأمير خيون.

تحدث السلطان وقال: لقد مضت فترة طويلة على قيامنا بالاحتفالات السعيدة، إن هذه المدينة العظيمة تفخر بالاحتفالات بمناسبات كالزواج السلطاني أو ميلاد وريث للعرش، وبالتالي فإنني آمر وأطلب من وزير المالية أن يقدم مبلغ 100 ألف درهم، ومن كل شيخ من شيوخ القبائل

أن يحضر 1000 رأس غنم نعيمي، ومن كل تاجر من كبار التجار أن يأتي بألف كيس من أنقى أنواع أرز العمارة والحويجة، ومن حاكم البصرة أن يأتي بحمولة ألف مركب من أجود أنواع تمور البصرة، ومن المعدان أن يأتوا بالألبان، ومن أهل المو سل أن يأتوا بالعسل، ومن أهل بعقوبة أن يأتوا بالفاكهة.و من أهل كل بلدة وقرية أن يأتوا بالفواكه والخضروات والمحاصيل الزراعية الأخرى. وفي أول يوم من الشهر الأول من السنة الجديدة يجب نحر ألف شاة وطبخها بعد أن يتم حشوها بالجوز واللوز، عندئذ لن نجد جائعا في المدينة وستمكن أيضا من إطعام المسافرين وعابري السبيل وبدو الصحراء؛ لأن في هذا الشهر المبارك سيتم الاحتفال بزواج ابني المحبوب الأمير خيون.

في هذه الأثناء وقف الأمير خيون أمام والده وقال: لا، حينئذ احمرت خجلا وجوه كبار الشيوخ والتجار وقبطان السفن، وقادة القوات، والمثقفين؛لأنه من غير المناسب بين العرب أن يتحدث الابن في وجه أبيه وأمام جمع من الناس. شحب وجه السلطان واعترته ثورة الغضب فأمر بسجن ابنه.

قام الحراس الخاصون لدى السلطان بالقبض على الأمير واحتجازه ثم أودع السجن. ودعنا نحدثك عن السجن الذي أُقتيد إليه الأمير: فهولا يشبه السجن الذي تعرفونه وبالتحديد السجن الذي يقع في الزبير، بوابة مدينة البصرة ـ وهو أيضا على عكس المعسكرات المحاطة بالأسلاك الشائكة

التي يحتجز فيها الإنجليز الألمان في الشعيبة. وهذا السجن مشيد خصيصا للأمراء وعلية القوم. إنه قصر واسع، جدرانه من الرخام ومن الأحجار النفيسة النادرة، فيه أي شيء يمكن أن يرغبه الإنسان، والحراس يقفون في البوابة لمنع الأمير خيون من الخروج منها.

حدث في أحد الأيام أن ذهب صياد إلى النهر في الصباح، وعند شروق الشمس ألقى بشبكته إلى المياه وانتظر قليلا ثم سحبها، وإذ بسمكة ذهبية في هذه الشبكة ليس لها مثيل من قبل في جميع أراضي العراق. وتحدث الصياد مع زملائه وقال: سوف آخذ هذه السمكة إلى الأمير الذي يقيم في السجن لأنها قد تجعله سعيدا ويمكن أن تجلب له حسن الطالع. أخذ الصياد السمكة ووضعها في حوض ماء، وأخذها إلى السجن وأعطاها للأمير، وفرح الأمير بها؛ لأنه لم يرَ مثل هذه السمكة من قبل.

قام الأمير بعمل حوض للسمكة جوانبه من الفضة والذهب، وجلس بجوار الحوض يتمتع بمشاهدة جمال السمكة، وظل لمدة ثلاث ساعات يتذوق جمالها، ورأى أن السمكة طيلة الساعات الثلاث لم تقف أو تتوقف، بل تسبح مسرعة من أحد أطراف الحوض إلى الطرف الآخر، وتساءل الأمير مفكرا لماذا لا تتوقف السمكة؟ لماذا تتحرك دائما؟ إنها مأساة لها، إنها مثلي حبيسة وسجينة، إنها تحتاج إلى النهر، وأخذ الأمير السمكة وألقاها في النهر.

والسمكة الذهبية من قبيلة آدم فقد كانت بالفعل فتاة، لأنك تعرف أن

الأسماك الذهبية هي بحق من رجال القبائل، رغم أنها تخفت في شكل الأسماك، كما أنها ماهرة في السحر والأشياء غير العادية. ومع إلقاء الأمير للسمكة في النهر قال: يا رب فرج كربتي واجمعني مع من أحب.

وعندما هبطت السمكة الفتاة في الماء سبحت خارج النهر إلى حبيبها في كهف أسفل مياه نهر دجلة وسألها: أين كنتِ ولماذا تأخرتِ في المجيء. أجابته قائلة: تم اصطيادي من قبل صياد في شبكة، وإعطاني للأمير، لكنه أعادني إلى المياه، وقال لي: اذهبي إلى محبك.

عندما أبلغ الأمير والده السلطان بأن البنات كلهن ساحرات ومخلوقات شريرة فإنه كان يكذب أو لم يقل الحقيقة بشكل كامل؛ لأن هناك فتاة وهي أميرة في بلد مجاور يرى أنها ليست مصدر شر وإنما خير، ودمه متوقد بالحب لها، ولكنه أخفى هذا عن أبيه لمعرفته أن السلطان أراد أن يزوجه ابنة عمه، حتى لا تخرج ثروته من العراق.

ومحب الفتاة السمكة كان يدرك هذه الأحوال، مثل السحرة الآخرين، وفكر قائلا: يجب أن أكافئ الأمير الذي رد إلي حبيبتي. وتقمص هيئة درويش، وذهب إلى السجن وحيّا الأمير، وقال: أنت ترغب في أن تتزوج علياء بنت رجب. وعندما رأى الأمير أن الدرويش يعرف رغبته ذهل وتغير لون وجهه فأصبح أبيض مثل الحليب، وتوسل الأمير إلى الدرويش طالبا مساعدته وقال: يا سيد المعجزات ساعدني أصل إلى حبيبتي.

امتطى الأمير جوادا والدرويش جوادا، وغادرا السجن، ولم يشعر

الحرس بمغادرتهما. اتجه الاثنان إلى قصر الفتاة علياء، ودخلا القصر على هيئة قُطّين في منتصف الليل ولم ينتبه لهما أحد من الحرس.وذهب الأمير إلى غرفة الفتاة علياء، وكانت نائمة عارية لأن الطقس حار ليلا، دهش الأمير عندما رأى جمال جسمها وأوشك أن يغمى عليه من العجب، لكنه غطى الفتاة علياء وأخذها إلى جواده ورحل الثلاثة إلى الصحراء، وفي الصباح توقفوا وطهت علياء الطعام، وعندما أكلوا اللحم والأرز والتمر واللبن تحدث الدرويش إلى الأمير قائلا: يجب أن نقسم الفتاة بيننا وكل يأخذ نصيبه منها، إذا كان هناك شريكان في عمل تجاري فعليهما اقتسام الأرباح بالتساوي. رد الأمير قائلا: هذا الاقتراح غير مناسب وليس عمليا أبدا. كانت الفتاة تستمع بذهول إلى ما دار بين الاثنين من حوار. لكن الدرويش أصر على رأيه قائلا: القسمة بيننا قدر مكتوب للفتاة وليس لدى سلطة لتغيره. وفكر الأمير ورأى أن الدرويش هو أحد أمراء السحرة وقد صادقه ولا مفر من صداقته. قال الأمير: إذا كان لا بد من اقتسام الفتاة فإنه يجب أن يتم وفقا لرغباتك يا درويش، ولكن كيف نقسمها من أعلى إلى أسفل؟ أم بالعرض؟ ورد الدرويش: من أعلى إلى أسفل لأن كلا منا يجب أن يكون له عين جميلة وصدر وذراع ورجل وسوف يكون هذا بالتساوي بيننا، ولا يكون لأحدنا تفوق على الآخر.

ارتعدت فرائص الفتاة علياء من الخوف بعد سماعها هذه الكلمات، وألقت بنفسها على قدم الدرويش، وصرخت يا سادتي ليأخذني الدرويش، ولكن لا تقسموني. ولكن الدرويش قال: إن هذا ضروري، وسحب سيفه،

ولوح به فوق الفتاة، وأوشك أن يضربها، وغطى الأمير خيون عينيه حتى لا يرى المشهد الفظيع، ولكن في هذه اللحظة فتحت الفتاة فمها وظهر منه رأس ثعبان وصرخ الدرويش: تعال يا زوبوشون، تعال يا زوبوشون وخرج ثعبان أخضر، طوله 20 قدما وانطلق مسرعا إلى الصحراء بسرعة الحصان.

التفت الدرويش إلى الأمير وقال: لقد أرغمت الثعبان على الخروج من جسم الفتاة لأنه متلبس جسمها ولكنها لم تعرف ذلك، وإن هذا الثعبان كان من سلالة تتلبس الفتاة بدون معرفة، وسعادة الثعبان لا تكتمل إلا في تعذيب الرجال لأنه ينتظر زواج الفتاة من رجل ثم يسبب له المشكلات ويقلب حياته إلى جحيم ويجعل الفتاة غاضبة على الدوام وتصبح كلماتها كسم الثعبان وليس هناك وسيلة لاستخراج الثعبان ما لم تر وجهه وتعرف اسمه وتكتسب القوة عليه.

وشكر الأمير الدرويش معبرا عن امتنانه لما قام به وقال الدرويش: الفتاة لك وأنا أتمنى لك حياة زوجية سعيدة والسلام عليكم وفي أمان الله.

أخذ الأمير الفتاة وتزوجها وذهب إلى قصر والده. لما رآه الخدم والعبيد صرخوا قائلين. إن أباك حزينا عليك. وذهب الأمير لوالده السلطان الحاج علي وقال. السلام عليكم، لقد تزوجت هذه الفتاة وفقا لرغبتكم. وأصبح السلطان سعيدا ومبتهجا وجعل ابنه الأمير خيون يحكم بدلا منه، وكان حاكما عادلا وحكيما وكان لديه العديد من الأبناء بجمال القمر.

حكاية جهل العبيد

في إحدى الليالي اجتمع ثلاثة عبيد وهداهم تفكيرهم إلى السرقة، وخططوا لسرقة أغنام من البدو، القاطنين خارج المدينة. وفي الساعة الأولى من الليل ذهبوا إلى قطين البدو، وذهبوا مباشرة إلى الحيوانات، وفي الظلام رأوا ثلاثة حيوانات، وأخذ كل عبد -حيوانًا واحدًا، واقتادوها بعيدا، ولكنها كانت ماعز وليست أغنامًا ولم يعرف العبيد أنها ماعز. ولكن عندما أدركت ماعز البدو أن الثلاث معزات قد عزلت منها تحرك كل قطيع الماعز الذي يعد بالمئات في إثرها؛ لأن عادة الماعز عندما تذهب واحدة منها فإن البقية تلحق بها.

وذهب العبيد الثلاثة والمعزات الثلاث عبر الصحراء، وسمعوا خلفهم صوت العديد من الأقدام وبعد ذلك قال العبد علي للعبد راشد. هناك من يطاردنا وجرى العبيد الثلاثة مع المعزات الثلاث، ولما رأى قطيع الماعز المعزات الثلاث تجري جرى القطيع وراءهم أيضًا.

وقال العبد راشد للعبد علي: لا شك أن البدو يطاردوننا، وبعد ذلك أطلق

العبيد سراح المعزات الثلاث وجروا بأسرع ما أوتوا من قوة ولكن الماعز لاحقتهم.عندما تباطأ العبد علي وكان آخرهم نطحته الماعز بقرونها.قال العبد علي للعبد راشد أشعر بوخز أشياء حادة في مؤخرتي، ما الذي يمكن أن تقوله.ورد العبد راشد: إنها رماح العرب وسيوفهم، هيا أسرع، أسرع. رغم أنها في الواقع لم تكن رماح العرب ولا سيوفهم، وإنما فقط قرون الماعز. ولم يدرك العبيد ما جرى لهم وزاد جريهم حتى وصلوا إلى النهر.

عندما شمت الماعز النهر توقفت عن الجري.ولكن العبد المتقدم واسمه حسن سقط في النهر، وكان هناك تمساح في النهر، وعندما سقط حسن التقمه التمساح وأكل رأس العبد حسن.وقد جاء العبد علي والعبد راشد إلى النهر، ورأيا أن حسن كان في النهر وسحباه للخارج، ووضعاه على الضفة، ولكن لم يكن له رأس.

ولاحظ العبد علي أن حسنا ليس له رأس، فقال لراشد: انظر زميلي ليس له رأس. والعبيد جهلة في هذه الأمور، فسأل راشد: هل كان له رأس من قبل أم كان بدون رأس؟ فأجابه علي: بصراحة، لم ألاحظ مطلقا ولا أتذكر. ودار حديث بين علي وراشد حول هذا الأمر وقالا: يجب أن نكتشف حقيقة هذا الأمر لأنه إذا كان لزميلنا رأس وفقدها فإنه بذلك يكون قد مات ويجب أن ندفنه لأنه يقال بين المثقفين أن انفصال الرأس عن الجسد يعني مغادرة الروح من الجسد.ولكن إذا كان حسن على الدوام بدون رأس فإنه الآن ليس أفضل أو أسوأ مما كان وبدفنه نكون على خطأ.

فقال العبد علي: دعنا نسأل أمه لأنها لابد أن لديها معلومات عن الأمر. وذهب العبد علي والعبد راشد إلى المدينة إلى كوخ أم حسن ونا ديا: يا أم حسن، وجاءت أم حسن وقالت ماذا تريدان ولماذا تزعجاني. وسأل علي يا أم حسن. عند ولادة ابنك هل يمكنك أن تتذكرين أكان له رأس.

وفكرت أم حسن وأجابت: في يوم ولادته كنت مريضة وكنت أتألم وقد مضى على هذا الأمر ما يزيد عن 20 سنة ولا يمكنني أن أتذكر.

وبعد ذلك ذهب العبد راشد والعبد علي إلى أبي حسن وقالا له يا أبا حسن: يا أبا حسن: عندما ولد أبنك أكان له رأس أم لم يكن له رأس؟ أجابهما: ليس لدي معلومات تتعلق بهذا الأمر لأنه عندما ولد ابني في ذلك اليوم كنت في البصرة لشراء القهوة ولم أعد إلا بعد منتصف الليل.

وبعد ذلك ذهب العبدان راشد وعلي إلى العجوز المسماة تاوه، وكانت الداية أو المولدة وهي زنجية عبدة، وهي العالمة بين العبيد وتعرف كل شيء وذاكرتها قوية. وسألاها: يا تاوه عندما قمت بتوليد حسن من أمه هل كان له رأس؟ فأجابت تاوه: لقد كان له رأس وعليه شعر وكان له عينان وله أذنان.

وقالا: يا تاوه لكنه الآن بدون رأس! ما الذي يجب أن نفعله؟

وأجابت تاوه: إنه ميت. وعندما أدرك علي وراشد أن زميلهما قد مات بكيا عليه وحزنا. وسمع أبو حسن وأمه بالأمر فبكيا عليه.

حكاية حماقة الغيرة

رويت هذه القصة أثناء توقفنا في الصحراء لإعداد الشاي بالقرب من مضارب الظفير، وقد اصطاد أحدهم خمسة من طيور الحبارى ونحن لم نصطد شيئا.وقيل: إن الحقد والغيرة هما من صفات المرأة.

كان هناك صبيان صغيران.أحدهما الأمير عبد الله ابن السلطان، والآخر محمد ابن الوزير، وأرسلهما أبواهما إلى المدرسة، ومكثا في المدرسة مدة عشر سنوات، وفي هذه المدرسة لم يتعلم الأمير عبد الله شيئا، فقد اعتاد على ضرب الأطفال الصغار ومشاكستهم، وتعلم فقط رمي الرمح والسهم وركوب الخيل وشرب الخمر، والبحث وراء الجمال، وكان على الدوام يصطحب رفيقه محمد ابن الوزير. وعندما انهيا تعليمهما من المدرسة لم يتعلم الأمير شيئًا واحدًا. ولكن صديقه محمد تعلم لغات عالمية عديدة؛ لأنه كان ذكيا وماهرًا.

عندما ترك ابن السلطان وابن الوزير المدرسة لم يمكنهما أن يجدا

عملًا أو مهنة؛ لأن أبويهما يحكمان البلاد. واعتادا على ركوب الخيل منذ الصباح الباكر والذهاب إلى الصحراء البعيدة، وفي المساء يعودان إلى المدينة. ويرافقهما حرس خاص مكون من ستة عبيد أقوياء من الشراكسة مسلحين بالرماح والسيوف. وفي إحدى المرات وبعد أن قطع الركب عدة أميال نحو الصحراء طلب الأمير من الحرس أن يعودوا إلى المدينة على أن يأتوا هنا قبل غروب الشمس.

ويستمتع الأمير وابن الوزير كصديقين حميمين بقضاء يوم حافل بالمرح والسعادة والبطولة.وكان الأمير يطيع ابن الوزير فيما يقترحه وكان الاثنان على قلب واحد. ودبت الغيرة في نفوس العبيد الشراكسة من هذا الوضع.وقالوا بين أنفسهم: ما الذي يقوله ابن الوزير لسيدنا، ويطيعه في كل شيء، ويهملنا ولا يستمع إلى آرائنا؟ فقط نذهب في الصباح ونأتي في المساء، إننا في حالة يرثى لها.

يجب علينا أن نقتل ابن الوزير وأن نضع النهاية لهذه الحالة، ولكن قائد الشراكسه قال: لماذا يجب أن نفعل هذا؟ قد يكون عارا أن نقتله. بدلا من ذلك دعنا نفعل شيئًا آخر، دعنا نذهب إلى الساحرة في المدينة، ونشرح لها الحالة، ودعها تقوم بعمل سحر يولد الكراهية بين هذين الولدين.

وذهب الشراكسة إلى الساحرة وقالوا لها: يا سيدة العجائب، إن الحالة هكذا وهكذا نرجو أن تفعلي السحر بأن يكره هذان الولدان كل منهما الآخر، وردت الساحرة: لتنفيذ ذلك ليس هناك عائق أو صعوبة، وليس

من الضروري أن نستخدم معرفة الكتب الممنوعة. أعطوني درهما فقط من كل واحد منكم.

أخذت الساحرة ستة دراهم من الشراكسة وذهبت إلى السوق وجاءت بملابس جديدة ألوانها زاهية ومسحوق لوجهها وعادت إلى منزلها. هذه الساحرة عجوز تزيد عن السبعين ربيعا ولكن هذه هي حرفة المرأة إنها عندما تستخدم الكحل وترتدي ملابسها وتغسل وجهها باللبن المصفى وتستخدم معه الأصباغ والمساحيق، فإنها تظهر لمن شاهدها على بعد خطوات كفتاة صغيرة في سن السابعة عشرة.

وفي الصباح جلست الساحرة بالقرب من أحد التلال التي تبعد مئة خطوة عن الطريق إلى الصحراء، وفي الصباح امتطى الأمير وابن الوزير حصانيهما وخرجا من القصر مع العبيد الشراكسة، ورأوا فتاة صغيرة جميلة كالقمر، تجلس على التل، وقال الأمير الشاب: يجب أن تكون هذه الفتاة لي، وقال ابن الوزير: لا، يجب أن تكون لي. وقفز ابن الوزير من ظهر حصانه وجرى نحو التل للظفر بالفتاة الصغيرة. وعندما رأته مقبلا اختفت خلف التل. وقبل أن يصل ابن الوزير إلى التل قامت الساحرة بمسح الأصباغ من وجهها، وقامت بارتداء عباءة قذرة، وقامت بتعرية اللثة التي ليس بها أسنان، وفتش ابن الوزير خلف التل باحثا عن الفتاة، ولكنه لم يرَ سوى الساحرة وكل ما كان حولها هو صحراء شاسعة لا تختفي فيها حتى البرغوث، وعاد إلى الأمير يسير ببطء مندهشا مما رأى.

نادى الأمير عبد الله على محمد ابن الوزير قائلا.تعال هنا.. تعال هنا، سأله: كيف حال الفتاة؟ هل قبلتها؟ ورد ابن الوزير: لم يكن هناك فتاة مطلقا إنه كان حلما، ولم يصدق الأمير عبد الله ابن السلطان كلمات محمد ابن الوزير، وغضب منه وتساءل: هل صديقي هو الذي يكذب علي؟ هل تخيل أنني أحمق حتى أصدق ما قاله؟ وقال لابن الوزير: أنت رأيتها وأخذتها بين ذراعيك، وهذه الأكاذيب ليست مفيدة.

وعاد الأمير عبد الله ابن السلطان إلى القصر ولم يركب إلى الصحراء، وعندما كان بمفرده أرسل إلى قائد العبيد الشركسي وأمره بالذهاب إلى غرفة ابن الوزير وذبحه. وقال للقائد الشركسي: ليس هناك تأخير أو تردد في تنفيذ أمري، أنا الأمير القوي، أجابه القائد: ولكن يا سيدي إنه كان صديقك. ألا يجوز لنا أن نحبسه، وقال الأمير: اذهب واذبحه وإلا سأذبحك مكانه.

وخرج قائد العبيد من القصر وقتل قطة ـ لأنه لا يمكنه أن يتحمل قتل الصبي.وبعد ذلك وضع دم القطة على سيفه وعاد. وقام بإخفاء ابن الوزير في مكان سري، وذهب للأمير وحياه قائلا: هذا هو السيف الذي نفذت به أمرك الأكثر عدلا، وعندما رأى الأمير الدم شحب وجهه.

أصبح الأمير حزينا لأن محمدا هو صديقه الحميم الوحيد، ومع مرور الأيام شعر بالكآبة والأسى، وفي أحد الأيام أصطحب عبيده في رحلة طويلة إلى أن وصل إلى الخليج العربي وهنا توقف على أحد التلال.

ومن بعيد رأى سفينة تقترب مسرعة تسابق الرياح، ولم يكن هناك حصان في الجزيرة العربية يمكن أن يعادل سرعة هذه السفينة، ومع اقترابها رأى فيها فتاة جميلة، أكثر جمالا من زهور الموصل وأنصع من ثلج أرض الأكراد بياضا، وكان جسمها نحيلا ورشيقا، وبالنسبة لصدرها فقد كان ذروة الرغبة، أحبها الأمير حبا شديدا، ورأت الفتاة أن الأمير جميل كالقمر، فأشارت إليه؛ لأن المركب الذي كان يحملها مسرعا كالطلقة.وقد وضعت أحد أصابع اليد أولا على عينها، وبعد ذلك على أسنانها، ومن ثم على سُرتها. ولم يفهم الأمير إشارتها، واختفى المركب وتلاشى كل شيء في الأفق.

والتفت الأمير إلى قائده الشركسي وسأل: ماذا كانت تعنى الفتاة بإشارتها؟ فأجابه القائد: يا سيدي، إنها بعيدة عن فهمي، وصرخ الأمير. أحضر لي محمدا ابن الوزير؛ لأنه هو الوحيد في العالم الذي يفهم كل شفرة وكل لغة. وقال القائد: يا سيدي لو كان محمد بيننا الآن لما وقعنا في هذه الحيرة. وتنهد الأمير تنهيدة من الأعماق، وحاول التغلب على حزنه قائلا: لقد فقدت صديقي، والآن فقدت هذه الفتاة الجميلة التي تمنيت أن تكون زوجتي.

في هذه الأثناء انسل القائد وذهب إلى محمد ابن الوزير وأبلغه بما حدث. وجاء محمد وطلب إذنًا للدخول لحضرة الأمير، وسمح له بمقابلة الأمير وكان الأمير مندهشا مذهولا عندما رأى وجه صديقه، وأمر بأن تتم مكافأة القائد بألف درهم وجارية جميلة.

وقد فسر محمد ابن الوزير للأمير عبد الله ابن السلطان رسالة الفتاة: بأن اسمها «عين»، وأن أباها «ملك»؛ لأن قوته تظهر بالأسنان، واسم مملكته كانت «سُرّه»، وفوق قصر الملك شجرة رمان.

وجمع الأمير عبد الله سفنه وبحارته وجنوده وكنوزه، وغادر إلى مملكة سره، واستقبله ملك سره، وكان مذهولا عندما رأى ثروته وجمال وجهه وقوته، فزوجه ابنته.

وعاد الأمير عبد الله إلى بلاده، وأحب زوجته حبا جارفا وأنجب منها أبناء كُثُر بجمال القمر، أقوياء مثل الأسود، ثابتون مثل الرماح، وشجعان مثل العرب الأصلاء. وكافأ محمدا بثروة كبيرة، وعندما مات والده الوزير خلفه.

حكاية أمير كرمانشاه وسوء حظه

وهؤلاء الذين رووا هذه القصة قالوا أن راويها الأصلي هو حسين سائس الخيل، وقد سمعها من أمه الفارسية الأصل.

كان هناك أمير في كرمانشاه لديه ثروة لا تعد ولا تحصى ولم يعرف لشخص مثل ثروته من قبل في تلك البلاد. وكان حرسه الخاص يتكون من ألف فارس، يرتدون الحرير الصيني، ويمتطون خيولا من أفضل السلالات العربية، سروجها مصنوعة من جلود الأسود ومرصعة بالذهب، وسيوفهم مصنوعة من المعادن الثمينة كالذهب والفضة ماعدا نصالها فقد صنعت من الحديد الدمشقي.

وخلال السنوات التي تزوج الأمير فيها ابنة سلطان الفرس، وكانت جميلة كلؤلؤة من لآلئ الكويت، ولم يكن هناك أي عيب في وجهها أو في جسدها، وكان من الضروري أن يخفيها عن أعين الرجال، لئلا يصابوا بالعمى عندما ينظرون إليها لأن من ينظر إلى الشمس لا يمكن أن يرى بريق السيجارة.

لذلك فقد أقامت الفتاة في قصره الفخم، وعاشا هناك معًا في سعادة وسرور. ومرت الشهور وهما يتمتعان بمشاعر الحب كزوجين سعيدين، وأصبحت الزوجة حاملا، وفي النهاية رزق الأمير بابن، وبهذه المناسبة السعيدة أمر الأمير أن يقام احتفال كبير لا مثيل له من قبل بين الفرس، وقد أمر بذبح ألف خروف، وألف بطة. وألف إوزة، وألف طاووس بالإضافة إلى تجهيز القدور الكبيرة المليئة بالأرز، والليمون، واللوز، والكمأ(الفقع)، وجاءوا بالبراميل وملؤها بنبيذ الموصل، ونبيذ شيراز، وخمور الروس والفرنجة. وقد غطى الاحتفال الكبير مساحة كبيرة لدرجة أن الانتقال من طرف إلى طرف آخر يستغرق ساعة على من يمتطي حصانا سريعا. وحضر الاحتفال الملوك والأمراء، والنبلاء، والشيوخ العظام، ورؤساء القبائل، وقادة الجيوش، وكبار التجار وكل هذا الحشد جاء لتقديم التهاني والتبريكات للأمير رستم أمير كرمانشاه الأعظم، وتناول المدعوون بمعية الأمير رستم الطعام والشراب حتى شبعوا.

وكان من ضمن الضيوف سلطان الفرس والد الفتاة زوجة الأمير رستم، وبعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام والشراب ورفعوا أيديهم عن الموائد، نهض رستم ليشكر السلطان والضيوف الكرام لمجيئهم تلبية لدعوته، في هذه الأثناء ساد صمت رهيب من قبل الحضور احتراما لسماع ما يقوله الأمير، وكان الصمت لدرجة أن الضيوف ومن مسافة بعيدة يمكن أن يسمعوا طنين النحلة الخفيفة إذا طارت على فرش الموائد الحريرية. أثناء نهوض رستم أحدث صوتا أجلكم الله، وربما لا يخفى على أحد أن

الفرس لهم حضارة مثلهم مثلنا نحن العرب، وقد يعطس الإنسان،أو يكح، أو حتى يتجشأ محدثا صوتا.ولا يخجل أحد في إظهار هذا الصوت؛ إلا أن هناك إحداث صوت يجلب الخزي والعار، وكم تكون المصيبة أعظم عندما يكون محدث الصوت هو سمو الأمير رستم حاكم كرمانشاه.

وقد سمع الصوت السلطان والأمراء والنبلاء والشيوخ ورؤساء القبائل وقادة الجيوش وكبار التجار فذهلوا من ذلك.ومن مسافة بعيدة كانت تسمع ضحكات أحد العبيد، والعبيد لا يهتمون باحترام المكان وتنقصهم اللباقة وحسن التصرف. فاسودّ وجه الأمير رستم خجلا وغادر المكان.

وعاد الأمير رستم من الاحتفال، ولم ينظر إلى وجوه أصدقائه، وأخذ من خزانته كيسًا من الذهب، وأمر أن يسرج أسرع حصان من خيله، واستعد للرحيل. ومن بين كل الحاشية والخدم جاء إليه واحد فقط، وهو صبي مخلص له ـ اسمه «قيس» ـ قال للأمير رستم: اسمح لي يا سيدي أن أرافقك أينما تذهب، فوافق الأمير.

وقد شرع الأمير وقيس بالرحيل بهدف الوصول إلى بلاد الروس؛ حيث لا أحد يعرف اسم الأمير ولا تاريخه، وقد سلكا طريقا عبر الجبال العالية، ولم يكن معهما حرس أو رفقاء طريق، وبينما هما يعبران أراضي الأكراد هاجمهما لصوص من قطاع الطريق، وهؤلاء اللصوص هم من قبائل الهموند. واستل الأمير رستم سيفه لإظهار قوته وإعاقة تقدمهم نحوه في الوقت نفسه استل الخادم قيس خنجره لحماية ظهر سيده رستم.

لكن أفراد قبائل الأكراد كثر، حتى قيل أن الأكراد كالجراد. وانتصر أفراد قبيلة الهموند على رستم، وأوسعوه ضربا إلى أن سقط أرضا وهو يئن من جراحه، وقد سلبوا سيفه، وجواده، وكيس الذهب، وملابسه، وأحذيته. تركوه يرقد على الأرض؛ لأنهم اعتقدوا أنه قد مات، وأخذوا الصبي قيسًا ليبيعوه في سوق النخاسة كعبد.

وفي صباح اليوم التالي وعندما أشرقت الشمس نهض رستم ووجد نفسه عاريا ملقى على قارعة الطريق في كردستان. أخذ يتجول في القرى الكردية وعند توقفه في إحدى القرى طلب من الأكراد الماء فأعطوه، ولكن عندما سأل عن أخبار الصبي قيس لم يجيبوه، بل لم يفهموا كلماته، وأخذ يتجول من قرية إلى قرية لعل أحدا يعطيه معلومات عن صديقه قيس فقيل له: إن هذا الولد الذي تصفه قد اشتراه رجل هندي من سوق النخاسة.وقد أخذه معه إلى الهند وكان يسير مكبل اليدين وشبه عار.

وقد انتابت رستم الأحزان عند سماعه هذه الأخبار. وسلك الطريق إلى الهند، ولم يكن لديه المال أوالثروة، فاستغرقت رحلته خمس سنوات؛ لأنه في كل مدينة تقتضي الضرورة أن يتوقف ويعمل حمّالا في الأسواق الشعبية من أجل الحصول على المال لشراء الطعام للمرحلة التالية من رحلته. وفي هذا الوقت جاء إلى قندهار في أرض الأفغان فذهب إلى البازار(السوق الشعبي) وصرخ إلى التجار سائلا إياهم من منكم يحتاج إلى حمّال قوي.

فاستأجره تاجر يهودي، وأخذه إلى منزله، وقال له: خذ هذه الصناديق واحملها إلى التل، وضعها في الكهف أو المغارة هناك. وأخذ رستم الصندوق بعد الصندوق وحملها إلى التل ووضعها في مغارة سرية، كما أمره التاجر، وكانت الصناديق صغيرة، ولكنها ثقيلة جدا، لذلك فقد كان من الواضح لرستم أنها احتوت على الذهب. وعندما وضع آخر صندوق في الكهف جاء التاجر إليه بالغداء والنبيذ وهو في المغارة، وقال.كل واشرب لأنك متعب.

واعتقد التاجر أن رستم فلاح بسيط يجهل الأمور، ولم يعرف أنه أمهر الأمراء. فكر رستم وقال: عندما يكون هناك ذهب يصبح الرجال مثل الثعالب، وهم لا يظهرون كنوزهم. فخاطب التاجر قائلا: يا سيدي لا يبدو من المعقول أن آكل أمامك، لذلك فقد أخذ الطعام إلى ركن في المغارة وأصدر صوت الأكل ولكنه لم يأكل، وأصدر صوت الشرب ولكنه لم يشرب، وأخذ وضع النائم ولكنه لم ينم.

في هذه الأثناء رأى التاجر متقدما نحوه وفي يده خنجر. فقفز رستم إلى التاجر وأمسكه، وأصبح الرجل طفلا بين يدي الأمير رستم، وقتل رستم التاجر، وبعد ذلك فتح الصناديق ووجدها ـ كما اعتقد ـ مليئة بالذهب والفضة واللآلئ وعملات من جميع ممالك العالم، وانشغل رستم في عد محتويات الكنز إلى أن غربت الشمس.

قلق أبناء التاجر عندما لم يعد أبوهم من التل، وقال أحدهم للآخر:

لقد أحدق الشر بوالدنا، ورد الآخر: هذا صحيح. لقد تركنا والدنا بحماية الحمال؛ وقد تعرض لعملية انتقام لا نعلم الحقيقة إلا من الحمال.

وفي الصباح عاد رستم من المغارة إلى المدينة وعندما كان يمر عبر البوابة إذ بأبناء اليهودي يصرخون قائلين: امسكوا بهذا الرجل لأنه قتل أبانا وسرقه، وألقى حراس البوابة القبض على رستم وقاموا بتفتيش ملابسه، وكانت جيوبه مليئة بالذهب واللآلئ والأحجار النفيسة من كنز التاجر، وعلى قميصه كانت هناك لطخ من الدم، فاقتنع الحراس بأن رستم قد قتل التاجر اليهودي فكبلوه وقادوه إلى غرفة قائد حرس المدينة.

ودخل اليهود وهم يبكون: يا قائد، أعطنا الحق هذا الحمال هو فعلًا قاتل ابينا، وفكر رستم: كيف يمكنني أن أهرب من هذا الوضع؟ ولكن قائد الحرس نهض من كرسيه وجرى نحو رستم وعانقه وقبله مرة على خده الأيمن ،وأخرى على خده الأيسر وأمر بأن يطلق سراحه وأن تفك أغلاله.وكان قائد الحرس هو الصبي قيس خادم الأمير رستم وأصبح الآن شابًا في سن العشرين.

وروى قيس قصته إلى رستم قائلا: تم بيعي مع عبيد آخرين في السوق إلى نخاس هندي وتم تكبيلي بين اثنين من الفيلة، وكنت في حالة بائسة وشبه عار، وشرع النخاس في رحلته على طريق الهند، وكنا نسير لمدة 20 ساعة يوميًا، ولم يمكننا أن نستريح أو نتوقف، وإذا ما طلبنا ذلك فإنهم يضربوننا دون رحمة أو عطف. وجاء الليل الذي توقفنا فيه خارج بوابة هذه

المدينة؛ لأن البوابة كانت مغلقة حتى الفجر وقد كنت آكل الذرة وأشرب الماء، ورأيت فأرًا يأتي ليأكل الذرة فأمسكت به بيدي. فتح الحراس البوابة وقت أذان الفجر. واستعددنا للمرور عبرها، أولًا النخاس وجنوده وبعد ذلك الفيل وسلسلة العبيد المربوطة بالفيل الأخير وقد كنت آخر عبد يمر بهذه البوابة، وكان ورائي آخر فيل. ولكن قبل أن يمر آخر فيل عبر البوابة فإنني قمت بوضع الفأر في خرطوم الفيل، وجرى الفأر داخل الخرطوم إلى رأس الفيل.

ولست مبالغا ولا أتهرب من الحقائق حين أقول: أن الفيل أصبح مجنونًا وإذا به يتحول ويطير، وكانت قوته قوة مئة فيل. وفي هذه اللحظة كان الفيل مكبلًا بسلسلة حول وسطه، والطرف الآخر مربوط لوسط الفيل الأمامي، وقد مر الفيل الأمامي عبر البوابة إلى قندهار، ونحن العبيد تم ربطنا بسلسلة بين الفيلين. وعندما تحرك فيل المؤخرة وأسرع بجنون بعيدًا كانت السلسلة مشدودة جدًا، وتسببت قوة سرعة فيل المؤخرة إلى رفع قدمي الفيل الأمامي وسحبه للخلف. والتصق الفيل في بوابة قندهار كفلينة في قنينة، وكانت أقدامه مرتفعة عن الأرض وفقد الفيل قوته وطاقته. ونحن العبيد كنا معلقين من السلسلة في الهواء، وهذا الشد في السلسلة لربما جعلنا نطير إلى أراضي المغاربة؛ ولكن السلسلة كانت مصنوعة من الحديد الصلب فلم تنفصم عراها. وظهرت تصدعات وشقوق في سور أبراج بوابة قندهار إلا إنها لم تدمرها. وقرع الحرس جرس الإنذار ونفخوا البوق وتجمعت القوات والأفراد وهم يرددون: هناك خداع، إن الهندي

يريد تدمير البوابة، وأن يستولي جنوده على المدينة، فقام جنود الأفغان بمهاجمة جنود النخاس الهندي وهزموهم.وتجمع جمهور غفير في ذلك المكان.

وقد كنت معلقًا بالسلسلة في الهواء في حالة عري، وناديت على الجمهور الـذي تجمع وصرخت: نحن شباب مؤمنون مسلمون، مستعبدون من وثنيين، وقابعون في الأسر ونحن في أراضيكم، هل هذا الشيء تسمحون به أو تسمح به قوانينكم يا شعب الأفغان؟ وأجابوا: استعباد المؤمنين ليس مسموحًا أو مصرحًا به.

وبعد ذلك امتطى أحد الضباط الكبار حصانه قائلا: أيها الفتى، إذا كنت مسلمًا فلتقل شيئا عن عقيدتك.ولم يكن باستطاعة الجنود الهنود أن يمنعوني أو يتدخلوا فيما أقول؛ لأنهم كانوا سجناء، وتحدثت عن الشريعة الاسلامية. فقال الضابط الذي اختبرني هذا الفتى حقا من المؤمنين، وجاءوا بالجنود وقتلوا الأفيال، وأحضروا الحدادين، وفكوا السلاسل، ووضعوني على الأرض لأنني كنت منهكا وأنزف دما من تعذيب الهنود، وبعد ذلك قاموا بنقلي إلى منزل ووضعوني على سرير مريح، وقاموا بتدليك جسدي بالزيت.واستخدموا المراهم على ظهري، ووضعوها على ساعدي الذي انتزع منه اللحم وبان العظم بسبب القيود الحديدية التي تكبله.

وفي الصباح ذهبنا أمام القاضي وسمع قصتنا، وأمر بأن يتم إعطاء كنز النخاس إلينا كتعويض، لأن النخاس وخدمه وجنوده كانوا خونة، ويجب

أن يتم بيعهم كعبيد. وطلب مني أن أقيم في هذه المدينة، وأثناء رحلتي اكتسبت الكثير من الخبرة وقد تعلمت منك فنون القتال فانضممت إلى القوات الأفغانية عند خروجها لقتال الروس والهندوس، وقد كنت أكثر مهارة من أي من الجنود الأفغان، وأصبح ملك الأفغان سعيدًا بي، وقام بترقيتي إلى منصب رفيع.

وكان رستم الحمال سعيدًا جدًا عندما سمع قصة قيس، قائد الحرس، وهذه الأحداث معروفة لكم مستمعي الكرام، وأمر قيس بأن يتم سجن أبناء اليهودي لإنهم شهدوا شهادة زور، وبعد ذلك أرسل قيس الجنود وأحضروا كنز التاجر إلى المدينة، وتم إعطاء النصف إلى الفقراء والجمعيات الخيرية الدينية، وتم حفظ النصف كمصروفات، وبالنسبة لرستم تم إعطاؤه حصان وخدم وجوار، ووظيفة مساعد لقائد حرس المدينة.

وخرج ملك الأفغان بقواته ليحارب الهنود وصحبه رستم وقيس وكان الهنود يركبون الفيلة ويصطحبون النمور فهاجموا القوات الأفغانية، وقتلوا آلاف الأفغان وأصبحت الهزيمة حتمية؛ لأن الأفيال داست بأقدامها الأفغان، وأفزعت النمور خيولهم ومزقتها بمخالبها.

وهنا تجلت حكمة رستم في فن الحرب، فقبل مغادرة قندهار، جلب ألف إناء فخاري ملأ كل منها بخلايا نحل وأغلقها، وحملها على ظهور الجمال. وعند احتدام المعركة أمر رستم أن توضع الأواني الفخارية على الأرض بخط واحد يعترض جيش الهنود، وسحب قواته خلفها، وطلب

منها الانسحاب بسرعة قصوى. عندما رأى الهنود القوات الأفغانية تنسحب مسرعة لاحقوها، وداست الأفيال الأواني الفخارية فكسرتها. في هذه الأثناء خرج النحل من خلاياه في ثورة غضب يلسع الأفيال في كل جزء من جسمها حتى تحت ذيولها، وأخذ يلسع النمور والهنود. وجن جنون الأفيال والنمور، وأخذ يهاجم كل منها الآخر، وقد سبب النحل العمى للهنود، وفروا في كل اتجاه. حينئذٍ تجمع الجيش الأفغاني، وبعد أن أنهى النحل مهمته، قاموا بمطاردة جموع الهنود المندحرة.

وسر ملك الأفغان بحيلة رستم، وأمر بمكافأته بوشاح الشرف والشجاعة، وصندوق من الذهب، وقيادة الجيش.

عاد رستم إلى قندهار وأصبح أحد أكثر المواطنين احترامًا وتقديرًا، وتزوج فتاة بكرًا جميلة كجمال القمر، وأنجبت زوجته العديد من الأبناء الشجعان، مثل والدهم، وكانوا ماهرين مثله في فنون الحرب. ومكث رستم في قندهار أربعين صيفًا وأربعين شتاءً في سعادة.

وفي أحد الأيام نهض من سريره، وطلب من خادمه أن يحضر له مرآة، نظر في المرآة ورأى أن لحيته بيضاء، وشعر رأسه أبيض مثل الملح واستدعى أبناءه وتجمعوا حوله، وقال لهم: على كل مسلم مؤمن أن يقوم بالعديد من المهام والواجبات، ولقد أمضيت مدة سبعين سنة في رحلة العمر، وإني أرى اليوم الذي تقترب هذه الرحلة من محطتها النهائية. هذا اليوم يتضح لي أن ملاك الموت (أبعده الله عنكم) ينتظرني، وهو ليس

صبورًا في انتظاره. وتقسيم ثروتي كميراث معلوم لكم يا أبنائي؛ لأنه حسب الشريعة الإسلامية.أنا الآن لدي رغبة وحيدة وأحب أن أحققها وهي: أن أعود إلى موطني الأصلي وأموت وأدفن فيه، وليعلم كل منكم أنني رجل من سلالة ملكية، ولكنني أغتربت وتركت موطني لسبب لن أفصح عنه وأبقيه سرًا.

وفكر رستم: الآن وبعد خمسين عامًا سينسى الناس هذا الحدث السيئ الذي تسبب في رحيلي من كرمانشاه ويمكنني أن أصل إلى موطني دون خوف. ارتدى ملابس تاجر غني وأتخذ اسم عباس علي الشيرازي واشترى حيوانات، وشرع في رحلته إلى كرمانشاه، ولم يقل لأي أحد عن اسمه أو وجهة سفره.

وجاء اليوم الذي وصل فيه في سهل بالقرب من مدينة كرمانشاه التي شهدت الاحتفال المشؤوم، ولكن هذا السهل الذي كان من قبل صحراء قاحلة الآن خصب وغني بالمحاصيل وفيه قرية عامرة لم تكن فيه من قبل. سر رستم مما رأى، وفكر: كيف حكمت زوجتي وابني هذه البلاد؟ وقابل فارسًا في طريقه ليسأله عن اسم القرية، لأنه فكر دون شك أن المواطنين يتذكرونه، وللمصادفة ربما أطلقوا اسم هذه القرية تخليدا لإحدى انتصاراته العظيمة، ونادى قائلا: يا أخي ما اسم هذه القرية؟ وأجابه الرجل: إن اسمها معروف لكل شخص. أهل القرية يطلقون عليها «أمير آباد» أي مدينة الأمير، لأنها سميت هكذا وكتبت في السجلات الرسمية. أما نحن أهل كرمانشاه

فنطلق عليها «ضراط آباد» ولا نشير إليها بأي اسم آخر. دعني أخبرك عن سبب هذه التسمية: فقد أحدث الأمير الرائع رستم صوتًا(ضراطًا) في هذا المكان وليس في مكان آخر. غضب رستم من كلمات الرجل، وفكر قائلا بينه وبين نفسه: «ألم ينس هؤلاء التعساء ذلك الحدث»؟

وبينما هو يسير بطول الطريق أخذت تتجاذبه الأفكار: إن أهل الأسواق الشعبية فظون غير مؤدبين، وأفكارهم بسيطة لا يهتمون إلا بتوافه الأمور؛ ولكن زوجتي وابني من سلالة ملكية، وهكذا فإنهما يفكران فقط في الأشياء الراقية والمهمة، ولا يلقيان بالا إلى الأحداث المعيبة التافهة فهي بعيدة عن عقليهما ولن يتذكراها. فقرر الذهاب إلى مدينة كرمانشاه، وهناك دخل ممرًا سريًا هو الوحيد الذي يعرفه ولا يعرفه أي شخص آخر في العالم. وهذا الممر يؤدي إلى صالة المجلس داخل القصر، وقف خلف الستارة في صالة المجلس وتمكن من رؤية أولئك الذين في هذه الصالة، ولم يعلموا بوجوده.

وفي هذه الغرفة جلست سيدة عجوز، تعرف عليها رستم وهي ملكته المحبوبة، ورجل ناضج فيه من ملامح رستم، وقد وقف أمامهما الياور منتظرًا أوامرهما، وكان رستم سعيدًا عندما رأى وجهي من يحبهما وتحدث الابن قائلًا: يا أمي، هل القلاع المقامة على حدودنا الشمالية تحتاج إلى حاميات عسكرية؟ كم سنة مضت على هجوم الروس علينا؟ وفكر رستم: الآن سوف يتذكرون اسمي بفخر؛ لأنني شتت شمل أولئك الروس. قالت

المرأة: لابد أنه مضى ستون عامًا تقريبًا. ورد الابن: هل كان النصر قبل سنة الضراط أم بعدها؟ وردت المرأة: إن المعركة مع الروس كانت قبل خمس سنوات من تسبب الأمير رستم، والدكم، في الصوت (الضراط). وحزن رستم بعد سماعه ما دار من حوار، وفكر متحدثا إلى نفسه: «هناك بعض الأمور التي لا ينساها الناس مطلقًا ولا يغفرون لمرتكبها».

غادر رستم القصر ولم يتحدث إلى أسرته، وسار نحو قمة جبل مرتفع بالقرب من كرمانشاه باحثًا عن صحبة الحيوانات والطيور وتلك الأشياء التي ليس لها ذاكرة. وعندما حل فصل الشتاء سقطت الثلوج على الجبل، ومات رستم الأمير النبيل من شدة البرد. وفي فصل الربيع جاء الرعاة إلى الجبل ووجدوا جثته فدفنوها في قبر حسب الشريعة الإسلامية. والآن عندما يسأل الأطفال في كرمانشاه آباءهم: في أي سنة مات هذا الرحالة في الثلج على الجبل المرتفع ودفنه الرعاة.فإن الآباء يجيبون: لقد مضى على هذا الحدث خمسون عامًا بعد السنة التي فعل هذا الأمير النبيل فعلته.

حكاية الشاب جميل ابن التاجر البغدادي

يحكى أنه في أيام هارون الرشيد كان هناك شاب تقي اسمه جميل ابن لتاجر أقمشة في سوق بغداد مدينة السلام.

جاءت السنة التي توفي فيها أبو جميل، وكان أحد أغنى تجار مدينة السلام، وورث جميل من والده دكانه وأقمشة الحريرالتي يحتويها، وصندوق مليء بالذهب لا يستطيع رفعه إلاعشرون رجلًا. حزن جميل على وفاة والده حزنا شديدا.

جلس في الدكان ليمارس نشاطه التجاري مكان والده، وفي ليالي المساء اعتاد أن يستغل مركبا ويذهب إلى إحدى الجزر، ويأكل السمك المشوي ويشرب النبيذ.وذات ليلة وبينما كان يمر في مركبه نظر إلى نافذة منزل تحوطه حديقة غناء بالقرب من النهر؛ ورأى فتاة تقف أمام النافذة ونظر إليها بذهول إنها ممشوقة القوام بُيضاء كالقمر، تبدو كزهرة الخزامى بين الخمائل، عيناها كعيني غزال شارد، ونهداها مدورتان كالرمان،

وخصرها نحيل مثل خصر طفل صغير إنها قمة في الكمال والجمال. وهنا خفق قلب جميل واخذ يتحرق شوقا وعقد آماله وطموحه على حب هذه الفتاة.

وعندما عاد جميل إلى منزله قرر عدم ذهابه إلى الجزرمرة أخرى. ثم ذهب إلى امرأة صادقة حكيمة لم تعتد على النميمة إنها لطيفة والتي لا يمكن أن يأتي الموت أو التعذيب منها بسر، وقال للمرأة الحكيمة: اذهبي إلى شارع كذا وكذا وإلى المنزل الذي يقع في حديقة أشجار الرمان.تحدثي مع الخادمات، واسأليهن عن كل شيء يتعلق بالفتاة ذات الوجه القمري التي تعيش في هذا البيت، وأحضري لي جميع المعلومات المتعلقة بها، وفي الصباح عادت المرأة من هذا المكان وقالت: اسم الفتاة ذات الوجه القمري، أميرة وهي ابنة رجل فقير، حلاق فارسي من شيراز، وقد جاء بها والدها هنا عندما كانت طفلة، إنني أعرف كم هي الرحلات الطويلة مفزعة للأطفال وهي تذكرني برحلتي أنا ووالدي من الموصل إلى بغداد في طقس حار جدا ونحن نمتطي الحمير.

ولكن جميل لم يستمع إلى كلمات المرأة الحكيمة، لأن عقله كان مشغولا في أشياء أخرى وقاطعها قائلا: الأميرة إذن متزوجة؟ وردت المرأة الحكيمة: إنها عذراء. وسأل جميل: هل لديها ابن عم؟ أو هل هناك أي شخص له الحق في الزواج منها؟ وردت المرأة: هناك عوائق في سبيل زواج هذه الفتاة. لا نخفي عنك أنها جاءت هنا فتاة فقيرة وبعد ذلك مات

والدها، ولكنها لم ترث منه أموالًا ورغم ذلك فإنها الآن ثرية وثراؤها يزيد عن ثرائك. وكان جميل مذهولا وقال: قُلتِ إنها كانت عذراء، من أين إذن هذا الثراء؟.

وأجابت المرأة الحكيمة: إنها عذراء وتأكدت من ذلك من خلال الاستفسارات الدقيقة والمتقنة من خادمتها والعبيد، حيث يقسمون أنه لم يلمس أي رجل يدها، ورغم ذلك فإن ثراءها جاء من جمالها، لأن جمالها يزيد عن جمال أي فتاة في مدينة السلام، ولك أن تعلم أن الأغنياء وهؤلاء النبلاء سوف يدفعون أكياسًا من الذهب لكي يروها، لأن هؤلاء القادمين من الأسر الملكية الكبرى يحبون الأشياء الفنية والجميلة، وهذه الفتاة سوف تظهر لك وجهها مقابل خمسين درهما، وجسمها من الوسط لأعلى مغطى بملابس من الحرير الجميل مقابل مئة درهم، وجسمها كله مغطى بأندر الملابس الأصفهانية مقابل مئتي درهم، وجسمهاعاريا من الوسط لأعلى مقابل 500 درهم، وجسمها عاريا بأكمله مقابل 1000 درهم. ولكن يفصل بينك وبين هذه الفتاة شبكة من قضبان الحديد بسمك ذراع الرجل ولا يمكن أن تقترب منها. وبهذه الطريقة يمكنك أن ترى هذه الفتاة وليس بطريقة أخرى، ودهش جميل التاجر عندما سمع ذلك.

وظل جميل التاجر ساهرا كل ليلته لم يأت النوم إلى عينيه يتقلب على السرير يفكر ويتدبر: كيف السبيل إلى الزواج من هذه الفتاة؟ وإذا تزوجتها كيف أخفي عن التجار والأصدقاء أنني تزوجت فتاة تكشف جسمها

للرغبة الفاحشة؟ كانت أفكاره وأحلامه مضطربة ولم يصل إلى قرار وأخذ يتحدث إلى نفسه قائلا: إذا تزوجت هذه الفتاة، فستموت خجلا إذا علمت أنني أعرف مهنتها. وعند الصباح كانت رغبته في رؤية محبوبته قوية، حينئذ نهض من سريره، وفكر بطريقة يتخفى بها فارتدى ملابس سكرتير تركي، وثبت في وجهه لحية مصنوعة من صوف الأغنام، وعندما خرج من منزله لم يعرفه أصدقاؤه.

ذهب إلى المنزل المسور بأشجار الرمان وطرق باب المنزل ففتحه أحد المخصيين، كان ضخم الجسم يمتشق سيفا وخلفه جلس عشرة مخصيين ضخام الجسام يمسكون بقبضات سيوفهم. وخرجت سيدة عجوز ووقفت أمامه. قال جميل التاجر للسيدة أتمنى أن أرى سيدتك، السيدة أميرة، وردت المرأة: بأية طريقة ترغب أن ترى سيدتي: هل ترغب أن ترى وجهها؟ أم جسمها من الوسط لأعلى مغطى بالملابس المصنوعة من أفضل أنواع الحرير؟ أم جسمها بالكامل المغطى بأندر ملابس أصفهان، أم بأي طريقة أخرى ترغب في أن ترى سيدتي؟

ورد جميل التاجر: لا أريد أن أحملق في سيدتك بأية طريقة، أريد فقط أن أتحاور معها حول أمر هام. وردت المرأة: ليس مسموحًا أو مصرحًا بهذا، وأعطت الإشارة إلى المخصيين الذين تقدموا إلى جميل التاجر. وقال جميل التاجر: هذه خمسون درهما وسوف أرى وجه السيدة، وأخذت المرأة الدراهم وفتحت الباب واصطحبت جميل التاجر إلى

أعلى سلم ضيق يحرسه المخصيون المسلحون بالسيوف، وتركته في غرفة صغيرة في أحد جدرانها نافذة عليها شبكة من القضبان الحديدية بسمك ذراع الرجل، وعبر هذه الفتحة يمكنه أن يرى غرفة مهيأة بأفضل طريقة، وحذرته المرأة أثناء مغادرتها بألا يتحدث مع السيدة أميرة وإلا سيغلق الباب وسوف تختفي من أمام نظره.

وانتظر جميل التاجر في هذه الغرفة وقلبه كان يخفق سريعًا وعاليًا وبعد ذلك فتح الباب ورأى بين قضبان الحديد وجه السيدة أميرة محبوبته وغمرته الدهشة؛ لأنه رأى أن أذنيها مثل بتلات الوردة، وأن جبهتها كانت بلون الحليب، وخديها مثل الخوخ الناضج، وشفتيها ذروة الرغبة، وعينيها تسحر الألباب، فعندما نظر إليهما فقد عقله وبهذه الطريقة حملق في وجه محبوبته، ولم يكن هناك قوة منطق فيه وتحدث وقال: يا سيدتي لقد أرسلني إليك سيدي التاجر الثري من إسطنبول وهو يرغب في الزواج منك وسوف يعطيك صندوقًا من الذهب، وملابس ثمينة زاهية الألوان وأي شيء في العالم ترغبين فيه، وستغادرين بغداد وتذهبين إلى بيته وتعيشين معه. ولكن السيدة أميرة أعطت الإشارة وأغلق باب من الحديد من وراء القضبان ليحرمه من رؤية أميرة وغادر جميل التاجر هذه الغرفة وكان قلبه مثقلًا بالحزن. وعاد إلى دكانه ولكنه لم يمارس تجارته؛ لأنه ظل يفكر في أميرة التي استولت على قلبه وعقله ولا أحد سواها.

وأخذ كل يوم يذهب إلى المنزل المسور بأشجار الرمان وفي كل يوم

يصرف ألف درهم حتى يمكنه أن ينظر إلى جسد محبوبته الجميلة وكلما حاول أن يتحدث إليها يسقط الباب الحديدي ولا يتمتع برؤيتها.واستمر على هذا المنوال طيلة ستة أشهر وانهارت تجارة جميل التاجر، وأصبح دكانه خاليًا من الملابس والبضائع الثمينة.

وعندما انتهت أمواله ارتدى جميل التاجر ملابس السكرتير التركي وذهب إلى المنزل المسور بأشجار الرمان، وقال للمرأة: زرت بيتكم مئات المرات والأموال المقدمة لي من السيد الباشا العثماني تم صرفها ورغم ذلك فإنني لم أنفذ أوامره، لذا أطلب رحمتك وعطفك علي، دعيني أتحدث إلى السيدة أميرة حتى يمكنني أن أنهي عملي؛ ولكن السيدة أعطت إشارة إلى المخصيين وتقدموا إلى جميل التاجر وأمسكوا به وسحبوه خارج السور وانهالوا عليه ضربا بالعصي ورموه في الطريق في حالة يرثى لها وهو ينزف دما. وجاءت إليه الخادمة قائلة: «اذهب من هنا يا كلب العثمانيين وابق بعيدًا عنا لأن سيدتي انتقمت منك كما ستنتقم من قبيلة آدم بأكملها».إن سيدتي من سلالة ملكية إذ كان أبوها ملكًا في فارس ولكن بسبب خيانة وزرائه وجنوده دمرت مملكته، وأطيح بها وكان عليه أن يطير من الجزيرة ولكن الملكة أم سيدتي سيدة الجمال الطاغي أسرها الوزير الغادر وفعل بها أشياء لا يسمح بذكرها، وفي النهاية قتلها بطريقة بشعة. وعندما وصلت سيدتي إلى سن الرشد وأصبحت مدركة لهذه الحقائق قررت أن توظف جمالها، وهو سلاحها الوحيد لتدمير الرجال، لأنها رأت في الرجال الشر والخيانة بينما الفضيلة والطيبة هي سمات النساء.

سمع جميل التاجر كلمات الخادمة ونهض من الأرض وعاد إلى دكانه وقلبه مثقلًا بالأسى والحزن وجلس في دكانه يبكي، وكان دكانه خاليًا من الملابس الجميلة.

كان أبو نواس صديقًا وفيًا للخليفة، ومر يتجول بالسوق وهو متخف يفكر في إيجاد بعض الترفيه أو المتع التي يمكن أن تمتع سيده وتجعله سعيدًا، بعيدا عن مشاغله ومسؤوليات الدولة، كان يمر بمحلات كبار التجار المليئة بالحرير والبضائع الثمينة من دمشق والصين، رأى محلا فارغًا من الأقمشة أو السلع وكان يجلس فيه شاب وسيم، كان يبكي بطريقة تمزق القلب.

ذهب أبو نواس إلى الشاب وحيّاه، وقال يا فتى ما الذي تبيعه؟ إنه جمالك لأنني أرى أن ليس لديك أي بضائع أخرى؟ ورد عليه جميل التاجر: «ارحل عني يا سيدي»، لأنني كالمصاب بوباء الطاعون، لا قوة لي ولا عقل ولا نظر: لا أرى شيئًا أمام عيني سوى وجه فتاة أحببتها، ولا يمكن أن أعمل بأي تجارة أو مهنة، إن ملاك الموت فقط هو الذي يمكن أن يريحني من هذا العذاب، ولكن أبا نواس جلس في هذا المحل وقام بطرح أسئلة على الشاب إلى أن عرف الحقائق والأحداث المعروفة لك وللمستمعين ولم تكن هناك كلمة واحدة محذوفة من الذكر، وسمع أبو نواس قصة جميل، وفكر متحدثا إلى نفسه: هذه القصة سوف تتطور إلى قصة جميلة لمتعة سيدي الخليفة، وقال أبو نواس لجميل التاجر يا فتى إن قصتك تدعني أتعاطف من أعماق

قلبي نحوك. إن تعاملك مع الأحداث يعد طريقة طبيعية لتعامل الشباب مع مشكلاتهم، وسوف تكسب الحكمة والخبرة إذا التزمت بفعل كل شيء أقوله لك.سوف تسترد ثروتك. ويجب عليك فقط أن تتبعني وتقوم بعمل كل شيء أقوم به، وتقلد تصرفاتي، مادامت عيني اليمنى مفتوحة، ولكن عندما أغمض عيني اليمنى فإنك يجب ألا تفعل شيئًا، وتمتنع عن كل عمل وكل فعل إلى أن تلبى رغباتك بالكامل.

وقد أخذ أبو نواس جميل التاجر إلى محل الملابس التنكرية وارتدى كل منهما ملابس تشبه ملابس الصينيين، ولكن أبا نواس طلب من الفتى ألا يغطي وجهه ليظهر جماله. وبعد ذلك ذهبا إلى النهر وأخرج أبو نواس كيسًا من الذهب واشترى مركبًا، وبعد ذلك اشترى حمارًا من أقوى السلالات وقام بربط المركب بحبال بالحمار ولكنه لم يضع المركب في النهر.

وبعد ذلك جلس أبو نواس وجميل التاجر في المركب وسحب الحمار المركب على الرمال والطين بجانب النهر وذهبا في اتجاه منزل السيدة أميرة وعندما جاءا بالقرب من هذا المنزل بدأ أبو نواس في الغناء بهذه الطريقة.

أبا دابا أبا دابا.

دابا أبا دابا أبا.

أبا دابا أبا دابا.

وقلده جميل التاجر مغنيا أيضًا هذه الأغنية الغريبة وبهذه الطريقة مر أبو نواس وجميل التاجر على المنزل الذي يقع في بستان أشجار الرمان وفتح الباب وظهر وجه الجارية وسمع أبو نواس وجميل التاجر نداءها إلى سيدتها قائلة: «تعالي يا سيدتي هناك أغراب يستخدمون مركبا يسير على الأرض، تعالى وانظري إلى هذه الملهاة(الكوميديا)». وظهرعبر النافذة وجه المحبوبة أميرة ولم تغط وجهها، وقال أبو نواس لجميل: انظر جيدًا إلى هذا الوجه الجميل دون أن تدفع خمسين درهما.

في هذه الأثناء أوقف أبو نواس الحمار ونزل من المركب وأخذ من المركب الأرز واللحم وأواني الطهي، وجمع الخشب وأشعل النار، ولكن لم يضع الطعام في أي من الأواني كما أنه لم يغمس الأرز في الماء. قالت الفتاة أميرة لخادمتها: انظري كيف يقوم هؤلاء الرجال بالطهي، الأرز ليس في الماء ولن يسخن بالنار، كيف إذن يمكن أن يؤكل هذا الأرز؟ وبعد أن وضع الطعام تحت النار لمدة عشر دقائق، قال أبو نواس لجميل التاجر، تعال يا أخي لقد تم طهي الطعام وسوف نأكل، وأخذ أبو نواس حفنة من الأرز وصبها على رقبة قميص جميل، وبتقليده أخذ جميل حفنة من الأرز وصبها على رقبة أبي نواس.

ورأت الفتاة أميرة ذلك وكانت مذهولة، وقالت للخادمة: سوف نذهب ونمتع أنفسنا بهذا المنظر؛ لأنه منظر غريب لم يره أحد من قبل، خرجت الفتاة أميرة وخادمتها من المنزل الذي كان يقع في حديقة أشجار الرمان.

وجاءتا إلى أبي نواس وجميل التاجر وألقتا عليهما التحية قائلتين: مرحبًا أيها الغريبان، لقد جذب اهتمامانا طرقكما وأعرافكما، نحن من النساء الحمقى الفضوليات، إننا لم نرَ مطلقًا مثل هذه الطرق الغريبة من قبل. ما هي طريقة الرجال هذه؟ ومن أي بلد أنتما؟

وأجابهما أبو نواس قائلا: اعلمي يا سيدتي أننا من بلد تقع وراء الصين، وهي بعيدة جدا يحول دونها بحور واسعة، ولم يزرها العرب من قبل وملكنا هو الملك الأعظم أبا دابا الحكيم، ولذلك فإن حكمته عظيمة حتى إنه وضع قواعد فلسفية حكيمة نلتزم بها ويعاقب من يخالفها بالموت، وبما أن النار هي أحدى أقوى العناصر القادرة على استهلاك كل الكتب التي تحتوي على الحكمة نفسها، فإن وضع الطعام عليها يعتبر إهانة وعارًا، وهناك حكمة أخرى يؤمن بها ملكنا العظيم وهي أن ركوب الحيوانات يعتبر نوعًا من الهمجية حيث إنه لا يجب أن يركب الرجل فوق الحيوان الذي خلقه الله، وكذلك فقد أمر بألا نستخدم العجلات لأنها مصدر الشر حيث إنها محبوبة لإبليس الذي يكره الاستقامة، إذ لا شيء أكثر انحناءً وأقل استقامة من العجلة! إن استخدام العجلة ممنوعًا علينا، ونحن نسافر في المراكب بهذه الطريقة سواء على الماء أو الأراضي الجافة، وإذا سألتِ: لماذا نقوم بتجميع الأرز ووضعه في رقاب قمصاننا عندما نأكل فهذه طريقتنا بالأكل.

وضحكت الفتاة أميرة وخادمتها كثيرًا من كلمات أبي نواس، وقد

كانتا مندهشتين مما سمعاه وقالتا: اسمحا لنا أيها الغريبان بأن نأتي إليكما بالطعام الذي تم طهيه بشكل لذيذ ويمكن أن تنتعشا بعد السفر. ورد أبو نواس عليهما قائلا: نحن نشكركما ونوافق على تناول الطعام وبشرط واحد وهو أن تأخذا أنتما أنفسكما الطعام وتضعاه في فمينا؛ لأنه كما تعلمان أن سيدنا الملك آبا دابا لديه نظارة سحرية يرى من خلالها رعاياه أينما كانوا ولكن لا يمكنه أن يراكما لأنكما لستما من رعاياه. إن الملك سيرى يدينا تذهبان إلى فمينا، ومن هنا قد يشك في أننا نأكل الطعام الذي كان فوق النار، ولكن يديكما غير مرئية له.

عادت الفتاة أميرة وخادمتها إلى المنزل الذي يقع في حديقة أشجار الرمان وبدأتا في إعداد الطعام. وقد ذبحتا خروفا، وأوزًا، ودجاجا، وحماما، وكروانا وقامتا بطهي الخروف ووضعتا داخله الأوز، ووضعتا الدجاج داخل الأوز، والحمام داخل الدجاج، والكروان داخل الحمام، ووضعتا اللحم على موقد وجلبتا أنقى أرز العنبر المطهي بأحدث الطرق مع الزعفران.

وعندما تم إعداد الغداء حملته أميرة وخادمتها إلى أبي نواس وجميل، وأحضرتا معهما أيضًا أجود أنواع الخمور. حل الظلام وأقبل الليل وكان العالم مظلمًا فيما عدا ضوء النجوم والقمر، قامت الخادمة بإطعام أبي نواس بوضع الطعام في فمه وقامت أميرة بإطعام جميل وقدمتا لهما الشراب فشربا أقداح الخمر حتى ثملا.

وضع أبو نواس ذراعه حول الخادمة وقبلها. ونظرت الفتاة أميرة إلى جميل قائلة: اعمل لي كما يعمل صديقك لخادمتي، ونظر جميل إلى أبي نواس ورأى أن عينه اليمنى كانت مغمضة، لكنه رفض قائلا: اعلمي أيتها الفتاة الجميلة أن التقبيل لا يسمح به ملكنا الأعظم آبا دابا إلى أن ينجح الإنسان في الامتحان، ويقام الامتحان مرة كل خمس سنوات في وجود الملك والمحكمة؛ لأن آبا دابا يؤكد أن التقبيل هو الأمر الأهم ويجب أن يتم بالطريقة السليمة. وإن صديقي قد نجح في الامتحان ويحمل شهادة تسمح له بتقبيل من يشاء، ولكن بالنسبة لي فإنها لم تسنح لي الفرصة مطلقًا لأخوض هذا الاختبار، وإذا نظر آبا دابا ملكنا الأعظم من خلال نظارته السحرية ورأى شفتي تمارسان التقبيل وإن كانت شفتاك غير مرئيتين له فإنه قد يشك في وجودك وعند عودتي إلى بلادي قد يكون عقابي هو: أن أقبّل قضيب حديد يُخرج من نار موقدة حتى تحترق شفتاي تمامًا.

سمعت الفتاة أميرة كلمات الشاب جميل وكانت مندهشة وقلبها يكاد ينفطر حزنًا. وشاهدت أبا نواس يقبل خادمتها، وقد قبلها قبلات عاطفية جدًا، ويداه عالقتان بفستانها، وبحق يا مستمعينا فإن الحياء يمنعني من ذكر هذه الحالة مرة أخرى، ونظرت الفتاة أميرة إلى أبي نواس وإلى خادمتها، وقالت للشاب جميل: افعل لي كما يفعل صديقك مع خادمتي، ونظر جميل إلى أبي نواس ورأى أن عينه اليمنى كانت مغمضة فأجاب جميل الفتاة أميرة قائلا: أيتها الفتاة الجميلة ألا تعرفين أن آبا دابا ملكنا الأعظم إذا قمت بذلك دون نجاحي في الامتحان ،الذي لم أتقدم له مطلقا، قد يكون

عقابي حين عودتي إلى بلادي أن يرموني في قفص أنثى النمر ويحكمون إغلاقه، وقد يطلبون مني أن افعل مع أنثى النمر كما فعل مع هذه الفتاة. فحزنت الفتاة أميرة حزنا شديدا بعد سماعها كلمات الشاب جميل.

ولكن أبا نواس تحدث قائلا: إذا كنتِ ترغبين في هذا الشيء فإن هناك حلًا واحدًا فقط وطريقًا واحدًا مفتوحًا أمامك، وهو ألا يعود هذا الشاب مطلقًا إلى بلده ولا يقابل الملك الأعظم آبا دابا، وعليه سيفقد ثرواته وممتلكاته فإن كنتِ أنتِ أيتها العذراء ستوقعين على ورقة تنص على منحه منزلكِ وأرضكِ وذهبكِ ومفروشاتكِ والمقتنيات الثمينة ومن هنا سيلبي رغبتك بالزواج منه دون خوف من العواقب.

ونظرت الفتاة أميرة إلى الشاب جميل وكان حبها له عظيمًا فوافقت على اقتراح أبي نواس. وأحضرت الأوراق والأقلام والوثائق، ووقعتها الفتاة أميرة وشهد عليها أبو نواس والخادمة. وتزوج جميل الفتاة أميرة وعاد أبو نواس إلى القصر وروى كل هذه الأحداث للخليفة الذي ضحك كثيرا وأمر بأن يعين جميل في منصب عال في البصرة، وكافأ أبا نواس بكيس من الذهب.

حكاية الروح الضائعة

يحكى إنه كان هناك ثلاثة أرقاء في البصرة اعتادوا على أن يسرقوا الخضار من البساتين ويبيعونها وعندما تتجمع حصيلة بيعهم من الأموال يذهبون إلى حانات الخمر ويسرفون بالشراب حتى الثمالة.

وذات مساء عندما خرجوا من إحدى الحانات إلى الشارع، قابلهم مسؤول عثماني كبير، بلقب باشا، كان يتجول في المدينة بحثًا عن اللهو والتسلية. ولما شاهده أحد الأرقاء، واسمه جعفر، وكان ثملا انقض عليه ووضع ذراعيه حول رقبته وألقاه أرضا قائلًا: أيها الباشا المبجل لقد وضعك السلطان حاكما علينا وها أنت الآن تحت أقدامي وأنا رقيق أسود فقير، إنها سخريات القدر أنا أقف فوقك وأنت تحتي. ولكن سرعان ما نهض الباشا واقفا على أقدامه واستل سيفه وضرب الرقيق جعفر ضربة قوية فسقط على الأرض مضرجا بدمائه وغادر الباشا.

قال الرقيق حامد للرقيق علي: صديقنا مصاب، هيا أسرع وآتِ بطبيب

جراح، فالكثير من الدم ينزف منه. وجرى الرقيق علي وجاء بجراح بارع. فحص الطبيب الجراح الرقيق جعفر الذي كان يرقد على الأرض، وخاطب صديقيه قائلا: جئتما بي إلى هنا دون سبب ودون مسوغ.حقا إنني جراح بارع لا يستعصي علي جرح دون أن أعالجه وأشفيه، ودون أدنى شك إنني أشهر جراح في البصرة وفي العراق كافة؛ إلا أن هناك مشكلة عويصة تواجهني أقف أمامها عاجزا لشفاء صديقكما إن جسده خال من الروح، لقد فقد روحه، والروح بالفعل خرجت منه. وبهذه الكلمات تركهما الجراح وعاد إلى منزله.

ودار نقاش بين الرقيقين حامد وعلي بعد سماعهما كلمات الجراح وقالا: هناك طريقة واحدة فقط لنساعد زميلنا، وهي إيجاد روحه ووضعها في الجسم، ومن ثم يتمكن الجراح الحكيم من معالجة جرحه ويعود إلينا سالما كما عهدناه. والأرقاء بحق يجهلون الأمور المتعلقة بالدين.

قال الرقيق حامد للرقيق علي: أين نجد روح زميلنا جعفر؟ ورد علي: ليس لديه مال وبالتالي فإنه سوف يذهب إلى البساتين لكي يسرق الخضار التي يمكنه أن يبيعها ويمتع نفسه.

ذهب الرقيقان إلى أحد البساتين وعندما اقتربا منه سمعا صوتًا وحركة، وسأل علي أحد العرب الفلاحين: ما هي هذه الضوضاء؟ وأجابه: هناك شبح أسود كبير خرج أثناء الليل ودمر الخضار وأحدث ضررًا هائلًا ولكن لم نعرفه بالتحديد. لم يمكننا أن نراه في الظلام، فيما عدا أنه كان كبيرًا وأسود.

قال حامد لعلي، بلا شك إن هذا الشيء هو روح صديقنا جعفر، حيث إنه كبير وأسود، ورد علي: بحق إنه زميلنا. ولكن الآن أين نجده؟ وقال حامد: بما أنه أخذ كمية من الخضار فسيقوم ببيعها ويجني مقابلها المال، وقد نجده في منزل حبيبة المحظية؟ ووافقه الرأي علي قائلا: أنت على حق بالفعل.

ذهب علي وحامد إلى منزل حبيبة المحظية وطرقا الباب ووجداه مغلقًا وأخذ علي قضيب حديد موضوع بجوار الباب، وضرب الباب وصرخ الرقيقان: افتحي الباب يا حبيبة.

والآن اعلم أن حبيبة المحظية لم تكن وحدها في هذا المنزل، لأنه كان معها أحد الموظفين الكبار من يحمل منصبا رفيعا من العثمانيين برتبة بيك وكانوا يحكمون البصرة، ونظر البيك التركي من خلال النافذة ورأى الرقيقان يحاولان خلع الباب ويناديان حبيبة لتفتح لهما الباب. ولا يوجد مفر آمن إلا من خلال هذا الباب وفكر البيك التركي بطريقة تنقذه، ورأى أن هذين الرقيقين يبدوان سكرانين ثملين وإذا خرج من خلال الباب الذي يطرقانه سيعرض نفسه للخطر ويتورط في مشاجرة معهما ورأى أنه على الرغم من أنه يمكن أن يقتلهما عندما يستدعي حرسه الخاص ويقبضون عليهما إلا أن أمره سينفضح وينتشر الخبر في جميع أنحاء المدينة، وسوف تسأله زوجته ماذا كان يفعل في بيت حبيبة؟ وسوف يتحدث أصدقاؤه ويسخرون منه عندما يجتمعون في المقهى، حينما يدخل المقهى فإن

جميع العيون سوف تحملق به. وجاءته فكرة ذكية قائلا: سأقوم بعمل ذكي وألف جسمي في ملاءة السرير. وأجعل نفسي شبحًا لأن هؤلاء الأرقاء مخلوقات مفزعة وتؤمن بالخزعبلات والخرافة، عندما يرون شبحًا، فإنهم يهربون فزعا وذعرا. ويمكنني أن أعود إلى منزلي بالسلامة والكرامة.

حينئذ أخذ البيك ملاءة السرير ولفها حول نفسه واستخدمت حبيبة المساحيق لتشويه وجهها، وبدت مفزعة، وفتح الباب وخرج مع صرخة مفزعة.

رأى علي وحامد الشبح يخرج من منزل حبيبة المحظية، فصرخ علي: إنها روح صديقنا، وصرخ حامد: إنها ليست روح صديقنا لأن روحه سوداء وهذه الروح بيضاء، ولكن عليا لم ينتظر طويلا وضرب الشبح على رأسه ضربة قوية فسقط مغشيا عليه على الأرض وخرجت حبيبه في إثره ورأت البيك ملقى على الأرض فقالت حبيبة المحظية: حلت عليكما اللعنة ماذا فعلتما أيها الأحمقان؟ لقد قتلتما البيك العثماني. والبيك هو رئيس الجندرمة، وقالت لهما: خذا هذه الجثة وابعداها عن منزلي حتى لا أتورط في هذه الجريمة.

وقام الرقيقان علي وحامد برفع الملاءة، ورأيا أن البيك كان ينازع سكرات الموت وقال علي مندهشا: كنا نبحث عن روح بدون جسد ووجدنا جسدا بدون روح! وتساءلا: إلى أين يمكننا أن نأخذ هذه الجثة؟ إلى أي مكان نتركها في المدينة، سوف يجدها الأتراك وسوف يقولون:

ذبح العرب البيك رئيس الجندرمة ولن يتوقفوا عن سجننا وتعذيبنا إلى أن يكتشفوا حقيقة هذا الأمر، وقالت حبيبة: لفا الجثة في بطانية واربطاها على طريقة الجثث وخذاها إلى السراي لأن هناك تتوقف قافلة من بلاد فارس، معها جثث سوف تدفن في النجف الأشرف، وهناك يمكن أن تتركا هذا الجثمان بين أحمال القافلة لأنه عند المساء تنزل الأحمال من على ظهور الإبل ويمكنك أن تترك هذا الجثمان مع جثامين أخرى، وفي الصباح لن يلاحظوا أن هناك جثمانا غريبا بين الجثامين وسوف يحملونه ويأخذونه بعيدًا ويدفنونه في النجف الأشرف.

ووضع علي وحامد جثمان التركي في بطانية وربطاها بحبال ضمن الجثث ووضعاها على القمة. وذهب علي وحامد بحثًا عن روح زميلهم جعفر.

ويجب الإشارة هنا إلى أن البيك التركي لم يقتل على يدي علي، وإنما أصيب وفقد وعيه لفترة وبعدها استعاد وعيه ووجد نفسه ملفوفًا في بطانية ولم يمكنه أن يحرك أيًا من يديه أو قدميه، وتنفس وشم رائحة الجثث من حوله.

وفكر البيك قائلا هل تعرضت فعلا لمحاولة اغتيال. وكيف وضعت بين هذه الجثث؟ سوف يدفنوني، ولكن حياتي كانت بائسة ارتكبت فيها معاصي وإن الطريق إلى الجنة لن تكون سالكة، وكيف أقابل ربي بأعمالي غير الخيرة، يا رب اغفر لي وامنحني توبتك. وبكى البيك وكان قلبه خاشعا وبدأ في تلاوة آيات من القرآن الكريم.

وكان قائد القافلة في خيمته وهو فارسي من شيراز، وكان يحسب الربح

الذي ربما يحققه من الجثث لأن أقارب الموتى قد دفعوا له مبالغ من المال من أجل نقل الجثث من شيراز إلى النجف وقد تنوعت الأموال المدفوعة من أقارب الموتى: من دفع كثيرا حتى يدفن بالقرب من الضريح ومن دفع قليلا مقابل الأرض التي كانت تبعد عنه كثيرًا، كما أنهم دفعوا أيضًا التبرعات للضريح المقدس. ويوجد سجل لهذه الأموال في الدفاتر مع القافلة الفارسية.

وقد فكر قائد القافلة قائلا: إذا أتممت هذه الرحلة إلى النجف، فسوف تكلفني المال الكثير ويكون ربحي غير مجز ولن يعوضني عن مشاق الطريق ومشكلاته ورائحة الجثث التي تزكم الأنوف؛ يجب أن أدفن هذه الجثث في الصحراء النائية حيث لا يمكن أن يراها أحد، وسوف تستفيد منها النسور والثعالب، وستسير الأمور على ما يرام فيما عدا مشكلتي مع رجال القافلة قد يتحدثون حين عودتهم إلى شيراز إلى أقارب المتوفين ويفتضح أمري وأخسر مستقبلي.

وقد فكر الفارسي مرات ومرات ووجد مخرجا في كيفية التعامل مع رجال القافلة متحدثا إلى نفسه: في التوقف التالي ليلة غد لنعسكر بعيدًا عن المدن في الصحراء أو القرى، وهذه الطريقة ستبدو معقولة لرجال القافلة حيث تصبح القافلة في منأى عن اللصوص. وعند المساء سيقوم رجال القافلة بإعداد غذائهم بطبخه في قدر كبير، وسوف أضع السم في القدر تحت اللحم.وفي الصباح سيموت رجال القافلة وستزداد الجثث عشرين

جثة أخرى، ولكنها لن تؤثر شيئا بين هذه الجثث الكثيرة؟ وبعد ذلك سوف أقود الإبل دون حاجة إلى وضع أشدة عليها لأن أحمالها قد ألقيت، وأذهب إلى أقرب قرية عربية وأبيعها، وأجني المال الوفير وأعود إلى شيراز، وأقول للناس: لقد دفنت الموتى في النجف حسب الطقوس المعتادة وأن رجال القافلة أصيبوا بوباء الكوليرا في الطريق إلى النجف وماتوا جميعا وتم دفنهم أيضًا في النجف الأشرف ومصاريف وتكاليف دفنهم كذا وكذا.

وكان الفارسي مستغرقا في تفكيره عندما جاءه أحد الرجال إلى خيمته وصرخ: يا سيدي إن الموتى يتلون القرآن الكريم، وتملك الفارسي الرعب الشديد وقام بخلع خيمته ووضعها على كومة الجثث وسمع صوت تلاوة القرآن يأتي من كومة الجثث هذه، واصفر وجهه من الهلع وقال:إن الأموات عرفوا بماذا كنت أفكر.

وأختنق البيك من الجثث التي غطته ولم يتمكن من تحمل رائحتها، وفكر:إن هذه الجثث بلا شك جثث رجال من الطبقات الدنيا، لأنه لا يمكن أن تكون رائحة الرجال المرموقين الشرفاء بهذه الطريقة، ولكن جثتي هي جثة البيك، وفي موكب جنازتي يجب أن يتبعها عدد كبير وإنه من الخطأ أنني وضعت مع هؤلاء الرجال، وحاول البيك أن يخلص نفسه من بين أكوام الجثث، ولكنه كان غير قادر على تحريك يديه أو قدميه، فخرج زاحفا على بطنه بين كومة الجثث يتلوى كاليرقة.

وعندما رأى رجال القافلة الجثة تتحرك أخذوا يصرخون من هذا المنظر المرعب المفزع وتسمروا في أماكنهم ولم يقدروا على تحريك أرجلهم.

وسمع البيك صراخهم فاتجه نحوهم. ورأى قائد القافلة الفارسي ورجاله جثة تأتي نحوهم تزحف على الأرض فازدادوا رعبا وهلعا.

وحاولوا استجماع قوتهم وشجاعتهم، وبدأوا يهربون من المكان ولم يتوقفوا إلا بعد عدة أميال من البلدة التي كانوا مقيمين بها.ويقال إن قائد القافلة الفارسي استمر في هربه حتى وصل الناصرية على بعد 100 ميل ولم تسمع أخباره فيما بعد وقيل أنه فقد عقله.

وعندما هرب قائد القافلة الفارسي ورجاله استمر البيك يزحف على الأرض وقد اصيب رأسه وجسمه برضوض، وقدماه ورجلاه تسيل منها الدماء من تقييده بالحبال بإحكام. واستعاد وعيه وقال: لا يجب أن أكون جثة لقد شعرت بالألم والمعاناة. وقد أدرك أنه تم ربطه في البطانية بطريقة النعش عندما كان يرقد هامدًا، فكر البيك كيف ينجو بنفسه من هذا الموقف، ثم انحدر ببطء إلى أسفل الشارع وكان الوقت ليلًا حوالي الساعة السادسة.

عندما رأى الناس الذين كانوا يمرون في هذا الشارع الجثة تأتي أسفل الشارع أصابهم الرعب والفزع وهربوا من الخوف، وذهب البيك وهو يزحف في الشارع حتى سمع صوت موسيقى من البوابة وعلم أن هذا الصوت منبعث من دار لهو وترفيه والتي يرتادها البكوات والباشاوات الذين يقضون أمسياتهم في مشاهدة رقص الفتيات ورقص الفتية والاستماع إلى الموسيقى وقضاء الليل في سعادة ومرح. دخل البيك وهو يزحف إلى القاعة الكبيرة فتوقفت الموسيقى ونظرت كل الأعين إلى الجثة التي

انسلت إلى مركز القاعة، وكانت روائح الجثث تحيط بالبيك لأنه رقد بين الجثث فترة ليست بالقصيرة.

في هذه الأثناء وضع البكوات والباشاوات أردان أثوابهم على أنوفهم حتى لا يشموا الروائح الكريهة وكان يعتريهم الخوف والفزع.وعرف البيك بالتحديد من هم في قاعة الترفيه والذين يستمتعون برقصات الفتيات والفتيان وعرف مراتبهم وأيضا عرف أسماءهم لأنه كان يرافقهم في حفلات لهوهم ويحب صحبتهم على الرغم من أنه لم يستطع رؤيتهم.

تحدث البيك إلى أصدقائه وكان صوته مثل صوت يخرج من قبر، وسمى كل شخص كان يجلس هناك باسمه وبرتبته ومكان عمله وكانت وجوههم شاحبة مرتعبة خوفا. وقال أيها البشوات الأقوياء، أيها البكوات النبلاء، أيها الزملاء العثمانيين: اعلموا أنني طلعت باشا أنا مت منذ اثنى عشر شهرًا بسبب مغص شديد أصابني في قاعة المرح والترفيه هذه، وكنتم في جنازتي، اعلموا أنني عدت من مقبرتي بالعقاب الصريح لملك الموت، ورغبتي هي أن أحذركم من الشر الذي ينتظركم لأنكم لا تؤدون الصلاة المفروضة عليكم، وتشربون الخمور المحرمة، وتنشغلون بمشاغل الدنيا وشرورها.

وبعد ذلك ردد البيك اسم كل منهم مرة أخرى وتحدث عن رذائل كل واحد منهم، وجلس البشوات العظام والبكوات النبلاء يرتعشون في مجالسهم خوفا من العقاب.

وأمرهم البيك:أن يذهبوا فورًا إلى المسجد وهناك يجب أن يصلوا

صلاة الفجر، وبعد ذلك يجب أن ينفقوا عشر ثروتهم ويتصدقون بها للفقراء، وأن لا يدخلوا مكان الخمور ولا يرتكبوا المعاصي. ولم يتلكأ أو يتباطأ البشوات والبكوات في الرحيل من قاعة المرح والترفيه وتركوها مهجورة إلا من الراقصين والراقصات، وقال مسميًا كل منهم باسمه: إن ذنوبكم أقل ممن بقى في هذه القاعة، ولي طلب أخير وهو أن تحملوني إلى الغرفة وتضعوني على السرير وتقطعوا الحبال التي تقيدني لأنني يجب أن أعود الآن إلى ملك الموت ويجب ألا ترفعوا البطانية التي تغطيني، سوف أسلم روحي لخالقها لذا لا يمكن لأي منكم أن ينظر في وجهي. لكن الفتيات الراقصات والفتيان الراقصين ابتعدوا عنه ولم يرغبوا في لمس البيك، ولكن البيك أمرهم بصوت مفزع: ارفعوني وإلا سأستدعي سيدي ملك الموت، وإذا جاء فلا أحد يستطيع الهرب منه!

فقام الراقصون والراقصات برفعه ووضعه على سرير في غرفة خاصة وقطعوا الحبال التي تقيده، وأمرهم البيك أن يذهبوا ويتركوه في هذا المبنى وألا يعودوا قبل شروق الشمس لأن الأحداث المخيفة سوف تحدث هنا هذه الليلة. وعندما غادر الراقصون والراقصات القاعة ترك البيك الغرفة وعاد إلى منزله بشرف وسلامة، ولم يعرف أحد عن معاناته وحظه العاثر.

وبعد أن ترك الرقيقان علي وحامد البيك على كومة الجثث استمرا في بحثهما عن روح صديقهما الرقيق جعفر وذهبا عبر شوارع البصرة ولكن لم يتمكنا من العثور على روح صديقهم السوداء.

وحدث أن دبا أسود كبيرا قد هرب من صاحبه بينما كان يقوده بشوارع

البصرة، وكان هذا الدب هو الذي أحدث دمارا في بساتين البصرة وخاصة الخضروات ولكن الرقيقين لم يكن لديهما معرفة به ولم يريا دبا طوال حياتهما فهما يجهلان هذه المخلوقات.

وقد دار حديث بين الرقيقين عن مصير روح صديقهما.قال الرقيق علي: بما أنه لم يكن في منزل حبيبة المحظية،إذن أين يمكن أن يكون؟ أجاب حامد: بما أن جعفر لديه أموال من الخضار التي سرقها ولم يكن في منزل حبيبة، فإن المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه هو حانة الخمور، وكنا حمقى في عدم الذهاب إلى هناك من قبل.

ذهب الرقيقان إلى حانة الخمور، وعندما اقتربا منها رأيا أن كراسي ومقاعد الحانة والطاولات كانت مبعثرة ومقلوبة رأسًا على عقب وزجاجات الخمر والكؤوس كانت محطمة ومهشمة متناثرة على الأرض، والخمور مراقة على الأرض تسيل في الممرات مكونة بحيرة.وكان الدب الأسود يلعق هذه الخمور وقال علي لحامد: هذا المخلوق الأسود الكبير الذي يشرب السوائل الكحولية هو بلا شك روح صديقنا جعفر، ولكن حامد رد: يجب أن نكون حذرين قد تكون هذه الروح روح البيك التركي الميت؟ لأنه كان عثمانيا وكانت روحه سوداء جدًا، والعثمانيون أيضًا يحبون الشرب والسكر، وأجابه علي: انظر كيف يشرب؟ إنه يخلط الخمور مع بعضها إنه يخلط العرق والنبيذ وهذه هي الطريقة التي اعتاد عليها صديقنا جعفر في الشرب، ولكن البكوات والباشاوات يحتسون الخمور بطريقة مختلفة، إنها روح صديقنا وليس شخصا آخرا.

وذهب الرقيقان إلى الدب الأسود الكبير وأمسكاه ووضعا سلسلة حديدية حول رقبته قائلين: تعالى يا جعفر، عد إلى جسمك. وكان الدب سكران ثملا ولكنهما دفعاه وسحباه، حتى أعاداه إلى جسم جعفر وبعد ذلك تساءل علي:كيف سنضع الروح مرة أخرى إلى الجثة؟ هل هي عبر الفم؟ أم عبر الأنف؟ أم من خلال الأذنين؟ أم من خلال الجرح؟ وبأي طريقة يجب أن نردها مرة أخرى؟ وكل محاولات إعادة الروح إلى الجسد فشلت، وسقط الدب أرضا من شدة تأثره من شرب الخمر، وكان حامد وعلي ثملين أيضًا ولم يكن لديهما أي إحساس، وقال حامد: هناك طريقة واحدة يمكننا أن ننجح في هذا الأمر. دعنا ندخل الروح والجسد في غرفة ونغلق الباب عليهما، وعندما لا ترى الروح طريقًا للخروج من الغرفة فربما ستدخل جسم صاحبها، وفي نفس الوقت سوف نذهب ونأتي بأمهر السحرة إلى هنا ومن ثم نفتح الباب وإذا لم نجد الروح في الجسد فسوف يعرف الساحر ما يفعله.

قام علي وحامد بإغلاق الباب على الجثة والدب وذهبا بحثًا عن أمهر السحرة في البصرة.

وأستغرق الدب في سبات عميق كالميت وبعد فترة طويلة استيقظ وهو يشعر بجوع وعطش شديدين بسبب الخمر، وقد فتش الغرفة ولم يجد فيها طعامًا أو شرابًا إنما وجد فيها جثة جعفر فابتلعها ولم يبق منها أي جزء.

وعندما وجد علي وحامد منزل أمهر السحرة في البصرة جاءا به إلى الغرفة وفتحا الباب ورأى الساحر حالة الدب وأدرك الحقيقة فقال لهما: لم تدخل الروح الجسد وإنما دخل الجسد الروح!

حكاية البطل المقداد

وهذه القصة رويت بعد غروب الشمس وقبيل طلوع القمر عندما لم يكن هناك ضوء يسافر فيه وراوي القصة هو عبد.

يحكى أنه في سالف الأيام وسابق العصر والأوان فتى يعيش بالقرب من الحلة، تقي مؤمن بالله، اسمه المقداد. كان والده محاربا عظيما وقد قتل في إحدى معاركه. لم يكن لدى الفتى المقداد مال أو طعام؛ فامتهن الرعي فكان يسوق قطيع الأغنام إلى المرعى وقت الصباح ويعود بها مساء، وحقق من ذلك رزقًا كافيًا لشراء الطعام القليل لأمه ولنفسه.

وفي أحد الأيام عندما بلغ سن السادسة عشرة نادت عليه أمه وطلبت منه أن يفتح صندوقًا كبيرًا موجودا في منزله، وعند فتحه وجد فيه سيفًا من أجود أنواع السيوف الدمشقية مقبضه من الذهب، ودرعًا من الجلد والحديد مرصعًا بالذهب، ورمحا وصولجانا، وخنجرا من الفضة، وسرجا كبيرا وكل أدوات المحارب.

قالت أم المقداد له: في يوم تعيس حمل أبوك ميتًا إلى منزلنا، فأخذت هذه الأسلحة منه ومن حصانه ونظفتها من دمه، ووضعتها في هذا الصندوق. وهذا اليوم يمكنك أن تكون محاربًا قويًا مثله، وهذا كيس من الذهب أخذته من جثته ولم أنفق درهمًا واحدًا منه على الرغم من أنه في كل هذه السنوات لم نأكل اللحم مطلقًا، بل نأكل فقط التمر والأرز واللبن والغذاء المناسب للفقراء.

والآن خذ كيس الذهب هذا واشتر أفضل حصان على الأرض، ثم امتطيه واذهب شمالا. واعلم أن جيش شاه الفرس يعسكر على نهر دجلة، لملاقاة قبائل العرب العظمى: من الفتلة وشمر والدليم وسوف يغير فرسان هذه القبائل على الفرس ويهزمونهم ويزيحونهم من الأرض العربية.

أخذ المقداد كيس الذهب وذهب إلى سوق الخيول في الحلة حيث تعرض للبيع خيول أصائل من أجود السلالات.وهناك رأى حصانا عمره بين سنتين وثلاث سنوات وكان لونه أسود، وجماله لا نظير له. ونظر الحصان إلى المقداد بنظرة محبة وألفة، فاتجه المقداد إلى التاجر وقال له ما هو سعره؟ نظر التاجر إلى المقداد فرآه يرتدي ثوبا رثا مثل راعي غنم، فضحك التاجر بازدراء قائلا: يا صاحب الثروة التي لا تحصى، اذهب عني ولا تزعجني مرة أخرى؛ لأنني أخشى عندما تدفع الكثير من الذهب ثمنا للحصان لا يمكنني أن ارفعه من الأرض لأنني فقير وضعيف. رجاء الذهاب من هنا ولا تستفزنا بثروتك.

وقد غضب المقداد من توبيخ التاجر له فرد قائلا: إن ثروتي أكبر من ثروتك وليكن بيننا رهان وأنا أقدم لك كيس النقود الذي معي وتقدم ما عندك من كيس ونرى أيهما أكثر. إن كنت أكثر مني أخذت كيس نقودي وإن كنت أكثر منك أخذت كيس نقودك. وفكر التاجر قائلا: لقد حرم الله هذا الصبي من عقله بالفعل! ولكن دعنا نمتع أنفسنا والجمهور وسوف يكون وسيلة ترويج جيدة لي. وطلب التاجر شهودا على شروط الرهان وتجمع الناس حول التاجر والفتى المقداد.

وبعد ذلك سحب التاجر من جيبه كيسا وقال للمقداد دعني أرى أموالك، وفرح المقداد عندما رأى حجم كيس التاجر، وسحب كيسه وكان أصغر من كيس التاجر، ونثر التاجر نقوده على السجادة فكانت تتكون من: خمسمئة دينار من الذهب، وألف درهم من الفضة، وألفا فلس من النحاس، ونثر المقداد نقوده على السجادة فكانت تتكون من: ألف دينار من الذهب وليس لديه عملة واحدة من الفضة أو النحاس، وقال الشهود: الراعي هو الفائز بهذا الرهان.

أخذ المقداد كيس نقود التاجر ووضع عملات الذهب والفضة مع ذهبه الخاص ورمى العملات النحاسية للفقراء. والتفت إلى التاجر وسأله عن سعر الحصان، وقد اتفق على السعر وتم دفعه، وبعد ذلك طلب المقداد من التاجر معرفة اسم الحصان وسلالته، ودهش التاجر قائلا: هل تسأل عن سلالة الحصان بعد أن تم الاتفاق على السعر ودفعه؟ أجاب المقداد: إن

سلالته مكتوبة في: أرجله، وظهره، ورأسه النبيل؛ ولكن يجب أن يسجل كل ذلك على الورق، وهذا هو كل ما أطلبه. وسلم التاجر السلالة إلى المقداد قائلًا: إنه بحق حصان أصيل من سلالة خيل النبي الكريم واسمه ريشان.

وأمتطى المقداد الحصان ريشان دون سرج متجها إلى منزله. أحضرت أمه سرج والده وثبتته على ظهر الحصان وزودته بالأسلحة بعد أن نظفتها وأحضرت له كيسا من التمر وسعنا من اللبن وقالت: الآن امتط حصانك واذهب إلى مضارب القبائل العربية بالقرب من دجلة، وهناك عندما تدخل بيت الشعر الخاص بالضيوف وتلقي السلام على من في المجلس يدعونك للجلوس وتناول القهوة العربية معهم.وبعد ذلك سوف يسألونك عن أسمك لأنهم لا يعرفون وجهك وبعد ذلك ترد عليهم: أنا المقداد بن ثامر بن دغيثر بن منصور بن المقداد بن دغيثر بن المنصور بن قيس بن حامد بن منصور أبو السيف. وهذا الاسم معروف وفي أي مكان تذكر هذا الاسم يعرفه الناس جميعا؛ لأن والدك كان محاربًا عظيما وجدك كذلك وجد جدك كذلك أنت سليل عائلة من المحاربين الأشداء. وبعد ذلك قبّل المقداد جبين أمه وودعها، وبكت أم المقداد عندما رأت ابنها يرحل.

أمتطى المقداد ريشان متجها نحو الشمال وجاب الصحراء التي كانت مزدانة بحلة قشيبة من أزهار الربيع، وكان ريشان يقطع هذه الفيافي بخطى طويلة منقطعة النظير. وعندما توغل المقداد في الصحراء أخذ يقذف رمحه

أمامه في الهواء لمسافة مئتي خطوة ثم يدع ريشان يعدو ويمسك بالرمح قبل أن يلامس الأرض، وبهذه الطريقة فإنه قطع عدة أميال.

وأثناء مسيره رأى المقداد غزالا، فحث ريشان على العدو لأنه يعرف أن ريشان أسرع من الغزال، وقام المقداد بمطاردة الغزال في هذه الصحراء الشاسعة وعندما لحقه أخرج المقداد رمحه ليصوبه نحو الغزال إلا أنه انحرف بشدة عن الطريق أكثر من الحصان، وبهذه الطريقة هرب منه الغزال.

وأثناء مطاردة المقداد للغزال ابتعد كثيرا عن المسار ولكي يعود إلى مساره القديم يجب أن يعرف اتجاه الرياح، ومن هنا عرف المقداد الوجهة الصحيحة. شرع في الرحيل إلى أن جاء إلى واد عريض وعميق وعلى كل ضفة مغارة. وكان باب المغارة أو الكهف مغطى بشبكة شكلها مثل شكل شبكة العنكبوت، وكان جدار الشبكة سميكًا مثل ذراع الرجل وعبر خيوط الشبكة يمكن رؤية صبي في المغارة وقد كان عاريًا إلا من شريط حديد حول رقبته مربوطا بالحائط، وكان في الثانية عشرة من عمره.

اتجه المقداد إلى الوادي واستل سيفه وصرخ مناديًا على الصبي: سوف أحررك من التعاسة، وأجاب الصبي قائلًا: عد من حيث جئت أيها الغريب النبيل لئلا تصبح تعاستي تعاستك لأن هذه الشبكة من مادة سحرية وشريرة؛ ولكن المقداد لم يلق بالًا لكلمات الصبي ولوح بسيفه لقطع خيوط الشبكة ولكن كلما أوغل بتقطيع هذه الخيوط ازدادت الأطراف الحادة للشبكة

وازدادت طولا وتعقيدا وأمسكت برجلي وذراعي المقداد وسحبته إلى داخل الشبكة وتم وضعه في قعرها ولم يستطع أن يحرك يديه أو قدميه.

ونادى عليه الصبي قائلا: أيها الشاب التعيس اعلم أنك وقعت في شبكة زورو الساحر العملاق، وسوف يعود وقت الغسق ويخرجك من الشبكة، وسوف يسأل عن اسمك ثم يقتلك ويعطيني جسمك لاطهيه طعاما له لأن هذا هو عرفه وعاداته. وأنصحك عندما يسألك عن اسمك قل له: اسمي المقداد لأنه لن يقتل من اسمه المقداد، وبدلًا من ذلك فسوف يكبلك بالطريقة التي كبلني بها، ويمكن أن تنجو من موت محقق وتعيش حياة بائسة مثلي.

ولأن زورو لا يخشى شيئا في هذا العالم كما تبين له من خلال كتاب سحره أنه لن يموت ضربا بحديد أو تسمما ولا أحد له سلطة عليه، ولكن موته على يد شخص اسمه المقداد، وبالنسبة لطريقة موته فإنه لا يعرفها ولا يمكنه أن يكتشفها وبالتالي فإذا قلت له أن اسمك المقداد فإنه لن يأكلك لكونه خائفًا من أنك قد تسبب له مغصًا أو سوء هضم يتسبب في موته، ولن يذبحك وإلا فإن شبحك سيسبب له الشر، ولكن بدلًا من ذلك فإنه سوف يكبلك هنا ويجعلك خادمه ويخضعك لإرادته، وأنك لن تسبب له ضررًا. إن اسمي المقداد وبالتالي فقد عاملني بهذه الطريقة المشينة.

وقد سمع المقداد كلمات الصبي وكان مندهشًا ورد: بحق إن اسمي المقداد، ربما أكون أنا الذي يتسبب في وفاة هذا الظالم. وقال الصبي

المقداد: ولكن كيف يمكن أن يتم هذا؟ لقد أمسكت ثعابين في هذه المغارة لأن هناك الكثير منها هنا، وأخذت سمها ووضعته في طعامه ولكنه أكل السم وكأنه توابل. وذات مرة عندما أدار ظهره أخذت أسياخ الحديد التي تطهى عليها الأجسام وقمت بشق قلبه وجسمه بوساطتها، ولكنه نزعها من جسمه دون أن يخرج دم منه وكأنه لم يطعن قط. وأمسكني وجلدني وعذبني طوال الليل.

وبعد أن غربت الشمس وحل الظلام وكان المقداد مكبلا في الشبكة لا حول له ولا قوة. سمع الفتيان وقع أقدام؛ فارتجف قلبا الفتيين؛ إذ ظهر لهما جسم زورو وهو مغطى بشعر طويل لونه أخضر، وهو يصدر ضوءًا. وطوله بطول ثلاثة رجال، وظهره محدودبا.وتنبعث منه روائح الجثث المتعفنة التي يلتهمها، كان يحمل في يده اليمنى سوطا كبيرا عليه آثار دماء ثعابين ميتة وفي يده اليسرى آثار دماء طفلين مقتولين.

ورأى زورو المقداد واقعًا في الشبكة، وصرخ مناديًا عليه: أيها الغريب ما اسمك، ورد المقداد قائلًا اسمه الصحيح، ولم يكذب فاستشاط غضبًا كاشفا عن مخالبه الطويلة التي تخرج من ذراعيه الكبيرين وخلّص المقداد من الشبكة بكلمة سحرية، وبعد ذلك حمل المقداد إلى المغارة.وأصبحت الشبكة تسمح له بالمرور عبرها، وطوّق رقبة المقداد بسلسلة من الحديد وربطه بالحائط، وكان المقداد عديم القوة في قبضة زورو، وبعد ذلك عاد زورو ورفع سوطه الكبير وقال: أنت يا حامل الاسم الملعون لا بد

أن تكون خادمي وتكون عبدي وإذا فشلت في هذا فإنني سوف أجلدك بهذه الطريقة، وضرب زورو المقداد المرة تلو المرة بالسوط حتى تمزقت ملابسه من جسمه وابتل جلده بالدم، وبعد ذلك رمى زورو إلى كل من المقدادَيْن أجسام طفلين وقال اطهياهما وجبة عشاء لي، وحاول الفتيان ردعه عن هذه المهمة، ولكن زورو ضربهما بسوطه.

وانشق حائط المغارة الصخري الذي كان الفتيان مربوطين فيه وأحدث ممرا يزداد ضيقًا وضيقًا إلى أن مر الهواء الخارجي من خلاله، وكان الممر يعمل كمدخنة للمغارة. وفي المدخل قام الفتيان مرغمين بطهي الطفلين بوضعهما تحت بعضهما وأشعلا من تحتهما النار وبعد ذلك أحضرا الطعام وأعطياه لزورو.

أكل زورو الطعام حتى شبع، وأمسك الفتيان المقدادان فأرين حيث تنتشر الفئران بكميات كبيرة في المغارة، وقاما بطهيهما وأكلاهما، لأنهما لم يطيقا أكل طبق أكبر.

وبعد ذلك جلس زورو الساحر على المائدة وأخذ من المائدة الكتاب السحري ووضعه أمامه وتحدث إليه بهذه الطريقة: استحلفك بمحبتي لك يا خادمي العزيز قل لي الحقيقة وأجب عن أسئلتي. ورد الكتاب قائلا: سمعًا وطاعة يا سيدي. وسأل زورو الكتاب: أين أجد وجبة طعامي غدًا؟ وأجاب الكتاب وكان صوته كصوت إمرأة: هنالك وادي ستجد فيه العرب ويمكن أن تقتل واحدًا منهم. وكان المقداد مذهولًا لسماع الكتاب

يتكلم، وبعد ذلك سأل زورو الكتاب وأمره: بأية طريقة يجب أن أواجه موتي؟ ومتى؟ وأجاب الكتاب: في واقع الأمر لا يجب أن يكون هذا من خلال ضربك بسيف ولا من خلال السم؛ وإنما يقوم بقتلك شخص اسمه المقداد وهو هنا الآن في هذه المغارة. ولكن بالنسبة لطريقة الموت سيقوم بها ملك الموت وهو الذي يتحكم في الأمر ولا أحد غيره يعرف متى ذلك.

وبعد ذلك التفت زورو إلى الفتيين وكان وجهه يشتاط غضبًا شديدًا وطلب منهما قائلا: أيًا منكما يتسبب في موتي؟ وفكر المقداد:كيف يتهرب من هذا الموقف، رغم صعوبة ذلك! فقد اعتاد المقداد عندما يرعى الأغنام في الصحراء أن يمتع نفسه بطريقة أن تجعل الأغنام تتحدث إلى بعضها، وأن يتحدث كل حجر أو أي حيوان إلى بعضها دون أن تتحرك شفاهها.

ثم تحدث المقداد من خلال المدخنة مجيبا زورو قائلا: أنا من يقتلك! ولكن زورو لم ير أيًا من الفتيين، فكيف جاء الصوت من المدخنة! وكان مذهولًا وأدار وجهه نحو المدخنة وقال بصوت مفزع: ما اسمك؟ من أنت؟ كيف جئت إلى هنا؟ وتحدث المقداد بصوته من خلال المدخنة قائلا: بالنسبة لاسمي فهو المقداد وبالنسبة لمكانتي فإنني محارب لا أقهر وقد جئت هنا عن طريق السحر ومهمتي هي أن أتسبب في موتك. وازداد غضب زورو وأمر المقداد قائلا: أخرج من هذه المدخنة. وأجابه المقداد: سأمكث هنا وسأعود وأخرج متى رغبت في الخروج.

وبعد ذلك استشاط زورو غضبا وطلب من في المدخنة أن يخرج.

وأخذ يضغط بيديه ولكن المدخنة كانت طويلة وقوية، وبعد ذلك أدخل زورو رأسه وكتفه في المدخنة وأخذ يدفع بأرجله.نفسه إلى أعلى المدخنة واحتجز داخل المدخنة، ولم يتمكن من الحركة للأمام أو للخلف.

وبعد ذلك جرى الفتيان إلى المدخنة وأمسك المقداد الأكبر بسهم حديدي وصوبه نحو زورو ولكن دون جدوى وقال المقداد الأصغر: نحن لا يمكننا أن ننجح بالسم أوالحديد، دعنا نجرب النار، وقد جمعا حطبا تحت المدخنة وصبا عليه زيتا من المصباح وأوقدا نارًا كبيرة تحت زورو، وبدأ زورو يزداد ألمًا ورأى االشابان أن النار تلتهم لحمه.

وبعد ذلك تحدث الكتاب وكان صوته صوت امرأة وقال أتحدث إليكما بحرية وليس بأمر زورو وإنني ممتن لصنيعك أيها المقداد النبيل حيث تسببت بتدمير سيدي زورو، وأنت الذي قمت بإبعادي عن سيطرته بوضع النار بيني وبينه، ولكن اعلم أيها الفتى النبيل أن نارك لا يمكن أن تدمر زورو تمامًا فإن الحريق لن يلتهمه تماما وسيبقي الكثير من الشعر وأظافر أصابع يديه وستنمو خلال الليل ويعود زورو إلى الحياة.ولكن إذا رميتني في النار فسوف أحترق وأتحول إلى لهب يأكله ولا يبقى أي شيء منه.

وأخذ المقداد الكتاب في يده وقال: أيتها السيدة قبل أن أدمرك قولي لي من أنتِ؟ وكيف وصلتِ إلى هذه الحالة؟ ورد الكتاب قائلا: اسمي فاطمة وأنا من الجن ولست من بني آدم ولكنني أذنبت وخالفت قواعد

الجن فحبسوني في هذا الكتاب وألقوا على كاهلي مهمة طاعة من يملك هذا الكتاب، وأصبح هذا الكتاب ملك هذا الكلب زورو الذي نصفه جن ونصفه حيوان، لأن والده كان من الجن وأمه كانت قردة الغوريلا، وقد كانت مهارته في السحر محدودة ولكنه من النوع الشرير. هيا ارمني الآن في النار حتى أكمل المهمة، وعندما يحترق هذا الكتاب فسأتحرر من زورو وظلمه وأعود إلى طبيعتي إلى عالم الجن.

وضع المقداد الكتاب في النار في لهب شديد الزرقة واحترق جسم زورو احتراقا كاملًا وبعد ذلك تحول اللهب الأزرق إلى فتاة جميلة، جلست بجانبهما وقالت: أشكرك أيها المقداد النبيل على ما قمت به، إن قتلك زورو كان مصدر سعادتي وقد عاد بالنفع لكل من بني الجن وبني آدم وسوف أكافئك على صنيعك والآن يمكنك أن تأمرني ما تشاء! اطلب مني ثلاثة أشياء قبل أن أرحل وسوف أنفذها لك، وتحدث المقداد وقال: أيتها السيدة الرقيقة، سيدة الجن، بالنسبة لطلبي الأول: دعيني وهذا الفتى نرحل في أمان من هذه المغارة الشريرة. وبالنسبة لطلبي الثاني: دعيني أجد حصاني المحبوب ريشان الذي تركته خارج المغارة ودون أن يصاب بأذى. وبالنسبة لطلبي الثالث: فإنني لم أتحدث مطلقًا مع والدي وارغب بسماع تعليماته الحكيمة عن فن الحرب، التي تعتبر مهمة للابن ليكتسبها من أبيه، دعيني يا سيدتي أتحدث مع أبي.

وتحدثت سيدة الجن وقالت: أيها الفتى إن طلباتك الثلاثة تنم عن

حكمة. إنك لو طلبت مني أن تكون ملكا أو تملك خزائن من ذهب لحققت طلبك؛ ولكن اعلم أن الأمراء أقل سعادة من باقي الرجال، وإن الذهب يولد الغيرة والعداء والبغضاء.

وأشارت سيدة الجن بأصابعها على الفتيين فأسقطت القيود التي تكبلهما وانفتحت شبكة الشر متهاوية إلى بوابة المغارة مثيرة غبارا، وقالت: أنت الآن حر ويمكنك مغادرة المغارة، وستجد ريشان في الخارج دون تعرضه لأي ضرر، وبما أنك قد جردت من ملابسك ولا تملك أموالا فاذهب أولًا إلى الخزينة وخذ الملابس والذهب ومصاريفك وأسلحةِ والدك وبعد ذلك غادر الكهف وامتط ريشان واذهب في اتجاه نجمة الشمال وبعد مسيرة ست ساعات ليلا سترى أمامك نارًا ومضربًا كبيرًا هو مضرب أجدادك الذين سوف آتي إليك بهم من الفردوس، وبالنسبة لك فإنه قد لا يمكنك أن تدخل الفردوس الآن حيث أنه مكتوب عليها: لا يدخل الفردوس أحد مرتين.

ذهب الفتيان إلى الخزينة الكبيرة وفتحاها ووجدا هناك ملابس ومقتنيات فاخرة وذهب وقد غطيا عريهما بملابس فاخرة وملآ جيوبهما بالذهب وأخذ المقداد أسلحة والده وكانت ملقاة على الأرض وخرجا من المغارة. ورأى المقداد حصانه ريشان يقف في الخارج وجرى إليه ووضع ذراعيه حول رقبته وقبّله وقال له: يا حصاني المحبوب يا ريشان الصغير، كان قلبي حزينًا بالتطلع إليك وعيناي تدمعان بالبحث عنك لأنني نظرت ولم أرك.

وبعد ذلك امتطى الفتيان ريشان وأخذا طريقهما نحو نجمة الشمال، وهما على صهوة الحصان، وأمضيا الوقت وهما يتجاذبان أطراف الحديث في مرح وسرور. وقال المقداد للصبي قل لي اسمٍ والدك، لأن اسمك المقداد واسمي المقداد، وسوف يكون هناك خلطًا بيننا. ورد الصبي: اسم والدي علي وقتله هذا الظالم، والآن فإنني أطلق على نفسي ابن علي ورغبتي الوحيدة هي أن أرافقك وأكون خادمك لأنك أنت الذي أنقذت حياتي.

امتطى الشابان حصانهما ليلا باتجاه نجمة الشمال إلى أن رأيا أمامهما نارًا ومضربًا (مخيما) كبيرًا من بيوت الشعر السوداء وقد استغرقت رحلتهما ست ساعات. خرج رجل من المضرب وسار نحوهما فحياه الفتيان قائلَيْن: السلام عليكم. ورد عليهما: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أنا ثامر والدك يا ابني، أدخل مضافة الرجال وقابل أجدادك.

ودخل المقداد وابن علي المضافة وحيا الجميع، وكان يجلس هناك دغيثر ومنصور والمقداد بن دغيثر ودغيثر بن منصور ومنصور بن قيس وقيس بن حامد وحامد بن لامي ومنصور أبو السيف، وردوا جميعًا تحية المقداد وابن علي وطلبوا منهما الجلوس وقدموا لهما القهوة وتحدث منصور أبو السيف وقال: قبل شروق الشمس يجب أن نطوي خيامنا ونحمّلها الإبل ونرحل عن الفردوس؛ لذا أخرج سيفك أيها المقداد لكي نعلمك فن الحرب. واستل المقداد سيفه من غمده وجاءوا إليه وعلموه

استخدام السيف، وبعد ذلك استل خنجره وعلموه استخدام الخنجر، وبعد ذلك علموه استخدام الرمح، وعلموه العديد من فنون الحرب والخدع التي تم نسيانها الآن بين الرجال، وعلموه بعد ذلك كيف ينظم القوات ويقودها في المعركة، وكيف يقود الجيش. وعلموه من حكمتهم فن الحرب بطريقة فائقة. وقد مضت خمس ساعات وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلًا. وبعد ذلك قال ثامر لابنه المقداد: نم الآن يا ابني المحبوب لأنك متعب ونحن أيضًا أمامنا رحلة طويلة وأحضروا البطانيات ليلتحفا بها الفتيان .

ورقد المقداد وابن علي في بيت الشعر في دار الضيافة الكبيرة، وعانق المقداد والده أولًا ثم جده وأجداده الآخرين وقبلهم على جبينهم، ونام المقداد وابن علي لمدة ساعتين حتى أشرقت الشمس فاستيقظا وكان الجو حارًا.

وبعد ذلك نظرا حولهما فلم يريا بيت شعر دار الضيافة أو المضارب أو العرب، كما أنهما لم يكونا مغطيين بالبطانيات، وكل ما كان حولهما صحراء شاسعة، وما أمكن رؤيته فقط هو الحصان ريشان، وجرى المقداد إلى ريشان وقبله وقال: يا ريشان الصغير نحن مخيمان في الصحراء بعيدًا عن الماء واعذرني إذا ما تسببت في معاناتك.

وامتطى الشابان الحصان ريشان وانطلقا متجهين شرقا، حيث أمكنهما أن يأتيا إلى النهر ويجدا الماء وبعد أن ارتحلا لمدة ساعة واحدة

رأيا أمامهما ربوة، وقد تكونت داخلها بئر محفورة في الأرض. وصرخ المقداد: هنا ماء، وقال ابن علي أسرع: دعنا نشرب ونترك الحصان يشرب لأننا عطشى؛ ولكن المقداد قال ألا تتذكر يا رفيقي ما قاله أجدادنا الليلة الماضية؟.بالتحديد قالوا: إنه عند الاقتراب من بئر الماء يجب أن تتحرى الأعداء، يجب أن تدور حول البئر بحذر وتلاحظ إذا كان هناك دمن إبل حول البئر أم لا؟ وهل هناك أعداء يردون البئر؟

وترجل الشابان من على صهوة الحصان ريشان وربطاه في منخفض من الأرض حتى لا يراه أحد. ثم استطلعا البئر فرأيا آثار جديدة لخيول قد اتجهت إلى البئر ولم تخرج منه. وبعد ذلك زحف المقداد وابن علي إلى البئر ووضعا الربوة بينهما وبين البئر بحيث لا أحد يستطيع رؤيتهما، وزحفا بجانب الربوة ونظرا إلى البئر فشاهدا ستة خيول مربوطة بجوار البئر وشاهدا ستة جنود وشاهدا حصانا سابعا ميتًا على الأرض وكان الجنود يسحبون جثته لإلقائه في البئر.

وهمس المقداد في أذن ابن علي قائلا: لابد أن هؤلاء الكلاب هم من الفرس، وينوون رمي جثة الحصان في البئر؛ ليحرموا العرب المغيرين من شرب الماء بحيث يصبح ملوثا. ثم صرخ المقداد بصوت كأنه يخرج من البئر قائلا: ساعدوني، أنا تاجر ثري قد غرقت في هذه البئر. وجرى الفرس الستة إلى البئر وهم ينظرون أسفل إلى قاع البئر.

وبعد ذلك اندفع المقداد وابن علي إلى الخيول المربوطة وقطع المقداد

رباطها بسيفه وقفز كل منهما على حصان وقادا الخيول الأخرى أمامهما واتجها إلى الصحراء.

وبعد ذلك طلب المقداد من ابن علي أن يبعد الخيول، وعاد هو إلى الفرس وعلا صراخه قائلا: أيها الفرس الكلاب لتعلموا أننا مجموعة استطلاع لمغيرين من العرب الكثر الذين سيردون هذه البئر؟ الآن ليس لديكم خيول ولن تهربوا من ملك الموت، ومع ذلك فإن نبلي وشهامتي تمنعني من ذبح أبناء آدم كالخراف، وعليه فإنني سوف أمنحكم فرصة ذهبية. أريد أن أبارزكم واحدا واحدا وإذا ما قتلتموني فسوف يفك زميلي رباط خيولكم ويهرب من هنا.

ودار نقاش بين الفرس وقالوا: لا صعوبة في ذلك، إنه صبي يافع بلا لحية، وامتشق أشجع الفرس سيفه محاولا مهاجمة المقداد، واستل المقداد سيفه وترجل عن حصانه منتظرا مجيء الفارسي وعاجله الفارسي بضربات مخادعة، ولكن المقداد تجنب ضربات سيف الفارسي بتراجعه إلى خلف شداد جمل، وقد استفاد من نصائح الأجداد في فنون الحرب، وعندما هاجمه الفارسي التوت أقدامه حول الشداد فسقط أرضا فعاجله المقداد بضربة بسيفه فصل فيها رأسه عن جسمه.

وانتاب الفرس الخمسة الهلع من رؤية موت زميلهم على يدي صبي غير ملتح. ولكنهم قالوا إن حادثة موت رفيقهم تعود إلى تعثره في الشداد. واستل فارسي آخر سيفه مهاجما المقداد. ونازله المقداد وبيده اليمنى

السيف والدرع في يده اليسرى وعاجله بضربات متتالية من سيفه حتى فصل رأسه عن جسمه.

وذهل الفارسي الرابع من رؤية زميله مقتولا على يدي صبي غير ملتح، وقال الفرس الباقون: كان زملاؤنا على خطأ عندما نازلوا الصبي. وجاء فارسي آخر لينازل المقداد ولكنه استعمل رمحه وليس سيفه لأنه قال: يمكن أن يكون هذا الصبي ماهرا في السيف ولكنه لن يكون ماهرا في استخدام الرمح؟ ونازل المقداد الفارسي مستخدما رمحه وسدد الفارسي عدة ضربات على المقداد ولكنه في كل مرة كان يهرب منه تارة نحو اليسار وأخرى نحو اليمين ثم ما لبث أن أسقط المقداد رمحه على الأرض وانحنى كما لو أنه يريد التقاطه، وفكر الفارسي: عندما يلتقط الصبي رمحه سأعاجله بضربة سريعة لا يمكنه تفاديها. فسدد ضربة قوية نحو المقداد وألقى بثقله وراء رمحه ولكن المقداد لم يلتقط رمحه من الأرض إنما انحنى فقط ورفع يده وعندما سدد الفارسي الضربة نحوه قفز جانبًا وأمسك برمح الفارسي وعندما ألقى الفارسي بثقله وراء رمحه سقط للأمام على وجهه. والتقط المقداد رمحه من الأرض وسدده نحو الفارسي فأرداه قتيلا.

وذهل الفرس الثلاثة من مقتل زميلهم على يدي شاب غير ملتح، وأخذوا يتهامسون قائلين: دون شك إن هذا الشاب هو الشيطان نفسه. وقال أحدهم للآخر: سدد سهامك نحوه واقتله لنتخلص منه لنمضي في طريقنا. في هذه الأثناء كان المقداد يراقب الفرس الثلاثة لأن أجداده قد علموه بأن

يراقب أعداءه جيدًا حتى لا يخدعوه، وقد رآهم يتهامسون ورأى أحدهم يتناول القوس والسهام وفهم حيلتهم؛ لذلك قدر مسافة انطلاق السهم من البئر نحوه ليتفادها عند نقطة روث الإبل.

واستل الفارسي سيفه متحديا المقداد لمنازلته، وعند التحام الاثنين معًا حاول الفارسي استدراجه إلى مسافة يكون فيها المقداد في مرمى السهام في اتجاه زملائه وتظاهر بسقوطه على الأرض، ولكن عندما وصلا روث الإبل تقهقر المقداد ولم يتقدم إلى أبعد من ذلك على الرغم من أن الفارسي قد سقط مرة أخرى، ولم يستطع الفارسي استدراج المقداد بعد تلك النقطة ولما رأى الفارسي أن المقداد لا يمكن أن يتبعه تظاهر بالمرض وسقط على الأرض وهو يتلوى متأملا أن يقترب منه المقداد ويصبح في مرمى السهام ولكن المقداد لم يتقدم وإنما اتخذ إجراء آخر:فامتطى حصانه ريشان النبيل، وأخذ رمحه وانقض على الفارسي بسرعة تسابق الرياح ولم تصبه السهام وبهذه الطريقة تمكن من طعن الفارسي وقتله.

وبنفس الطريقة انقض على الفارسيين الأثنين وهما واقفان بالقرب من البئر وقتل أحدهما برمحه، وسقط الآخر على الأرض متوسلا المقداد. مستدرا عطفه بألاّ يقتله فأمر المقداد الفارسي بأن يخلع ملابسه وفعل الرجل ذلك وجلس عاريًا أمام المقداد.

أمر المقداد الفارسي قائلا: اذهب إلى ملكك شاه الفرس وعندما تدخل مجلسه وتحييه وأنت في حالتك الحالية وبعد ذلك قل له: أيها الشاه

القوي انظر إلى حالتي وانظر إلى عربي لأن هذا ما ستكون عليه حالة أرض الفرس، إذا قررت عدم التراجع عن الحرب مع العرب، لأنه متى ما قتل رجالك لن تزرع الحقول وستصبح أرض الفرس مجدبة وعارية مثلي أنا الآن. وهذه هي رسالة المقداد بن ثامر المحارب العربي من قبيلة آل فتلة. وأعطى المقداد الفارسي حصانًا من ستة الخيول التي كسبها من الفرس وامتطى الفارسي الحصان وهو عار دون أن يرتدي قطعة واحدة وفقًا لأمر المقداد.

سقى المقداد وابن علي الحصان ريشان حتى ارتوى وشرعا في رحلتهما، ومعهما خمسة خيول من الفرس متجهين إلى مضارب القبائل العربية واستمرا في رحلتهما وهما يقطعان أراضي شاسعة إلى أن مالت الشمس نحو الغرب وبعد ذلك رأيا بيوت الشعر واتجها إلى أكبر هذه البيوت، وقد كان دار الضيافة لقبيلة آل فتلة، وقاما بتقييد الخيول ودخلا وحيا من في المجلس وجلسا هناك مع الشيوخ ومحاربي القبيلة وقدمت لهما القهوة وتحدث الشيخ إليهما قائلا: أيها الغريبان اللذان شرفتمونا هل يمكن لنا أن نعرف أسميكما؟ ومن أين جئتما؟ ومن أي قبيلة؟ وأجاب المقداد: قبيلتي هي قبيلتك لأنها كانت قبيلة والدي ثامر بن دغيثر بن منصور بن المقداد بن دغيثر بن منصور بن قيس بن حامد بن لامي بن منصور أبو السيف. ولكن اعلموا أنني لم أعش من قبل بينكم كما كان مطلوبًا، ولم أحارب في معركة معكم، لقد كنت شابا لا أعرف شيئا في سني عمري الأولى ولكنني الآن رجل أتقن فن الحرب.

قال شيوخ القبائل ورجالها المرموقون الذين كانوا في المجلس: اسمك اسم معروف لأننا نتذكر جيدًا أباك وجدك. ومن ثم سألهما الشيخ فيما يتعلق برحلتهما وروى المقداد الأحداث ـ المعروفة لكم أيها المستمعون ـ ولم يحذف أي كلمة. وتحدث الشيخ وقال: بالنسبة للساحر زورو فإننا لدينا معلومات عنه وقد بحثنا عنه ولكننا لم نجده، وقد قمتما بعمل الخير حين خلصتما الناس من شروره، وكان الله معكما، ولكن بالنسبة لافتخارك بقتل خمسة من الفرس ليس سليمًا فكيف لصبي غير ملتح أن يفعل ذلك.

ونظر المقداد ورأى عدم تصديق كلماته بادٍ على وجوه هؤلاء الحاضرين فقال: لا تنظروا إلى وجهي لأنه أمرد لا شارب ولا لحية لي، فشاربي ولحيتي لم تنموان بعد ولكن عندما يبذر الفلاح البذور في الحقل، فإن المحصول ربما يأتي مبكرًا في سنة أو ربما يتأخر عن موعد حصاده كما يشاء الله واعلموا أنني رجل ولست صبيا صغيرا. إن الحقل الزراعي يختلف عن الصحراء وإن المحصول يحصد في موسمه. وقال الشيخ: هل وجهك إذن حقل؟ إنه ناعم مثل الحرير، كيف إذن يمكنك أن تشترك مع المحاربين في المعركة؟ فأجابه المقداد: لقد قتلت الفرس وأخذت خيولهم، وسأتحدى أشجع مقاتل فارسي وسأنازله حتى أمام الشاه. حينئذ ستصدقني. ووافق الشيخ وكتب مكتوبًا ووضع عليه ختمه الخاص وأخذه الصبي إلى معسكر الفرس وقدمه إلى الشاه وقرأه بنفسه.

وكان الجندي الفارسي العاري قد تحدث إلى الشاه عن شجاعة

الصبي غير الملتحي الذي قتل خمسة من أمهر رجال الفرس، فأمر الشاه أشجع جنوده واسمه البهلوان وأكثرهم مهارة قتالية لمنازلة المقداد، وقد قتل البهلوان أكثر من خمسمئة رجل في معركة واحدة. وكان مجرد ذكر اسمه مصدر خشية في جميع الأراضي. وتم ترتيب المنازلة بتحديد اليوم والساعة والمكان في جزيرة في نهر دجلة، وبالنسبة للأسلحة فقد تركت حرية الاختيار للمتقاتلين لاستخدام أي سلاح وأية طريقة للقتال يفضلانها.

واقترب يوم المنازلة فأمر المقداد ابن علي أن يأتي له بدرع حديد دمشقي، ونفذ ابن علي أمره وأحضر له درعا محدبا من أجود الدروع الدمشقية، وبعد ذلك أمر المقداد ابن علي بأن ينزع بطانة الدرع الجلدية وأن يلمعها إلى أن تسطع مثل المرآة، وأن يتم تثبيت مقبض من الجلد على الجزء الخارجي للدرع ونفذ ابن علي أوامر سيده، وأصبح الدرع جاهزًا.

وجاء يوم المنازلة وتجمع جيش الفرس على الضفة الشرقية لنهر دجلة، واجتمع العرب الذين يتشكلون من القبائل العظمى على الضفة الغربية من النهر. وتم إقامة جناح كبير لإقامة الشاه ونسائه وحاشيته بين قواته. وفي وسط النهر توجد جزيرة، وجاء المقداد إلى هذه الجزيرة في مركب من الضفة الغربية وجاء البهلوان في مركب من الضفة الشرقية والتقيا في الجزيرة ورأى المقداد أن البهلوان كان مسلحًا بسيف طويل يقدر طوله بطول الرجل، وتقدم البهلوان نحو المقداد ورأى فيه صفات

المقاتل الماهر، وتراجع المقداد أمام البهلوان متجنبا ضربات سيفه وجعل وجهه في اتجاه الشمس وهو الوضع غير المتميز وكان البهلوان سعيدًا بأن وجه المقداد في اتجاه الشمس. ورأى البهلوان أن من تحدث عن مهارة هذا الصبي في القتال كان أحمق. ولم يحاول المقداد مطلقًا أن يناور ليأتي بالشمس من خلفه وهو يرتدي درعه مقلوبا إذ جعل الجزء المحدب إلى الداخل والجزء المقعر إلى الخارج. وفي هذه اللحظة حرك المقداد ذراعه نحو وجه البهلوان وكانت أشعة الشمس تنعكس على الدرع فكان يلمع مثل المرآة.ركز أشعة الشمس وصوبها كاملة إلى عينيّ البهلوان مما دفعه إلى أن يغمض عينيه وجرى المقداد نحو البهلوان وهاجمه مسلطًا الأشعة التي أعمت عيني البهلوان فضرب بسيفه نحو المقداد ولكنه لم يصبه، ثم هوى المقداد عليه بسيفه ففصل رأس البهلوان عن جسمه بضربة واحدة. ودهش المتفرجون وهم يشاهدونهما عن بعد كيف تغلب الصبي غير الملتحي على البهلوان، وكان قلب شاه الفرس مليء بالغضب والخوف، وبعد ذلك تحول المقداد وصرخ عبر النهر للضيف الفارسي، ورفع سيفه عاليًا قائلا: يا شاه الفرس العظيم أنا لن أتحداك أنت لأنك مسن لحيتك شيباء ولكن لديك ابن يعد مقاتلا شهيرا أرسله إلى حتى يمكنني أن أنازله. ولم يرد الشاه على المقداد ولكنه أشار إلى أن الرد يمكن أن يرسل فيما بعد. وعاد المقداد إلى قومه عبر النهر إلى تجمع القبائل.

وفي هذه الليلة ناقش شاه الفرس الوضع في مجلسه مع قادة جيشه ورجالاته وبحضور الأمير ابنه. وتحدث القائد الكبير قائلا: يا سيدي

إنه من المناسب أن ينازل ابنك الأمير الصبي العربي حتى لا يقول جنود جيشنا أنه خائف من الصبي الذي لم تنمو لحيته، ومن ثم فلن يتبعوه إذا ما قادهم في المعركة ولن يكسب احترامهم. واستمع الأمير والخوف يملأ قلبه، وأمر الشاه القادة والرجال الآخرين أن يغادروا مجلسه، وتحدث إلى ابنه بهذه الطريقة: يا بني هذا الصبي العربي قد لا يكون مقاتلا ماهرًا وربما كان الحظ أو بعض الخداع جعل قدر البهلوان أن يقتل على يديه. ومن الأفضل أن تذهب وتقاتله وسوف يكتب اسمك في سجلات المجد كمقاتل شهير، وسيخشاك الجنود؛ لأنه سيأتي اليوم الذي تحل فيه مكاني شاها على الفرس، وإذا لم يخشاك الجنود وسكان المدينة والفلاحون فإنهم سيتمردون عليك وتتم الإطاحة بمملكتك.

ولكن الأمير رد قائلا: يا أبي لا ترسلني لكي أذبح كالخروف! هذا الصبي ليس مقاتلا، إنه ساحر وأنا لا أجيد السحر ولا يمكنني منازلته في حلبة القتال، ألم تسمع عن كيفية قتله الجنود الخمسة عند البئر؟ أرسل إليه ساحرا ماهرا قد يتغلب عليه، ودعني أقود القوات إلى المعركة على النحو المناسب للأمير. ولكن لا تدع القوى الشريرة غير المعروفة للناس أن تقضي علي. رأى الشاه أن وجه ابنه يبدو شاحبًا وقال: آمرك بأن تنازل هذا الصبي العربي الصغير، وإذا لم تقاتله فإنني سوف أقتلك بيدي. لقد أنجبت ابنا بنفس شجاعتي وسيخلفني على حكم بلاد فارس عندما أموت. وهل تعتقد أنني في قبري؟ هذا الشعر الأشيب ليس سوى شاهد على سني الحياة التي تعلمت منها، إنني أتمتع بحيوية ونشاط ابن العشرين وأنني قادر

على إنجاب مئة ابن ولا بد من أن يكون أحدهم رجلًا شجاعًا، لا يجب أن يلفني في كفني جبان ولا يرث عرشي جبان.

وعاد الأمير ابن شاه الفرس إلى خيمته وقلبه مليء بحزن عارم وأخذ مرآته ونظر إلى وجهه وكان جميلًا وقال: أيتها العينان النبيلتان كعيني الصقر، وأيها الحاجبان العاليان، أيها الشاب الشجاع، أيتها الشفتان الحمراوان الجميلتان اللتان كتبت من أجلها بنات أصفهان الأشعار، هل يتعفن ويتحلل جسمي ويختفي للأبد في المقبرة عن عيون الناس؟ أم هل أهرب وأخفي هذا الوجه النبيل للأبد عن نظر الرجال الطيبين؟ لا يمكنني أن أحارب هذا الصبي لأن قلبي مليء بالخوف ويدي ترتعد، وبدأ الأمير في بكاء ينفطر له قلب من استمع إليه.

وكانت الشابة الأميرة «جميلة» أخت الأمير التي كان يحبها قد سمعت بكاءه فذهبت إلى خيمته، وحدّث أخته المحبوبة عما دار بينه وبين والده الشاه من حديث. حزنت الأميرة كثيرًا على كلمات أخيها وقالت: إذا قاتلت هذا الصبي فبدون شك سيقتلك؛ لأنه قيل أن مهارته في القتال لا نظير لها في بلاد فارس بأكملها ولا يوجد أحد في جيشنا يماثله. وإذا ما تحديت والدك ولم تنازل هذا الصبي فمن المؤكد سيقتلك والدك. وإذا أردت أن تهرب فكيف إذن تعيش في أرض غريبة حيث إنك لا تعرف مهنة أو تجارة؟ هناك طريقة واحدة أمامنا تبشر بالنجاح وهي أن أحارب هذا الصبي بدلًا منك.

ونظر الأمير إلى أخته بحزن وتعجب لأنه اعتقد أنها فقدت عقلها؛ إلا أنها استمرت قائلة: إن وجهينا متشابهان تماما فيما عدا أن لك شاربا وأنا ليس لي. وسوف أجعل لي شاربا من صوف الأغنام وألصقه على شفتي وعندما أخرج لمنازلة الصبي فإن والدنا لن يفرق بيني وبينك، أما إذا أنت نازلت الصبي فسيقتلك لا محالة.

إن لدي ذكاء المرأة وأسلحتها، وأنت تعلم أن جسمي جميل حتى أنه لا يمكن أن ينظر إلى الرجل ويتماسك عقله. سوف أرتدي مثل هذه العباءة المفتوحة من الأمام وتحتها لن أرتدي قميصًا أو ملابس أخرى ،وعندما نتقاتل يمكنني أن أخلع العباءة وسيندهش مما يراه، في هذه الأثناء سأعاجله بضربة من سيفي قبل أن يعود لرشده. ولن تكون الجيوش على ضفاف النهر قادرة على ملاحظة ما حدث.

ثم أضافت: في هذا اليوم يجب أن تحلق شاربك وترتدي ملابسي وأنا أرتدي ملابسك وتذهب إلى خيمة النساء، لأنه إذا ما سأل عني والدنا وكنت غائبة قد تكتشف خطتنا.

ورد الأمير: صحيح أن وجهينا متشابهان لأن من أنجبنا نفس الأب ونفس الأم. وفكرتك يمكن أن تنقذ أراضي بلاد فارس من حرمانها من وريث العرش. ذهب الأمير إلى والده وقال: أرسل رسولا إلى معسكر العرب وقل له أن الأمير قبل المنازلة فامتلأ قلب الشاه بالفرحة والفخر بشجاعة ابنه.

وجاء يوم القتال وتجمعت جيوش الفرس على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وتجمع عرب القبائل العظمى على الضفة الغربية وكانت الأميرة جميلة ترتدي عباءة الرجل والرمح والسيف، وكان مثبت بوجهها شارب من صوف الأغنام وكل من يراها يعتقد أنها الأمير. وبالنسبة للأمير فإنه قام بحلق شاربه وكان يرتدي فستان فتاة وكان يجلس مع السيدات الملكيات وجميعهن خدعن به،وكل من رآه اعتقد أنه الأميرة جميلة.

ودخلت الأميرة جميلة إلى القارب وخرجت إلى الجزيرة في وسط نهر دجلة، وجاء المقداد في القارب من الضفة الغربية، والتقت الأميرة بالمقداد على الجزيرة وأبلغته بأن يرسل مرة أخرى قاربها إلى الضفة وأعادت مركبها إلى الضفة، متحدثة بصوت رجل وعندما رأى المقداد أن القارب الفارسي عاد إلى الشاطئ أمر بعودة قاربه. وترك المقداد والأميرة وحدهما في الجزيرة وهؤلاء الذين على ضفاف النهر يشاهدونهما عن بعد؛ ولكن المقداد اعتقد أن الأميرة كانت رجلا ووريثا لعرش بلاد فارس.

وقدمت الأميرة إشارة إلى المقداد بأن المعركة ستبدأ وقد استلت سيفها واستل المقداد سيفه وهجم كل منهما على الآخر، وعند التقاء سيفيهما رأى المقداد أن ساعد عدوه كان ضعيفًا وفكر: إن الأمير لا يعرف كيف يقاتل ويمكنني أن أقتله حين أشاء ولكن بدلًا من ذلك إذا نزعت سلاحه وأخذته كأسير فإنني يمكن أن أطلب فدية وأن ألزم والده على قبول شروطنا.

لذلك فقد لعب مع خصمه ولم يضربه بسيفه الضربة القاضية، وعندما

كانا يتحركان وضعت الأميرة يدها اليسرى على عباءتها وفكت أزرارها وفتحتها من أمام ودهش المقداد حينما رأى أن الأمير لديه جسم أجمل امرأة.

أسقط المقداد سيفه على الأرض وتراجع قائلا.يا سيدتي لو علمت أنه أنتِ من تنازلني لأعددت سلاحا آخر؛ لأن السيف لا يجب أن يدمر هذا الجمال. وتقدمت الأميرة إلى المقداد شاهرة سيفها لطعنه طعنة الموت؛ ولكن قلبها لم يطاوعها لأنه قلب امرأة. وحين رأت وجه المقداد الوسيم لم تطعنه. وانهمرت الدموع من عينيها، وأخذ المقداد سيفها من يدها وأتجه إلى قاربه صارخا: إنني أسرت أمير الفرس، واصطحبها إلى القارب وعادا إلى الشاطئ العربي. وقد أصيب الشاه والفرس والعرب على ضفاف النهر بالدهشة لأنهم لم يروا ما رآه المقداد. وقال الشاه: إن ذلك لسحر مبين لأن الصبي العربي ليس مسلحا وليس معه سيف ورغم ذلك فقد أستسلم ابني له.

وأخذ المقداد الأميرة جميلة إلى خيمته وروت له ما دار بينها وبين أخيها من خطة. وكان المقداد مشبعا بحب عارم نحو الأميرة وفكر في إيجاد طريقة للزواج بها دون أن يسبب لها أو لأخيها أي ضرر.

وبالنسبة للأمير الفارسي فقد جلس بين السيدات وقلبه مليء بالخوف وفكر: إلى متى سأختفي كامرأة؟ إن هذا عار أكبر مما لو أنني هربت جبنا. ماذا سيحدث عندما يزوجني أبي إلى أحد الأمراء؟

ولم يقل المقداد لأحد أن الأمير الفارسي كان امرأة وجعلها أسيرة له في خيمته وكتب خطابا إلى الشاه قال فيه:

يا جلالة الشاه

بعد التحية الطيبة،،

أكتب إليك لأبلغك بأنني أدعو لجلالتكم ولأبنكم الأمير بالصحة والسرور.

وأعلم أن ابنكم الأمير بصحة جيدة، وهو في ضيافتي ويشغل وقته بالدعاء لجلالتكم بالصحة والخير. كان بودي أن أرسل أحد أقاربي أو أصدقائي لينحني أمام جلالتكم ويقدم طلبي، ولكن لا يخفى عليكم أننا حاليا معكم في حالة حرب. وطلبي هو ابنتك الأميرة جميلة، فإنني أرغب في الزواج منها وحدد ما شئت من أموال كمهر أدفعه لك أما هي فلا تدفع لي سوى حب الرمان. وأنا اسمي معروف ونسبي معروف. وإنه من المستحسن أن ترسل الأميرة إلينا في قارب؛ لأن حالة الحرب تحول أن أذهب إليكم. وليحضر أبنك الأمير حفل الزفاف وبعد الانتهاء من مراسم الحفل، فإن آداب الضيافة لن تجعلنا نعتقله. سيعود إلى معسكركم في أمن وسلام.

وقد وقع المقداد الخطاب وختمه وأرسله إلى معسكر الفرس.

وعندما استلم الشاه الخطاب وقرأه أسودّ وجهه واستشاط غضبا وثورة

وأخذ يزأر كالأسد وأرسل لقادة جيشه ووزرائه قائلا.هذا أبن الجمل أسر أبني والآن يريد أن يتزوج أبنتي، وأمر القادة بإعداد خطة لمهاجمة معسكر القبائل العربية وإنقاذ ابنه وقتل المقداد. ولكن القادة أظهروا خوفهم قائلين: يا سيدنا كيف يمكن أن يتم هذا؟ صحيح أن جيشنا عشرة أضعاف حجم قوات رجال القبائل العربية هؤلاء؛ ولكن عندما نواجههم فإنهم يهربون مثل الخفافيش عند بزوغ أشعة شمس الصباح ولكنهم يعودون في الأوقات التي لا نتوقع أن يعودوا فيها ويقتلون رجالنا ويسوقون حيواناتنا ويدمرون صفوف مقاتلينا.

وتحدث أحد القادة قائلا: يا سيدي قد يكون من السياسة والدبلوماسية أن تزوج أبنتك لهذا الصبي؛ لأنه بحق محارب عظيم.من الأفضل أن يكون صديقا بدلا من أن يكون عدوا لنا، وبالنسبة لنسبه فإنه كما يقول ليس سليل بيت ملكي، وإنه من الرجال البسطاء من القبائل العربية. ولكن الشاه قال له: هذا لا يمكن قبوله بأية حال من الأحوال.أيها القادة لتدبروا خطة لتأمين إطلاق سراح ابني وإلا سأربطكم بين الخيول وأفصل رؤوسكم عن أجسامكم. وفي غضون ذلك سأزوج أبنتي إلى سلطان تركيا. أبلغ ابنتي بقراري هذا حالا.

وخرج أحد الخدم من خيمة الشاه إلى رواق النساء وتحدث إلى الحرس المخصيين وقال: قل للأميرة جميلة أن أباها الشاه يطلب حضورها لأنه يرتب لزواجها من أمير تركي. وسلّم الحارس الرسالة إلى الأمير الذي كان

يرتدي ملابس الأميرة جميلة وقال: يا سيدتي إن أباكِ يطلب حضوركِ لأنه يرتب لزواجكِ من سلطان تركيا، وأصفرّ وجه الأمير من الخوف مفكرا: ماذا سيحدث عندما يأتي إلى سلطان تركيا في ليلة الزفاف؟ إنني لا أرى مفرا من هذا القدر.

وذهب الأمير مرتديا نقاب سيدة وفستانها إلى مجلس والده الشاه وتحدث الشاه وقال: يا ابنتي المحبوبة أن «مصلحتك تمس قلبي، ولتعلمي أنه منذ شهور قليلة أرسل إلينا الأمير النبيل جلال سلطان تركيا سفيره راغبا بالزواج منك. ومن أجل مصلحة العائلة الحاكمة.المصلحة العامة للبلاد فقد أجلت الرد عليه وبحثت عن خطيب أفضل.أنتِ الآن أصبحتِ أكبر سنا، أنتِ في السابعة عشرة من عمرك، ولن تبقي لفترة طويلة دون زواج. لذا سأرسل وفد صداقة وسلام إلى الأمير النبيل وسيحمل سفيري موافقتي على زواجك من السلطان. وسوف يغادر الوفد غدا مكونا من ألف فارس، وألف من المشاة، وألف جارية من القوقاز كهدية للسلطان. ولكن الأمير الذي كان يتحدث بصوت فتاة أجاب والده الشاه: يا أبي لا تزوجني إلى هذا الأمير التركي المخيف، زوجني إلى المقداد الفتى العربي، لأنني أحب فيه شجاعته وشهامته التي أظهرها لأخي عندما تغلب عليه بالسحر.

وقال الشاه: لقد اتخذت القرار ويتوجب التنفيذ. ولكن لِمَ صوتكِ اليوم يبدو غريبا يا أبنتي العزيزة؟ ورد الأمير: عندما يتحطم قلبي فإن صوتي يتحطم أيضا. وبعد ذلك طلب الشاه أن يأتي إليه قائد الحرس، ولما

جاءه أمره قائلا: أعد الأميرة جميلة إلى خيمتها. وفتش في هذه الخيمة عن سكين أو أي شيء حاد قد يستعمل لقطع الشرايين أو عن سم، وفتش كل من يأتي إلى خيمتها، لأنها تتمتع بحيوية الشباب وحماقته ولا ترغب في الزواج وقد تُقْدِم على الانتحار. ضع على خيمتها 10 حراس وراقبها حتى لا تهرب، لأنه إذا ماتت أو هربت منا فإن العذاب ينتظرك، وسوف أفقأ عينيك وأقطع لسانك وأحرمك من الحياة. ورد قائد الحرس قائلا: يا سيدي أؤكد لك بأنها لن تهرب سواء حية أو ميتة.

وأخذ قائد الحرس الأمير وعاد به إلى خيمة الأميرة أخته وفتش الخيمة ووجد شفرة أستخدمها الأمير لحلق شاربه ولحيته ليصبح وجهه ناعمًا مثل وجه الفتاة. وخاطب قائد الحرس الأمير قائلا.دون شك يا سيدتي إنك جلبتِ شفرة الحلاقة لقطع شرايينك. وأخذ قلب الأمير يرتجف خوفا، وأطرق مفكرا.بدون شفرة الحلاقة هذه سينمو شاربي وينكشف أمري. ونشر قائد الحرس عشرة من الحراس المخصيين وهم مسلحون بالسيوف حول الخيمة.

وبعد ذلك نادى الأمير على إحدى الجواري المعروفة بإخلاصها للأميرة أخته وجاءت إلى الخيمة، وقد قام المخصيون بتفتيشها بحثًا عن سلاح أو سم؛ ولكنهم لم يجدوا معها شيئا وسمح لها بالدخول. وتحدث الأمير إلى الجارية بصوت فتاة قائلا: يا عزيزتي إنني أحب الشاب المقداد ولن أتزوج هذا التركي. استمعي إلى جيدًا وخذي هذه الرسالة إلى قائد

الفرسان، قولي له: أن الأميرة جميلة تؤكد لك بأن حياتك مهددة بالخطر إن لم تنقذ أخي.

إن الأميرة ستقوم بخدعة حيث تضع شاربا من الصوف لتبدو وكأنها أخوها الأمير الأسير الآن في المعسكر العربي. اقبض على ساحر البلاط الليلة وهدده بالموت إن لم يقل لأبي الشاه أن الشاب المقداد استعمل السحر واستطاع خطف الأميرة جميلة من خيمتها ليلا دون أن يعرفه الحرس وجلب أخاها الأمير إلى خيمتها. ودعه يكتم هذا السر ولا يفشيه لأي أحد في العالم.

وعندما يعلم أبي أن ابنته بين يدي المقداد فأنه سيشعر بالعار. وعندما ينتشر الخبر عالميا فإن الأمير التركي لن يتزوجني مطلقًا، وستعيش أسرتنا في خزي وعار. سأخبر والدي برغبتي؛ على الرغم من إنني رجل وأنا الأمير ابن الشاه ـ يجب أن ارتدي ملابس فتاة مثل ملابس أختي الأميرة، ويجب أن يرسلني إلى معسكر العرب للزواج من المقداد. ومن المفترض عندما أصل إلى هناك سأعود كأمير؛ لكن حقيقة الأمر فأنني سأتزوج المقداد ليتم إطلاق سراح الأمير أخي ودون علم أبي.

وردت الجارية: يا سيدتي المحبوبة هذه بالفعل خطة متقنه ولكن كيف تخرجين كرجل؟ وفي صوت الأميرة رد الأمير: سأمر مثل أخي، وأبي لن يلحظ الاختلاف بيننا لأننا متشابهان كعودي ثقاب في صندوق في ماعدا الشارب الذي يجب أن ألصقه في وجهي غدًا. لتذهبي الآن وسلمي

الرسالة، وبعد ذلك احضري إلى ملابس رجال أخفيها تحت ملابسك بحيث عندما يفتش المخصيون جسمك بحثًا عن السكاكين وعلب السم فأنهم لن يكتشفوها. وذهبت الجارية وأعطت الرسالة لقائد الفرسان وأحضرت الملابس إلى الخيمة.

ودهش قائد الفرسان بعد تسلمه الرسالة من الجارية وفكر: إن سيدي الشاه سيصاب بمس من الجنون وسيصبح مثل جمل هائج عندما يسمع أنه تم خطف الأميرة جميلة ليلا بوساطة السحر وأعيد أخوها الأمير مكانها. ولكن ليس من العدل أن يلومني على هذه الحادثة، ولا يمكنه أن يقتلنا نحن قادته بسبب الفشل في إنقاذ الأمير؛ لأن الأمير يوجد الآن في معسكرنا آمنًا مطمئنا. وبالنسبة للأميرة فما جدوى إنقاذها بعد أن تم أخذها إلى خيمة العرب؟ ولكن الخطر الكبير لا يزال قائما وهو هل تستطيع الأميرة جميلة المتنكرة بثياب أخيها أن تخرج بسلام.و قرر إن خطر المجازفة هذه أفضل من الموت المحقق، لأنني لا استطيع إنقاذ الأمير من معسكر العرب!

وقد أستدعى قائد الفرسان ساحر البلاط وجاء ودخل خيمته وحياه وتحدث القائد بهذه الطريقة: أنت تعرف مدى السرعة التي استل بها سيفي من غمده وكيف أهوي به على من أريد قتله، ستمكث في خيمتي تحت الحراسة المشددة. وعند الفجر ستذهب معي إلى خيمة الشاه وسوف نوقظه من نومه.تقول له: يا سيدي كنت أنظر في البلورة (الكرة الزجاجية) السحرية ليلة البارحة ورأيت قطا يأتي إلى مخيمنا ويذهب إلى خيمة

سيدتي الأميرة جميلة. وكان في فم القط فأر ووضع القط الفأر على سرير سيدتنا وعلمت من قوتي السحرية أن القط هو المقداد الساحر العربي والفأر هو سيدنا الأمير وقد حاولت أن أستخدم السحر ولكن سيطرت علي قوة جبارة أبطلت سحري هي قوة سحر المقداد أمير السحرة. وبعد ذلك صفع القط سيدتنا على وجهها فتحولت إلى فأر، وألتقطها القط في فمه وخرج من الخيمة ومن المعسكر.

وعندما عبر القط النهر وفصل الماء بيني وبينه تحررتُ من السحر الذي سيطر علي وعُدتُ إلى كتبي السحرية وانهمكتُ بعمل سحر استغرق ساعتين تمكنتُ من خلاله إعادة سيدي سمو الأمير إلى حالته الطبيعية وهو الآن يتمتع بنوم هادئ في خيمة أخته الأميرة ولم أبلغ أي شخص بذلك، ونسأل الله أن يحفظ صاحب السعادة قائد الفرسان الرصين فهو الأصدق والأكثر مهارة من بين ضباطكم، وعندما تقول هذا للشاه سأكون واقفا خلفه وستكون يدي على مقبض سيفي وإذا غيرتَ كلمة واحدة مما أمرتك ضربتُ عنقك حتى افصل رأسك عن جسمك مدعيا أنك دبرت حيله لقتل جلالة الشاه.

وارتجفت فرائص ساحر البلاط من الخوف وقال: ولكن كيف يصدق الشاه كلماتي؟ وماذا يحدث إذا ما ذهب الشاه فورا إلى خيمة سيدتي الأميرة ووجدها نائمة هناك وهي تحت حراسة مشددة بينما الأمير أسير بالمعسكر العربي؟ ولكن قائد الفرسان قال: سيدتي الأميرة سوف تخفي

نفسها مكان أخيها الأمير لأن وجهيهما متشابهان وستقوم بتركيب شارب من شعر الماعز على وجهها. وسأطلب من الشاه أن يوافق على زواجها من الصبي المقداد، وأن يقوم ابنه الأمير بالتنكر مرتديا ملابس الأميرة، حتى يمكنه أن يرسلها للزواج وهي في وضع مشرف. ولن يعرف الشاه أن الأمير بالفعل هو الأميرة. وسيوافق الصبي المقداد على هذه الحيلة لإنقاذ زوجته من العار. ولم تعجب ساحر البلاط كلمات قائد الفرسان ولكنه رأى سيفه فوافق.

ومع ساعات الفجر الأولى ذهب قائد الفرسان وساحر البلاط إلى خيمة الشاه ومرا عبر الحراس وأيقظا الشاه. قال قائد الفرسان: يا سيدي أود أن أخبرك بأن أبنكم الأمير قد عاد إلينا وهو الآن نائم مطمئن في خيمة الأميرة جميلة، ولكن الأميرة قد اختطفت إلى معسكر العرب. وروى ساحر البلاط ما أمره قائد الفرسان بأن يحدث الشاه به ولم يغير كلمة واحدة لأن يد قائد الفرسان كانت على مقبض سيفه.

وما إن سمع الشاه ذلك حتى جن جنونه وأصبح كجمل هائج ونهض من سريره وجرى مسرعا إلى خيمة ابنته وتبعه قائد الفرسان وساحر البلاط ومروا بالحراس المخصيين ودخلوا الخيمة ورأوا شخصا نائما على السرير له شارب ومرتديًا ملابس رجل. واعتقد قائد الفرسان وساحر البلاط أن هذا الشخص هو الأميرة جميلة متخفية في ملابس أخيها، أما بالنسبة للشاه فيبدو أن ابنه الأمير ربما جاء ليلا من معسكر العرب. وبالنسبة لكم أيها المستمعون فالشخص هو سمو الأمير فقد خلع ملابس

امرأة وارتدي ملابس رجل، ولم يضع شاربا من شعر الماعز لأن شاربه نما في يوم واحد.

أصبح الشاه كالكلب المسعور يدور في الخيمة جيئة وذهابا وأخذ يفكر في الأمر ويتدبر: قد تكون إحدى حيل الأميرة جميلة للهروب إلى حبيبها، وربما قامت بتقديم رشوه لساحر البلاط ووضعت شاربًا مزيفًا حتى يمكنها أن تهرب من هذه الخيمة. أمر الشاه قائلا: أيقظوه.

أيقظ قائد الفرسان الأمير النائم، وعندما فتح الأمير عينيه قال: أتعجب لهذا الأمر لقد ذهبت إلى السرير لأنام تحت الحراسة أسيرا في معسكر العرب واستيقظت في خيمة أختي في مخيمنا وأنت يا أبي جئت لتحييني. أمر الشاه: أسحب هذا الشارب بشدة، وتقدم قائد الفرسان لتنفيذ أمر الشاه وكان قلبا قائد الفرسان وساحر البلاط مليئان بالخوف وفكر القائد: كيف يمكنني أن أسحب هذا الشارب دون أن أنتزعه، وإذا ما انتزعته سيظهر وجه الأميرة الناعم؟ وكان الأمير خائفًا أيضًا لأن شاربه كان مزيفا، فقال: يا أبي لا تتركه يشد شاربي لينتزعه ألا يقول المثل: «شرف الرجل في شاربه»، وإن كنت تريد أن تعرف هل أنا رجل أم امرأة وهذا يبدو أنه هدفك دعني أثبت لك جنسي بطريقة أخرى، أخرج من هذه الخيمة وأرسل إلى جارية تثق بها ويمكنك أن تختار أي فتاة من مخيمنا، واسمح لها بأن تأتي إلى خيمتي وتثبت أنني رجل.

ووافق الشاه، وأرسل إليه جاريته الشخصية التي يثق بها وجلس هو وقائد

الفرسان وساحر البلاط خارج الخيمة وأمر الشاه الجارية: أدخلي الخيمة وعندما تخرجي يجب أن تثبتي لي إن كان الشخص الذي بداخلها رجلا أم امرأة. ودخلت الجارية الخيمة، وخيم الخوف والهلع على قائد الفرسان وساحر البلاط وأخذت أرجلهما ترتعد لأنهما توقعا أن تنكشف حيلتهما.

وخرجت الفتاة من الخيمة وقالت: اقسم بالله أن من في الخيمة رجل وليس امرأة وصدق الشاه كلمتها، وبالنسبة لقائد الفرسان وساحر البلاط فقد كان كل منهما مندهشًا وفكرا: كيف قامت سيدتنا الأميرة بهذه الخدعة.

وبعد ذلك دخل الشاه وقائد الفرسان وساحر البلاط إلى الخيمة، واقتنع الشاه بأن ابنته اختطفت ليلا عن طريق السحر وتحدث قائد الفرسان وقال:يا يا سيدي لا أحد سوانا والصبي العربي يعرف عما جرى في هذه الخيمة، ولا أي شخص آخر في العالم، وسنحفظ هذا السر ولن نفشيه. ودع الأمير يرتدي ملابس أخته وارسله إلى الصبي العربي، ووافق على زواجه من الأميرة؛ لأنه سيتزوج الأميرة سواء شئنا أم أبينا ولن يعرف العالم أن حرمة عائلتكم قد انتهكت.

ووافق الشاه وأمر الأمير: سوف أرسل إليك شفرة حلاقة، وفستان امرأة. ارتد ملابس أختك وأجعل وجهك ناعمًا مثل وجه الفتاة لدرجة أن لا أحد يميزك عن الأميرة جميلة، وبعد ذلك سأرسلك إلى معسكر العرب، إلى الخيمة التي توجد بها أختك، رغم أن الناس يعتقدون أنك أسير في تلك الخيمة. ومن ثم تغير ملابسك وترتدي ملابس رجل ويتزوج المقداد

أختك حسب الشريعة الإسلامية والأعراف.

قال الأمير: يا أبي لا يمكنني أن ارتدي ملابس فتاة، هذا عار كبير لي، ولكن الشاه أمره وقال: أمري يجب أن ينفذ.

وعاد الشاه وقائد الفرسان وساحر البلاط إلى خيمة الشاه الخاصة، وهمس قائد الفرسان إلى الشاه: يا سيدي إن ساحر البلاط يعلم أن ابنتك تم اختطافها في الليل والسر لن يكون سرا إذا كثر من يعرفه. وأجابه الشاه هامسا: هذا عين الصواب أقتله. فأستل قائد الفرسان سيفه وقتل ساحر البلاط بضربة واحدة قبل أن ينطق بكلمة. وبعد أن قتل ساحر البلاط أمر الشاه قائد الفرسان قائلا: اترك سيفك خارج خيمتي لأنني لا أطيق رائحة الدم. وأطاع قائد الفرسان أمر سيده الشاه. وعندما دخل الخيمة كان الباب مغلقًا، واستل الشاه سيفه الخاص وقال: أنت تحدثت عن السر وقلت إن السر إذا كثر من يعرفونه لم يعد سرًا وأيضا أنت تعلم هذا السر، وقتل الشاه قائد الفرسان بضربة واحدة وكان بدون سلاح لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

أخذ الشاه ملابس المرأة وشفرة الحلاقة وعاد إلى الأمير وقال: اجعل نفسك مثل الفتاة. وخرج الشاه من الخيمة ونادى على الخدم وأمرهم بإيقاظ كل من في المعسكر وضرب النواقيس للتجمع بالقرب من خيمة الشاه وجاء الوزراء وكبار قادة الجيش.

وتحدث الشاه وقال: ليعلم كل فرد منكم أنني قررت أن أزوج ابنتي المحبوبة الأميرة جميلة إلى الصبي العربي النبيل والشجاع المقداد بن ثامر

من قبيلة آل فتلة. وأنا سأدفع مهرها وهو مئة ألف ليرة من الذهب، وألف حصان، وألف بعير. وما سيدفعه الصبي المقداد هو بطيخة فقط. وبسبب حالة الحرب بيننا سأرسلها ومهرها في قوارب عبر النهر بعد ساعة واحدة من الآن. أرسل الرسل إلى الصبي المقداد حتى لا يتفاجأ بهذه الحقائق ولكن الوزراء والقادة بدوا خائفين وتحدثوا وقالوا: يا سيدي الأمر لك ولنا الطاعة ولكننا كنا نأمل في زوج أفضل لأبنتك. وتحدث الشاه وقال:إن رجلًا بسيطًا ينتسب إلى قبائل العرب أفضل من أنبل الأمراء، والشجاعة في المعركة أفضل من السيطرة على مجالات واسعة..خرج الرسل وتم تنفيذ أمر الشاه.

وعندما سمع المقداد الأخبار سر كثيرًا؛ ومع أن الأميرة كانت في خيمته إلا أنه لا يعرف كيف يتزوجها دون أن يضر بشرفها وبشرف أخيها. وجاء الأمير عبر النهر مرتديًا ملابس امرأة كأنه الأميرة، وأخذوه إلى الخيمة التي كانت فيها الأميرة ترتدي ملابس الأمير وهناك تبادلا ملابسهما وعادا إلى ذاتهما الحقيقية ودون أن يراهما أحد.

وبعد ذلك تزوج المقداد الأميرة وأحبها حبا جارفًا وأنجب أبناء كثر يتحلون بشجاعة أجدادهم. وعاد الأمير عبر النهر إلى والده الشاه. وعندما مات والده خلفه بحكم بلاد فارس وكان شجاعا كالأسد، ولم تحدث قلاقل في بلاده. ولا يعرف سره في العالم بأكمله سوى أخته الأميرة جميلة والمقداد بأنه كان خائفًا من منازلة صبي غير ملتح وأنه ارتدى ملابس أخته لتجنب القتال.

حكاية «شرف الرجل في شاربه»

وبعد الليلة التي استمعنا فيها إلى حكاية المقداد توقفنا في الصباح لتناول الإفطار بالقرب من المسيب وقال حمد.استمعت إلى قصة المقداد.كيف قال الأمير الفارسي أن «شرف الرجل في شاربه» وهو مثل صحيح لدى قبائل آل فتلة وسوف أروي لكم أصل هذا المثل رغم أن الأمير كان رجلا بلا شرف لأنه حلق شاربه. وقال عبد: إذا أنت تعرف أصل هذا القول فأحكي لنا القصة، وروى حمد:

ذات مرة في الحلة كان هناك تاجر أقمشة متوسط الثروة اسمه رشيد عبد المجيد وقد اعتاد هذا التاجر أن يشتري الأقمشة من كبار تجار بغداد ويبيعها بكميات صغيرة إلى رجال القبائل وناس الحلة، وكان ربحه ضئيلا إلا أنه يسد احتياجاته كدفع إيجار منزله، والحصول على قوت يومه، ولم يكن لديه خدم لأن عمل المنزل تقوم به زوجته وابنته «سلمى» الوحيدة، وهي فائقة الجمال ذات الستة عشر ربيعا.

وذات ظهيرة يوم حدث أن حِبّ(*)(جرة) الماء كان خاليًا، فطلبت الأم من سلمى أن تذهب إلى النهر لجلب الماء. ووضعت سلمى الجرة على كتفها وذهبت إلى النهر.وذهبت إلى الجزء البعيد من النهر وليس القريب من منزلها لتتفادى النظر إليها بدونية كأن يقال عنها: «أن ابنة التاجر تجلب الماء بنفسها» لأن النساء اللاتي يجلبن الماء هن زوجات وبنات الحمالين والفلاحين والدباغين والنحاسين، أما بنات تجار الأقمشة فقد اعتدن أن يرسلن خادماتهن لجلب الماء. ومن المعروف أن وضع والدها المالي لا يسمح له بوجود خادمة؛ لذا خرجت سلمى من الباب الخلفي لمنزلها عبر بساتين النخيل إلى جزء معزول من النهر.

وعندما وصلت سلمى إلى النهر كانت متعبة وتتصبب عرقا، لأن الطقس كان حارًا فالوقت ظهرا والفصل صيفا. وقد نظرت من حولها.لم تر إنسانا ولم تسمع صوتا وكان الهدوء يخيم على المكان. فقررت أن تنزل في النهر لتستحم وتنعش جسمها قبل أن تعود إلى المنزل.

وقد خلعت ملابسها ووضعتها على الضفة ونزلت في النهر، ولتعلموا أنه على الرغم من أنها لم تر أحدا إلا أن هناك شابا من قبيلة آل فتلة يتخفى على الضفة واسمه خاتم. وهذا الشاب لا يملك حصانا أو مهرة أو رجْلًا في فرس، كما أنه لا يملك غنما ولا أرضا، ويتناول طعامه في دار ضَيافة الشيخ. وكان ينصب أفخاخا للطيور كالقبرة والحجل عندما ترد الماء فيصطادها ويبيعها في السوق ليشتري بها الملابس.

(*) إناء مصنوع من الفخار يحفظ ماء الشرب[المترجم]

وبينما كان خاتم متخفيا بين الأشجار على ضفة النهر يراقب أفخاخه رأى فتاة جميلة كالقمر وقد جردت نفسها من ملابسها فأخذ يمعن النظر في جسمها الرشيق.ها هي رقبتها طويلة ورشيقة، وأكتافها ناعمة، وصدرها بارز مثل تلال الصحراء عندما ينعكس عليها ضوء القمر ليلا، وخصرها رشيق، وفخذاها ناعمتان ومستديرتان، وحول سرتها وشم بشكل فراشة. وأخذ يراقبها ونسي الطيور وأفخاخها. وبعد أن استحمت في النهر جففت نفسها بتمدد جسمها على ضفة النهر وتعرضه للشمس، وبعد ذلك ارتدت ملابسها وملأت جرتها بالماء وعادت إلى منزلها.

وفي اليوم التالي وقبيل شروق الشمس عاد خاتم إلى نفس المكان وانتظر مجيء الفتاة وبعد نصف ساعة جاءت الفتاة وملأت جرتها بالماء من نفس المكان. وكان خاتم يراقبها وهو متخفٍ بين أشجار الطرفاء، لكنها لم تخلع ملابسها إنما ملأت الجرة بالماء ووضعتها على كتفها وعادت إلى المدينة. كان خاتم شابًا يافعا في السابعة عشرة من عمره، عندما رآها تغادر النهر جرى مسرعا وهو يشق طريقه بين أشجار الفاكهة والنخيل وسبقها ثم اعترض طريق عودتها، وعندما اقتربت منه ألقى عليها السلام، فأسدلت نقابها ولم تنظر إلى عيني هذا الشاب الغريب ولم ترد على تحيته، إلا أن خاتم اقترب منها وقال هامسا: هل كان الوشم مؤلما عندما رسمت الفراشة بالقرب من سرتك.وعندما سمعت سلمى تلك الكلمات أحمر وجهها خجلًا، ونظرت إلى وجه خاتم فكان يضحك فضحكت هي أيضا، ورفعت نقابها عن وجهها وقالت: طالما أنك رأيت الفراشة فلا جدوى من تغطية وجهي.

وجلس الاثنان: خاتم وسلمى، بجوار شجرة طرفاء وعرّفها على نفسه ووضعه، وعرفته على نفسها وتفاصيل حياتها، وضحكا كثيرا على الفراشة وقالت: لم أتألم من الوشم لأن هذا تم عندما كنت في الخامسة من عمري وكان الوشم صغيرًا ولكنه كبر معي. واكتشف الاثنان أن قلبيهما منصهران في بوتقة واحدة.

وفي كل يوم تذهب سلمى لجلب الماء من النهر كان خاتم ينتظرها ويساعدها على ملء الجرة بالماء، ويجلس الاثنان بجوار شجرة الطرفاء ويمضيان دقائق قليلة في مرح وسعادة. وعندما تعود سلمى إلى منزلها تغمرها فرحة عارمة. قالت أم سلمي لزوجها التاجر رشيد: انظر مدى سعادة ابنتنا! هل تعرف سبب سعادتها؟ قال رشيد: أنها في حاجة إلى الزواج. وربما وقعت في شباك الحب، لنسأل عن خطّاب اليوم.

وعندما أغلق رشيد محله ذهب إلى منزل رجل حكيم وهو وسيط زواج، وقال: لقد بلغت ابنتي سن الزواج. وقال الرجل: هناك من يبحث عن زوجة في سن الخامسة أو السادسة عشرة وهو عباس علي القصاب هذا التاجر الثري. يقال إن محله يقدر بثلاثة آلاف ليرة من الذهب.وقد تم بحث الأمر والتفاهم بين الرجل الوسيط والتاجر عباس والتاجر رشيد، وقبل إعلان موعد الخطبة الرسمي قال رشيد: سوف أسأل أم البنت والبنت أولًا لأن الأمر متعلق بهما قبل مراسيم الخطبة الرسمية. وعاد رشيد إلى منزله وقدمت ابنته وزوجته له الطعام وعندما أكل قال: هناك خبر

سار لصغيرتنا سلمى. سوف أزوجها لعباس علي القصاب حتى يمكنها أن تعيش في منزل فاخر، ويكون لديها الخدم الخاصين بها، ولن تذهب لجلب الماء أو تتعب يديها بالطهي، وسيكون لها شأن كبير، وتودع فقر أبويها .

ولكن سلمى بدأت في الصراخ قائلة: ليس لعباس علي أسنان، ويصبغ لحيته على الدوام، ويتصبب الماء من أنفه كسقوط المطر على سعف النخيل. ورمت نفسها على الأرض وهي تبكي رافضة الزواج منه. وقالت أمها لأبيها: لا تقلق سأعيد الحديث معها، وقد كنت مثلها عندما قيل لي يجب أن أتزوجك.

في فجر اليوم التالي جرت سلمى إلى النهر وهي تبكي وترتجف مثل خيمة تلعب بها الرياح واستقبلها خاتم ورفعها بين يديه. وروت له ما دار بينها وبين أبيها من حديث وسأل خاتم: ما المهر الذي يريده أبيك؟وأجابت: ثمانين ليرة من الذهب.

قال خاتم للفتاة سلمى: لا تبكين ولا تخافين، لأنه في اليوم الذي يمتشق عباس علي القصاب سيفه ويمتطي جواده ليسير في موكب إلى منزل أبيك سأعرّفه على ملاك الموت. قالت سلمى: خذني بعيدًا معك إلى قبيلتك لأصبح في مأمن من هذا الشر. وأجابها خاتم: هل رأيتِ مخيماتنا وقرانا وكيف تشيد جدران البيوت من الطين، والأسقف من قماش الخيام أو حصائر القش، ولكن ألا تعلمين سبب هذا؟ نحن

أبناء القبائل لا يغمض واحدنا كلتا عينيه عندما ينام، بل يغمض واحدة ويترك الأخرى مفتوحة. ربما يفرض الأتراك علينا ضريبة غير عادلة، أو ربما يتحدث الجندي التركي إلى إحدى نسائنا ثم يقتل، أو ربما يطلب شخص اللجوء إلينا ويأمرنا الأتراك بتسليمه. فيصرخ شيخنا: شيلوا! ارحلوا وفي أقل وقت مما يستغرق لإطفاء الشمعة نذهب إلى الصحراء بإبلنا وخيلنا وأغنامنا وكل ما نملك حتى أسقف بيوتنا تكون محمله على الإبل ونذهب إلى هناك. وعندما تصل القوات التركية لا يجدون سوى بيوتا طينية فارغة. قد يدمرون بعضا من حقولنا الزراعية وبساتين نخيلنا، ويحاولون البحث عنا في الصحراء ولن يجدونا.وسرعان ما ننقض على قوافلهم على طريق البصرة ونستولي عليها، ونهاجم مراكبهم في النهر وندمرها. حينئذ يصرخ الحاكم التركي قائلا: لا تدفعوا الضريبة. لا تسلموا اللاجئ.أسلوب الحياة يتطلب منك أن يكون لديك حصان وخدم خاصون بك ويجب أن تشرب الماء من معدة الجمل. سأتزوجك يا سلمى ولكن يجب أن أكون تاجرًا عظيمًا حتى يمكنني أن أشتري لك بيتا، وقدر طهي من النحاس الأحمر، وخادم، وخلاخيل من الفضة، وأسورة من الذهب.

وتركت سلمى خاتم وعادت إلى المدينة، وقد تلاشى خوفها لأنها علمت أن عباس علي القصاب سيموت قبل أن يتزوجها وجلس خاتم يراقبها ويفكر: كيف يمكنني أن أصبح تاجرًا عظيمًا؟ كان خاتم فقيرًا حتى أنه لا يوجد في جيبه عملة نحاس واحدة، ولا يغطي رأسه شماغ،

ولا يرتدي صديريا أو ملابس داخلية، عدا ثوب من قماش رخيص. وقرر خاتم أن يقترض مالا ويتاجر به وليصبح تاجرًا عظيمًا.

ذهب خاتم إلى المدينة وكان يسير حافي القدمين، وذهب إلى دكان رشيد وحيا التاجر قائلا: أعطني لفافة قماش، وأقرضني خمس ليرات ذهبية مقابل وعد برهن. ونظر رشيد إلى الشاب ورآه يرتدي ملابس قذرة وممزقة، وحاسر الرأس، وحافي القدمين، ولكنه رأى فيه صقرًا كاسرًا، وسأله رشيد قائلا: هل أنت من القبائل. وأومأ خاتم برأسه قائلا: نعم.

واعلم أن القبائل كانت أكثر فقرًا في أيام العثمانيين عنه الآن. لم تكن قادرة على زراعة أرضها بسلام وازدهار. ولتغطية تكاليف الزواج أو العزاء لمن ليس لديه أموال يمكن أن يذهب إلى المدينة وإلى أحد النجار ويقول: «أعطني القماش والمال وخذ مني رهنا»، وبالنسبة للرهن فإن كان لديه خاتم ذهب أو فضة فإنه يودعه عند التاجر وإذا لم يكن لديه خاتم فيعرض شماغه أو عقال بعيره قائلًا: هذا عهدي وشرفي، وهذه عادات القبائل.

ونظر رشيد إلى الشاب خاتم ورأى أنه بحق من القبائل؛ من أسلوب حديثه وثقته بنفسه ونظراته كالصقر فقال: خذ المال والقماش وأعطني الرهن. أحمرّ وجه خاتم لأنه نسي أن يأتي بالرهن معه؛ إذ لا يملك خاتما أو شماغا أو عقال بعير أو رسن حصان، وكان ذكيا وفكر وأجاب: «إن شرف الرجل في شاربه» لأن هذا الشارب هو الذي يميز وجه الرجل أو

الشاب عن وجه المرأة، وبالتالي سأعطيك شعرة واحدة من شاربي كرهن. ودهش رشيد من كلمات الشاب.

وطلب خاتم مقصا ومرآة ونظر إلى وجهه في المرآة وبحث عن شعرة في شاربه أقل جمالا من بقية الشعر فنزعها وأعطاها لرشيد، وأخذ رشيد الشعرة ووضعها مع الرهونات الأخرى مثل الخواتم والشماغات والعقل والأرسنة في صندوق وأعطى خاتم خمس ليرات من الذهب ولفافة قماش.

وأخذ خاتم المال والقماش وذهب إلى محل لخياطة الملابس عند خياط يعرفه ويثق به لأن والد الخياط من قبيلة آل فتلة وقال للخياط: خذ هذا القماش وهذا المال وفصّل ملابس تاجر غني جدًا، وآتِ لي بلحية من صوف الأغنام التي سوف أثبتها على وجهي، وأحفظ هذا السر، لأنه أكثر أهمية لي من الحياة نفسها. وقال الخياط: اقطعْ رأسي إن أفشيت هذا السر. وقام الخياط بعمل ملابس التاجر الثري لخاتم وأحضر له لحية من صوف الأغنام. وعندما ارتدى خاتم الملابس ووضع اللحية ظهر كشخصية هامة ومتميزة، وكل من يراه يقول: هذا هو التاجر الذي تقدر ثروة دكانه بعشرة آلاف ليرة من الذهب.

وخرج خاتم الذي كان يرتدي ملابس التاجر الثري من محل الخياط وعاد إلى دكان رشيد وألقى عليه السلام، فنهض رشيد عندما رأى التاجر الثري يدخل دكانه ورد تحيته، وأمر صبي الدكان بأن يأتي بكوب شاي

من المقهى لهذا الزائر المتميز وجلس خاتم على الكرسي الذي وضعه له رشيد.

وقد اعتاد خاتم على السفر إلى البصرة مرافقا للشيخ مع أنه صبي بسيط من القبيلة، وفي العصور القديمة عندما يسافر الشيخ إلى بغداد أو إلى البصرة يصطحب معه خمسين رجلًا في موكبه حتى يتعرف كل من يراه على مكانته وهيبته. ولم يملك خاتم أرضا أو أغناما إلا أنه اعتاد أن يصاحب الشيخ ويأكل على حسابه في فنادق البصرة.

وتناول خاتم كوب الشاي الذي قدمه له رشيد، وسأل عن صحة مضيفه وقال: اعلم أنني تاجر من البصرة، وتجارتي هي التجارة العامة، وأنا أتعامل في جميع السلع لأن شركتي شركة كبيرة لها فروع في الهند وبلاد فارس ونجد. ولتعلم أنني جئت إلى الحلة بحثًا عن تاجر أمين ومعروف للعمل كوكيل لي لأتعامل بمختلف الأعمال التجارية في هذه المدينة. لذلك فقد طلبت من كبار التجار وأصحاب البنوك في بغداد أن يزودوني بأسماء تجار الحلة من الذين يمكن الاعتماد عليهم في التعاملات، وأبلغوني باسم حضرتكم وحضرة أخينا عباس علي القصاب. ولكنهم قالوا عن الأخير أن الماء يسقط من أنفه كما يفعل المطر بسعف أشجار النخيل وأنه يصبغ لحيته ليغطي الشيب فيها، مع أن الشيب يعتبر وقارا وشرفا للرجل، والرجل الذي يزوّر لحيته يمكن أيضًا أن يزوّر الحسابات وبالتالي فإنني أرغب في التعامل معك أنت فقط.

وانتابت رشيد سعادة غامرة وهو يستمع إلى كلمات التاجر الثري وأطرق يفكّر: لم أعرف أن كبار تجار بغداد يعرفون اسمي إطلاقا. وأنهم يعرفون أنني أمين، هذه بالفعل مكافأة للسنوات العديدة من ممارستي لتجارتي البسيطة بشرف وأمانة. يا لعظمة هؤلاء التجار الأقوياء! كيف عرفوا أن عباس علي القصاب يصبغ لحيته وأن أنفه يسيل مثل سعف النخيل في المطر؟ وامتلأ قلب رشيد بالفرح والسرور لأنه تحققت له مؤخرا فرصة ممارسة أنشطة تجارية على مستوى أوسع، فقال موجها حديثه إلى التاجر الثري: إنني مستعد لعمل أي شيء ترغب فيه وإن أوامرك أعز علي من عيني. هل تسمح لي أن أعرف اسمك.

رد خاتم وهو متخفٍ برداء التاجر الثري: سامحني كنت أعتقد أنك عرفت وجهي لأنه وجه معروف في أسواق بغداد والبصرة والموصل والهند، اسمي عبد الحميد الأطرقشي، وعنواني هو مدينة البصرة في سوق أم البروم في خان الهندي، ستجدني هناك. ويعلم خاتم أن إرسال رسالة خطية سيستغرق أسبوعين حتى تصل إلى البصرة وأسبوعين آخرين للرد عليها. لم يتعرف رشيد على اسم عبد الحميد الاطرقشي، لكنه فكر: لا يجب أن أظهر نفسي كرجل غير متمدن أمام هذا التاجر المرموق لذلك فإنه قال: اسمك اسم معروف، وأنا أتشرف بأنك زرتني، ولكن ما طبيعة تجارتك يا سيدي؟

أجاب خاتم: رجاء أن تجعل وجودي هنا سريًا تمامًا؛ لأنه إذا سمع التجار باسمي وعلموا أنني هنا قادم للشراء فأن الأسعار سترتفع إلى مئة ضعف.

لتعلم أنني آت هنا لشراء ألف حصان وألف مهرة من أجود سلالات الخيول العربية، وسوف اجلبها إلى البصرة حيث تكون أسعارها مرتفعة جدًا. إن الخيول تشحن من البصرة وتصدر إلى الهند حيث يستخدمها الضباط البريطانيون لمحاربة الهنود من سيخ وهندوس للاستيلاء على بلادهم. ويدفع البريطانيون أسعارًا ضخمة ثمنًا للحصان أو المهرة الجيدة. كل ما اطلبه منك هو أن تقوم أنت بعملية الشراء لأنني لا أرغب في أن أظهر شخصيا في سوق الخيول حتى لا أكون سببا في رفع الأسعار، وبعد ذلك أجلب الخيول إلى البصرة وأرسل إليك حوالة مالية إلى بغداد وستتقاسم الأرباح مناصفة.

فكر رشيد وتحدث إلى التاجر الثري: أعلم أن سعر الخيول أعلى كثيرًا في البصرة منه في الحلة، ولكن كم عدد الخيول التي ستصل البصرة ؟إن الطريق إلى البصرة يمر عبر منطقة القبائل الكبرى، وإن رجال هذه القبائل يحبون الخيول وسيعترضون طريقك ويسلبون الخيل إما بالقوة في وضح النهار أو يتسللون إلى مخيمك ليلا ويسرقون ما يمكن سرقته.

رد خاتم بكل ثقة واقتدار: سأتحمل هذه المخاطر. أنت تكون شريكي في الربح فقط أما الخسارة فسأتحملها لوحدي، ماهي تكلفة ألفي حصان لنا. أتوقع أنها لن تزيد عن عشرين ألف ليرة ذهبية. إنني مقامر وقد خسرت أو ربحت أكثر من هذا المبلغ في ليلة واحدة.

تركت كلمات التاجر الثري انطباعا قويا على تفكير رشيد وأخذ يفكر: إذا وصلت الخيول إلى البصرة فإن الربح سيكون هائلًا، وإذا فُقدتْ أو

سرقت الخيول وهي في الطريق وهذا من المرجح جدًا فإن عبد الحميد الأطرقشي سيرسل إلى الأموال التي ادفعها إلى تجار الخيول ولن أتحمل شيئا من الخسارة وفكر.أنا الآن سأصبح تاجرًا كبيرًا؛ فبدلا من شراء الملابس من تجار بغداد بخمسين ليرة ذهبية وأدفع لهم نقدًا ويستغرق مني بيعها شهرا كاملا واربح من هذه العملية فقط سبع ليرات ذهبية، الآن اشتري الخيول بثمن عشرين ألف ليرة وادفع ثمنها لاحقا أي بعد بيعها وإذا حققت ربحا فأنه سيكون ربحا هائلًا وإذا حدثت خسارة فسيتحملها عبد الحميد الأطرقشي؛ لذا فقد وافق رشيد على طلب خاتم.

أرسل رشيد الصبي الذي يعمل معه في الدكان ليخبر مالكي الخيول الراغبين في بيعها إلى جلب خيولهم إلى دكان رشيد. وبدأ تجار الخيول الكبار في إحضار الخيول والأمهار إلى الدكان وأخفى خاتم نفسه في الدكان وعندما يعطي إشارة لرشيد يقوم بالشراء وعندما لا يفعل ذلك لا تتم عملية شراء. ويعرف خاتم الكثيرعن أصول الخيول من خلال معرفته بمالكيها؛ لأن غالبيتهم من قبيلة آل فتله، والبعض من قبيلة شمر وقبيلة دليم.وبناء على تعليمات خاتم أرسل رشيد رسالة يطلب فيها ثلاثمئة رجل من آل فتلة للعناية بالخيول والعمل كسياس بأجر قدره ليرة ذهبية واحدة لكل رجل في الشهر.

وفي ذلك اليوم الذي جمع فيه رشيد الخيول أعتقد التجار أنه مجنون، ودار نقاش بين تجار الخيول وأخذوا يتساءلون: هل يملك رشيد أموالًا

كثيرة لتسديد أثمان هذه الخيول؟ وقالوا: كان يمارس التجارة هنا على مدى خمس وعشرين عامًا ولم يغش أحدًا في سنتيمتر واحد من القماش، وكان على الدوام محل ثقة من رجال القبائل، وعرف بسلوكه المشرف. ولكن الأكثر حذرًا بينهم قال. دعنا نضع رَجُلَيْن لمراقبة رشيد ليلا ونهارًا، وإذا ما حاول أن يترك الحلة قبل أن يسدد أثمان الخيول فسيكون الموت مصيره، ووافق الآخرون على هذا الإجراء.

وعندما أتم رشيد شراء الألفي حصان ومهرة توقف عن شراء الخيول. وطلب خاتم من رشيد أن يعد الطعام للسياس والأعلاف للخيول للرحلة المرتقبة إلى البصرة وهذه المصاريف ستدفع لاحقا إلى رشيد. وبعد ذلك وفقًا لتعليمات خاتم أبلغ رشيد السياس بسَوْق الخيول وبدء المسيرة في طريقهم إلى البصرة في فجر اليوم التالي وابلغهم بأن قائد القافلة سيقابلهم في الطريق.

وبعد الانتهاء من عملية شراء الخيول وترتيبات التموين جلس خاتم ورشيد في الدكان وشربا الشاي، وأخذ رشيد يفكر باندهاش وتعجب قائلا: عند شروق شمس هذا الصباح لم أكن مدانًا بعملة نحاس واحدة لأي رجل. والآن أصبحت مدانا باثنتين وعشرين ألفا واربعمئة وأثنتي عشرة ليرة من الذهب، وأصبحت أدير شؤون التجارة على مجال واسع. أما خاتم فإنه كان يفكر في سلمى عندما رآها تسبح في النهر ويفكر في الفراشة وقال: يا أخي كم أنا مسرور بشراكتنا وتعاوننا. وكم تمنيت أن لي

بنتا لزوجتها لك لتمتين علاقاتنا مع بعض أكثر من العلاقة التجارية، كما أتمني لو أن لك ابنة يمكنني أن اتزوجها لأني في حاجة إلى زوجة.

قال رشيد: لدي بالفعل ابنة في سن الزواج وقد كنت في الواقع على وشك أن أزوجها لأحد تجارنا المحليين غير المعروفين، ولهذا أردت أن أزوجها إلى الزميل عباس علي القصاب الذي أشرت إليه سابقا والذي يصبغ لحيته وينزف أنفه مثل تساقط المطر على سعف النخيل ولكن إذا كنت ترغب فيها فسأزوجها لك، ويمكن أن تستمر شاركتنا.

وأجاب خاتم: إنني أقبلها كزوجة ولكن دعني أولًا أذهب إلى البصرة وأبيع الخيول وانهي بعض الترتيبات لتجارتي، سأرحل غدًا فجرًا، والزواج سيستغرق فترة طويلة. إن كل يوم نتأخر فيه يؤدي إلى الانتقاص من أرباحنا لأننا يجب أن نقدم الأعلاف للخيول والطعام والأجر للسياس. وكانت رغبة رشيد شديدة في إتمام الزواج لأنه فكر: ربما عندما يعود هذا التاجر الكبير إلى البصرة سيغير رأيه؛ ومن الحكمة أن أوثق عرى علاقتي به بعلاقة الزواج أكثر من علاقة التجارة، فإذا نسي أو فشل في أن يرسل لي الأثنتين وعشرين ألفا واربعمئة واثنتي عشرة ليرة ذهبية، فإن تجار هذه الخيول سيمزقون جسمي إربا إربا، ولكن إذا زوجته عزيزتي المحبوبة سلمى فإنها يمكن أن تذهب معه وتذكره بأن يرسل الأموال.

وقال: إن مراسم الزفاف الرسمي تستغرق وقتا ولكن لي أصدقاء من العلماء سيوثقون الزواج وكما تعرف للضرورة أحكام، واعتقد أنني

يمكن أن ارتب لك الزواج منها هذه الليلة والصعوبة الوحيدة المتوقعة هي أن الفتاة قد لا تقبل الزواج وترفض بشدة كعادة الشباب وحماقتهم، ولكنني سأقول لها على الأقل أن أنفك لا ينزف مثل مطر على سعف النخيل ووافق خاتم وقال: فلنجعل الزواج الليلة ولا داعي للاحتفالات والرسميات وبالنسبة للفتاة قل لها: أن أنفي لا ينزف، وأنني محب للفن والأشياء الجميلة مثل الفراشات. وكان خاتم يعرف أن أم سلمى لم تبلغ رشيد مطلقًا بوشم الفراشة الذي بجسم الابنة لأنه لا يرى أهمية له.

ذهب رشيد إلى بيته ليخبر زوجته وابنته بالأخبار السارة وأرسل صبي الدكان لعمل ترتيبات الزفاف، وقال لابنته سلمى: أيتها الفتاة العزيزة كم أنتِ محظوظة، سأزوجك الليلة إلى تاجر ثري، اسمه عبد الحميد الأطرقشي وهو غني جدًا حتى أن عشرين ألف ليرة ذهبية لا تعني له شيئا. ولكن سلمى ألقت بنفسها على الأرض وهي تبكي بكاء مريرا، وفكرت:إن خاتم سيقدم على قتل عباس علي القصاب، وتساءلت: ولكنه لا يعلم عن التهديد الجديد ولا يمكنني أن أراه الليلة.

وقال رشيد: لا تبكين يا ابنتي لأنه شاب وسيم، وأنفه جاف مثل الصحراء في نهاية الصيف، ويقول لي أنه محب للأشياء الجميلة مثل الفراشات. وسرعان ما جفت عيون سلمى عندما سمعت كلمات أبيها لأنها فكرت: لا أحد يعرف شيء عن هذه الفراشة في العالم كله إلا أمي وخاتم فقط. لا بد أن هذه إشارة من خاتم. وفكر أبوها: لماذا تكره ابنتي الصغيرة الأنف الذي

ينزف؟ ولماذا بدت علامات الفرح على وجهها؟ وعينها مثل عيني غزال بين أزهار الصحراء في الربيع. وطغت مشاعر الفرح والسرور على رشيد لأنه يحب ابنته حبا لا حدود له.

وذهب خاتم هذه الليلة إلى منزل رشيد واصطحب الفتاة سلمى زوجة له من بيت والدها إلى بيت شعر في مضارب العرب لأنه لم يكن لديه مسكن آخر. وفي الصباح شرعا في الرحيل وركب كل منهما حصانا من التي تم شراؤها رغم أن سلمى لم تركب حصانا مطلقًا من قبل لأنها من بنات الأرياف وتتندر بنات العرب[البدو] على بنات المدن بأنهن لا يميزن الفرق بين الحصان والجاموس.

وفي الطريق قابل رجال قبيلة آل فتلة الذين يعملون كسياس للخيل الألفي حصان ومهرة. وكان خاتم لا يزال يرتدي ملابس التاجر الثري ولكنه خلع لحيته وسألهم قائلا: ألا تعرفون وجهي؟ فقالوا: ألست خاتم بن قيس؟ من أين لك هذه الملابس؟ ورد خاتم: ليعلم كل منكم إنني الآن أصبحت غنيا وهذه الخيول خيولي، وتزوجت فتاة جميلة. وقالوا: يا خاتم، تتزوج ولا تدعونا إلى حفلة زواجك ولم نتناول طعاما بهذه المناسبة حتى وإن كان رجل عصفور؟ وأجاب خاتم: يجب أن تكونوا ضيوفي عندما نصل إلى البصرة وعندما نصل بهذه الخيول إلى هناك بأمان فأنني سوف أكافئكم.. قال بعضهم: كم عدد هذه الخيول التي تصل إلى البصرة؟ سندهش إذا وصلت شعرة واحدة من أذن المهرة في أمان، ألا تعرف كم عدد القبائل التي

سنعبر أراضيها في طريقنا وجميعها تحب الخيول. وأجاب خاتم: ضعوا هذه الأفكار جانبا وإنني حريص أن كل حصان وكل مهرة يجب أن تصل بأمان. وقالوا: ولكن كيف يمكن أن يتم هذا؟

قام خاتم بالمناداة بأسماء عشرين رجلا ممن يعرفهم جيدا ويتصفون بالذكاء وأمرهم قائلا: لتمتطوا الجياد وتسبقوننا وتذهبوا لكل شيخ قبيلة في طريقنا وبعد أن تلقوا عليه السلام أخبروه بأن مرضا أصاب خيولنا وأنه يَنْفَق منها خمسون كل يوم ولكننا الآن نحاول نرسل ألفين منها إلى البحر على أمل أن الاستحمام في المياه المالحة يحسن حالتها ويعالج المرض ويشفيه؛ إلا إننا لسنا متفائلين ونتوقع نفوق نصفها قبل أن تصل البحر. ونحذركم أيها الشيوخ النبلاء أن تبعدوا حيواناتكم عن طريق البصرة حتى لا يلحق بها المرض ونحن من جانبنا سوف نبعد الخيول عن حيواناتكم ولن نقترب من أي بئر تَرِدون إليه. وركب الرجال لتنفيذ أمر خاتم.

ركب الرسل وذهبوا إلى دار ضيافة جميع شيوخ القبائل في الطريق إلى البصرة وأخبروهم عن فحوى رسالة خاتم. وغضب العديد من الشيوخ قائلين: لن نسمح لكم أن تدخلوا مناطق قبيلتنا خشية أن تنتشر عدوى المرض بين حيواناتنا. لكن الرسل قالوا: إذا اعترضتم طريقنا فسنتحارب معكم ونحن على ظهور خيولنا فلن تأمنوا عدوى المرض. لذلك فقد أمر الشيوخ قبائلهم بالابتعاد عن طريق خيول آل فتلة.

وهكذا أوتت مهمة الرسل ثمارها وأكمل خاتم مسيرته إلى البصرة واستغرقت رحلته سبع ليال خيم خلالها بعيدا عن القبائل ومواردها (آبارها) في بيت شعر مع سلمى والتي علمها عادات القبيلة.

وفي صبيحة اليوم الثامن رأوا البصرة أمامهم ولم يفقدوا حصانا واحدا. وجلب خاتم قافلة خيوله إلى أن وقف على سور المدينة استعدادا لدخولها..خرج عليهم ضابط تركي وأمرهم قائلا: ابعدوا من هنا لأننا سمعنا أن خيولكم مصابة بمرض. وعرض خاتم على الضابط الخيول ورأى أنها كانت جميعا سليمة، وبعد ذلك قدم خاتم عشرة خيول كهدية للضابط فسمح له بدخول المدينة.

وفي البصرة كانت أسعار الخيول ثلاثة أضعاف سعرها في الحلة. ومنح خاتم كل رجل من آل فتلة حصانا واحدا ليبيعه ويقبض ثمنه. وقد حصل على ثمن شراء الخيول وهو مبلغ أثنتين وعشرين ألفا واربعمئة وأثنتي عشرة ليرة من الذهب، بالإضافة إلى تحقيقه ربحا قدره ثمان وعشرون ألف ليرة من ذهب. وقسم الربح مناصفة بينه وبين رشيد فأخذ أربعة عشر ألف ليرة من الذهب وأحتفظ لرشيد بمبلغ مماثل إضافة إلى المبلغ الذي كان يدين به لرشيد. واشترى من حصته الخاصة منزلا في البصرة واشترى لزوجته أواني طهي نحاسية وأسورة ذهبية وخلاخيل من الفضة وخادمة حتى لا يمكن أن تجلب هي الماء من النهر. ومكث خاتم في البصرة بعض الوقت أمضاه في فرح غامر وحب وسعادة.

في الحلة جلس رشيد في دكانه والخوف مسيطر عليه وفكره مشتت يتساءل: متى سيأتي شريكي في التجارة؟ ومتى سيرسل المال؟ لأنه رأى رجال القبيلة الذين أرسلهم تجار الخيل كانوا يراقبونه عن قرب وأينما يذهب يلاحقونه. وفي أحد الأيام جاء إلى الحلة تاجر ثري من البصرة وذهب إليه رشيد وسأله: هل هناك أخبار عن تاجر البصرة عبد الحميد الأطرقشي؟ هل هو بصحة جيدة؟ ورد التاجر: هذا الاسم غير معروف هناك. وكاد يتوقف قلب رشيد من الهلع والخوف وقال: أليس هو تاجر ثري في خان الهندي؟ وأجاب التاجر: إن دكاني في خان الهندي ولا أعرف اسمه. وبعدها جن جنون رشيد وجلس في دكانه، وخارت قواه ولم يقم بعمل أي شيء، وأخذ يعصر يديه مثلما يعصر الغسال الملابس، وتجار الخيول ينتظرون أموالهم.

وفي أحد الأيام قال خاتم لزوجته سلمى: يجب أن أذهب الآن إلى الحلة وأسدّد الأموال التي أدين بها لوالدك. وذهب خاتم إلى مصرف في البصرة وأودع أربعين ألفا واربعمائة واثنتي عشرة ليرة ذهبية لكي ترسل لرشيد عبد المجيد وطلب من المصرف أن يصدر حوالة مالية مسحوبة على بغداد مقابل هذا المبلغ لصالح رشيد عبد المجيد. وبعد ذلك امتطى صهوة جواده إلى الحلة وقبل أن يدخل المدينة ارتدى لحية صوف الأغنام وأصبح مثل عبد الحميد الأطرقشي التاجر الثري وذهب إلى دكان رشيد.

وعندما رآه رشيد خرج من الدكان لملاقاته وكان يشتاط غضبا فهاجمه بعبارات من الشتم واللعن واستخدم كلمات بذيئة يمنعني الذوق والأدب من ذكرها فهرب عبد الحميد. وحاول رشيد أن يلحقه ويمسك به ولكنه كان رجلًا عجوزًا لا يستطيع الإمساك به وامتطى خاتم جواده مفكرًا: ما هذا الاستقبال الرائع من نسيبي أو صهري؟! سوف ألقنه درسًا لن ينساه.

قام خاتم بخلع لحيته وشماغه وحذائه ومعطفه والملابس الفاخرة ودخل المدينة مشيا على الأقدام مرتديًا ثوبا ممزقا، وذهب إلى دكان رشيد وقال: خذ ليرات الذهب ورد إلى رهني. وتذكر رشيد الشاب الذي أخذ ليرات الذهب والملابس مقابل التعهد بشعرة من شاربه. أخذ المال منه وفتح صندوق الرهونات وبحث عن الشعرة بين الملابس وعُقل الإبل والشماغات والخواتم ولكنه لم يجد شعرة شارب خاتم، ولم تكن سوى شعرة صغيرة قد تكون علقت بشماغ أخرج من الصندوق. فقال لخاتم: لقد فقدت الرهن وهو كما تعرف لا قيمة له. ورد خاتم متسائلا: هل شعر شاربي شيء لا قيمة له.إن لم تسلم لي هذه الشعرة فستفقد حياتك لأن هذه الشعرة تمثل شرفي. وصب خاتم جام غضبه على رشيد وهاجمه بسيل من عبارات السب والشتم القاسية على غرار عبارات سب رشيد لعبد الحميد الأطرقشي.

وبعد أن أشبع خاتم رشيدًا بعبارات الشتم أخرج من جيبه شيك بحوالة مالية بمبلغ أربعين ألفا واربعمئة واثنتي عشرة ليرة من الذهب وأعطاها

لرشيد وقال: لتعلم أنني نسيبك ولم يكن عبد الحميد الأطرقشي سوى حلم. وتفحص رشيد الشيك ووجده حقيقيا وشعر بفرح شديد وسعادة غامرة.

وعاد خاتم إلى البصرة، وهو في الطريق هطلت أمطار غزيرة منذرة بدخول فصل شتاء بارد، وابتلت ملابس خاتم وكان يرتجف من البرد. وعندما دخل منزله في البصرة وحيّا زوجته سلمى كان أنفه ينزف مثل سعف النخيل في المطر، ولما رأته سلمى انفجرت ضاحكة ولم تبدِ استياءها.

حكاية خالد النحاس

راوي هذه الحكاية هو محمد حسن

ذات مرة أيام حكم الأتراك للعراق، كان هناك نحاس في البصرة اسمه خالد، ولد في الناصرية وعاش فيها حتى سن السادسة عشرة من عمره. وعندما توفي والده انتقل هو وأمه إلى البصرة وعمل نحاسا في سوق أم البروم ليكسب قوت يومه. وكان المبلغ الذي يحصل عليه كل شهر من مالك ورشة النحاس بالكاد يكفي لمصاريف الطعام وملابسه وملابس أمه وإيجار المنزل. ولم يستطع أن يدخر أموالا لشراء دكان خاص به أو يتزوج. وعاش خالد وأمه في بيت فقير وكانت أمه تقوم بكل أعمال المنزل من طهي وغيره.

وجاء اليوم الذي مرضت فيه أم خالد وماتت، وأصبح وحيدًا في المنزل ولا أحد يقوم له بأعمال المنزل كالطبخ. ويذهب خالد إلى العمل من شروق الشمس ولا يعود إلا حين غروبها فليس لديه متسع من

الوقت للذهاب إلى السوق لشراء الخضروات واللحوم ولا طهي طعامه، ففكر:بما أن ما أكسبه من مال لا يكفي لاستخدام خادمة فإنه من الضروري أن أبحث عن زوجة. ولكن متطلبات المرأة من الرجل كزوج لها أن يكون غنيا وصاحب منصب رفيع. وأنا لا أملك إلا القليل من المال، لماذا لا أبحث عن امرأة لا يحب الاقتران بها الرجال لأسباب معينة، ويكون مهرها رخيصا وقد لا تلبي جميع متطلبات الرجل للزواج منها إلا أنها تقوم بشراء المؤن من السوق، وتطبخ الطعام، وتنظف المنزل.

ذهب خالد إلى امرأة حكيمة تقوم بدور وسيط زواج (خطّابة).قال لها: لتعلمي أن دخلي ضئيل وليس لدي رأسمال، وأرغب في الزواج، ابحثي لي عن امرأة لا يطلب والدها مهرا أكثر من ليرة ذهب واحدة، ولا أمانع إن كانت عرجاء أو عوراء، ولكن يجب أن تعرف طهي الطعام. وأجابت المرأة الحكيمة قائلة.إنني أعرف هذه المرأة، ووالدها لا يطلب مهرا سوى كيس من تمر، إنها ممشوقة القوام، وقمرية الوجه، وتقرض الشعر، وأما الطبخ فهي طاهية ماهرة.

وسأل خالد الخطّابة قائلا: إذا كانت حقا كما تصفينها فلماذا طلب والدها كيس تمر مهرا لها.ربما سمعتها على غير ما يرام، وإن كانت كذلك فأنا لا أريدها. ولكن المرأة قالت: إذا لم تكن عذراء أعدها إلى والدها، إنها شريفة عفيفة، وبالنسبة لسبب طلب والدها كيس التمر فإن الفتاة حادة الطباع كالمهرة الجامحة وقد تزوج والدها مؤخرًا زوجة بنفس سنها،

فأخذت تضرب زوجة أبيها الجديدة وتعذبها دون رحمة، وأصبح الشجار يدور في بيته على الدوام. لن يمانع والدها من أن تتزوجها ـ واسمها «خليلة» ـ لكنها تحتاج إلى يد قوية تمسك بلجامها. وكان خالد سعيدًا بأنه سيتزوج من زوجة جميلة الوجه والقوام ولذلك قال للمرأة الخطابة: إنني موافق على الزواج بها، وعندما أتزوج هذه الفتاة يتوجب علي أن أسيطر عليها ولا تثنيني طباعها الحادة فأنا رجل وما هي سوى امرأة.

وهكذا تمت ترتيبات الزواج، إذ جلس خالد في منزله وذهب أصدقاؤه إلى بيت الفتاة خليلة لزفافها عليه. وأمضى خالد ليلته بفرح وسرور مع عروسه ذات الوجه الجميل والقوام الرشيق.وأخذ يفكر: أنا لست سوى نحاسًا فقيرًا ورغم ذلك تزوجت امرأة تصلح زوجة للسلطان. وبعد مضي أيام قليلة من شهر العسل أيقظت خليلة خالدا عند شروق الشمس وقالت له: انهض واذهب إلى عملك. وكانت القذارة تغطي البيت فهو بحاجة إلى عناية.تنظيف وترتيب. ونهض خالد وذهب إلى عمله.

وعند مغيب الشمس أغلق النحاسون في سوق أم البروم محلاتهم وسمح صاحب المحل لخالد بالخروج من المحل والعودة إلى منزله. وعندما دخل خالد منزله أخذ يفرك عينيه معتقدا أنه في حلم، وأن ما تراه عيناه ليس حقيقيا: لقد رأى بيته مزينًا بأفضل وأجمل أنواع السجادات المصنوعة من الحرير التي لا تقل أسعارها عن مئة ليرة من الذهب، وهناك

كراسي وموائد مصنوعة من أجود أنواع الأخشاب، وعلى الموائد أطباق ومزهريات من الفضة. وجد خالد أن أثاث بيته يفوق أثاث بيت أغنى تاجر في البصرة، وكان مذهولًا مما رأى.

قال لزوجته خليلة: من أين لك هذه الثروة؟ وأجابت قائلة: هل تعتقد إنني سأعيش في كهف من طين أرضيته غير مفروشة، وكراسيه وموائده من الجريد الأبيض، وأوانيه من الفخار؟ أنا من عائلة راقية وأحتاج إلى أشياء راقية وجميلة، لذا اشتريت هذه الأشياء البسيطة التي نحتاجها قيدا على حسابك وبضمان تسديدك قيمتها لاحقا، وأود أن أفيدك بأنني واجهت بعض الصعوبات أثناء شرائها مثل تلكؤ بعض التجار عن البيع لأنهم يشكون في قدرتك على التسديد.

استشاط خالد غضبًا وقال: ماذا فعلتِ أيتها المرأة؟ خمسون سنة ستستغرق مني لدفع ثمن هذا الأثاث الذي اشتريتيه! فردت: وهل تريدني أن أعيش في هذه القذارة؟ ألست رجلًا يجب عليك تحمل مصاريف البيت؟

وازداد غضب خالد، وفكر في أن يضرب زوجته، وأخذ عصا وضربها بعض الضربات، ولكن سرعان ما أمسكت بيده وعضت ساعده وغرزت أسنانها حتى العظم، واتضح لخالد شراسة زوجته وتحولها إلى مهرة جامحة.

وامضيا ليلتهما في عراك وشجار، وفي الصباح كانت الخدوش تغطي

وجه خالد من أظافر زوجته، وكان ظهر خليلة ينزف دما وهالتين سوداوين حول عينيها من الضرب وظلت خليلة في سريرها ورفضت أن تعد الإفطار لخالد، فذهب إلى عمله جائعًا دون تناول فطوره أو حتى تناول رشفة من كوب شاي.

جلس خالد في ورشة النحاس وقام بعمل الأواني النحاسية حسب أوامر سيده وكان قلبه مليئًا بالحزن والأسى وفكر قائلا: كان من الأفضل ألا أتزوج هذه الفتاة لأنني الآن مدين بمئات من الليرات الذهبية بينما لم أكن مدينًا ولو بدرهم واحد قبل الزواج، ولن تقوم بإعداد الوجبات الغذائية لي لأنها سيدة رقيقة. وعند غروب الشمس ذهب إلى سيدة حكيمة لاستشارتها وقال لها: إن حالتي كذا وكذا فكيف أروّض زوجتي وأجعلها تطيعني؟

وفكرت المرأة كثيرًا وسألت خالد عما حدث بينه وبين زوجته من شجار؛ لأنها خبيرة في هذه الأمور وقالت: عندما تذهب إلى بيتك يجب أن تبتعد عن زوجتك وتبقى بعيدًا عنها لعدة أيام، ويجب أن ترتب لك زواجا من زوجة أخرى، وأعدك بأنها ستعود إلى رشدها وتطيعك قبل أن يتم الزواج.

عاد خالد إلى منزله، وعند دخوله المنزل لم يحي زوجته وبدلًا من ذلك جذب السجادة بيده وقال: يا سجادتي المحبوبة ما أجملك! كم أنتِ رائعة. يا لجمال حريرك! ما أجمل ألوانك التي تبعث البهجة والسرور في من

يراك. إن الجمال سمة السجاد فقط وليس للمرأة، إن سمات النساء جميعًا متطابقة: لهن شعر أسود مثل سيقان العنكبوت، وعيون تشبه عيون الكلب، وفم يشبه فم القرد، وصدر يشبه ضرع الجاموس، وجلد بلون الطين. كيف إذن يحب الرجل امرأة؟ ولكنك أنتِ يا سجادتي العزيزة ألوانك متعددة تبعث في النفس البهجة: حمراء كالوردة.وزرقاء كسماء الصباح، وخضراء كالعشب، وصفراء كلمعان الذهب، ولديكِ سمات مميزة أخرى كسمة الصمت الثمينة.كما أنكِ لا تتحدثين بصوت حاد مرتفع كأصوات القطط عندما ينشب بينها عراك تحت ضوء القمر. وكل ليلة يقوم خالد بلف السجادة وأخذها معه إلى السرير ولا يتحدث إلى زوجته، أما بالنسبة إلى خليلة فقد فكرت قائلة: كم أنا تعيسة! كيف تزوجت هذا المجنون؟

وعلم أن في تلك الأيام تم تحذير حاكم البصرة التركي من قدوم مفتش من بغداد يجمع معلومات عنه ويكتب تقريرا إلى رؤسائه. فقد كان هذا الحاكم يستولي على ثلاثة أرباع إيرادات البصرة لنفسه ولمصاريف منزله والجزء المتبقي يرسله إلى بغداد قائلًا: إن البصرة مدينة فقيرة مداخيلها المالية ضئيلة.

وفي أحد الأيام تلقى الحاكم خطابًا من أحد جواسيسه في بغداد وكان نص الخطاب كما يلي:

أيها الحاكم المبجل والمحترم أعلم من خلال تحرياتي السرية اكتشفت أنه تم إرسال جاسوس إلى البصرة وطلب منه كتابة تقرير عن إدارتك وعن

إيرادات المدينة. ولا أعرف اسم هذا المفتش وحتى إذا عرفت اسمه لن يجدي نفعا؛ لأنه يمكن أن يغيره.يقال إنه رجل من ذلك النوع الذي يغير طبيعته فيعمل كحرفي أو حداد، وسأكون من حراسك ضد هذا الرجل الخطير.

وبعد أن قرأ الحاكم الخطاب شحب وجهه وأرسل جواسيسه الكثر في مدينة البصرة ليبلغوه ليخفى ثروته عنهم وقال.إذهبوا إلى الأسواق وقوموا بعمل جميع التحريات الخاصة بالحدادين والحرفيين في المدينة، وابحثوا عن رجل غريب.

خرج الجواسيس والعملاء لتنفيذ أوامر سيدهم الحاكم.قاموا بعمل التحريات في أسواق ومقاهي المدينة وعادوا وكتبوا التقرير إلى سيدهم وقالوا.لقد قمنا بالتحري عن كثب فيما يتعلق بكل حداد وكل حرفي في المدينة.وجدنا أحدهم يقول أنه آت من الناصرية واسمه خالد ولكن هذه المعلومات قد تكون كاذبة وبلا شك فإنه خلاف ما يظهر لنا لأنه على الرغم من أنه فقط نحاس فقير يكسب أقل من ليرة ذهبية واحدة شهريًا إلا أن منزله مجهز بأفخر الأثاث الذي تزيد أثمانه عن أثاث قصرك، وزوجته تذهب إلى السوق وتشتري السجاد الحريري والأواني الذهبية التي تساوي مئات الليرات من الذهب دون التفكير في السعر.

وطلب الحاكم من جواسيسه الانصراف، وفكر بينه وبين نفسه.أخذ كيس الذهب واستعمله لمصروفه الخاص وأساء توزيع الأموال لأغراضه

الخاصة وأرسل الحاكم إلى سكرتيره الأمين وقال له: الموقف كذا وكذا لنقتل هذا الرجل الخطير. لكن السكرتير فكر وتأمل طويلا في الأمر وقال: إن قتله يعد حماقة لأنه يمكن أن يأتي جاسوس آخر مكانه. وللحكومة العديد من الأيدي والعديد من الأعين، دعنا نغوي هذا الرجل إلى جانبنا. يقال أن قلب الرجل يستمال إما بالمرأة أو بالذهب. ووافق الحاكم على ما قاله سكرتيره.

وفي اليوم التالي ذهب سكرتير الحاكم إلى سوق النحاسين إلى الورشة التي يعمل بها خالد وكان سيد الورشة سعيدًا بزائره المتميز. طلب له كوب شاي من المقهى، ولكن السكرتير لم يتحدث إلى مالك الورشة واتجه إلى خالد واختبر وعاء النحاس الذي كان يصنعه وقال: هذا أفضل عامل في البصرة، وفكر صاحب الورشة: هل انجذب سكرتير الحاكم لأعين خالد لأن هذا الوعاء ليس أفضل ولا أسوأ من مئات الأوعية الأخرى في السوق.

وبعد ذلك تحدث السكرتير وقال: ليكن في علمك إن سيدي الحاكم مهتم برعاية أهل البصرة ورفاهيتهم وهو محب للأشياء الفنية والجميلة، وسمع أن بعض الأواني النحاسية في منازل سكان البصرة تفتقد إلى الجمال والعمالة الماهرة، وبالتالي فقد أمرني أن أجد أمهر نحاس في البصرة يمكن تعيينه مشرفًا على النحاسين وبعد التحريات اللازمة وجدت أنك الأفضل، وبالتالي فإنني أعينك مفتشًا على النحاسين بمرتب قدره مئة ليرة ذهبية كل

شهر ومهمتك ستكون اختبار وترخيص نحاسي البصرة ويمكن أن تحدد الرسوم التي تراها مناسبة لهم.

سمع خالد كلمات السكرتير وخفق قلبه فرحا، أما صاحب الورشة فقد فكر: اعلم أن خالدًا شاب وسيم، ولكنني لم أفكر مطلقًا أن يعشقه سكرتير الحاكم لأن مهارته في العمل ليست على ما يرام.

شكر خالد سكرتير الحاكم وغادر الورشة وذهب إلى منزله لكي يخبر زوجته بأن ينقل أثاث منزله من البيت الطيني إلى بيت من الرخام والأحجار الكريمة. ودخل خالد منزله وقال لزوجته: اجمعي السجاد والأثاث لكي ننتقل إلى القصر المناسب لنا.

سمعت خليلة كلمات زوجها وقلبها مليء بالأسى وفكرت: لقد جعلت هذا الرجل الفقير مجنونًا، إنه مجرد نحاس فقير غير قادر على جمع المال لسد حاجيات هذا البيت ورغم ذلك فإنه يتحدث عن الانتقال إلى قصر فخم. يا لحظي التعيس! إذا طلقني فمن سيتزوج امرأة مطلقة؟ يبدو إنني سأقضي حياتي متزوجة من رجل مجنون، ولن أذوق مطلقًا طعم السعادة.

ألقت خليلة بنفسها تحت أقدام زوجها وأرتعش جسمها وقالت وهي باكية: يا زوجي العزيز كن كما كنت ليلة زفافنا، وخذ العصا واضربني كما تريد لأنني أستحق الضرب، وفكر خالد: إنها تستحق الضرب بالفعل وإذا فعلت ذلك فإنها ستكون مطيعة لي في المستقبل، لذلك أخذ العصا وضرب زوجته إلى أن نزفت دما ولم تقاومه.

وأخذ زوجته وانتقل إلى منزل جميل وأمضى عدة سنوات في مرح وسعادة وحب عارم لزوجته وحصل على وظيفة مرموقة ومنصب متميز. وأحبته خليلة حبا عارما وأصبحت مطيعة له بكل شيء. وكان حاكم البصرة سعيدًا لأنه اعتقد أنه أغوى الجاسوس القادم من بغداد. وكان الجاسوس الحقيقي قد اغتاله اللصوص وهو في طريقه إلى البصرة وأخذوا منه كيس الذهب ولم ترسل الحكومة جاسوسا آخر مكانه.

حكاية ابن الحاج

يحكى أنه في سالف الأيام وسابق العصر والأوان رجل غني إقطاعي له أملاك كثيرة من عقارات وأراضٍ زراعية شاسعة. وكان شيوخ العرب والبدو يدفعون له الضرائب والإتاوات، وكان تقيا يعبد الله خير عبادته.

كان اسمه حسن وكان لديه زوجة شابة في جمال القمر، وكان له عبد مخلص ترعرع معه منذ صباه اسمه أحمد. وكان أحمد مخلصًا لسيده يطيعه في كل شيء. وفي إحدى السنوات أصدر السلطان أمرًا بتعيين حسن أميرًا على القافلة التي كانت متجه إلى الحج. وكانت زوجة حسن في ذلك الوقت حاملا، وكان مولعا بحبها فلم تطاوعه نفسه أن يتركها ورأى أنها من الأفضل أن تلد في الحج. فأمر أن يجهز لها هودجا على ظهر بعير..

وشرعت القافلة في الرحيل ميممة مكة المكرمة حسب أوامر أمير القافلة الذي اصطحب معه زوجته وأحمد عبده الوفي. وبعد مسيرة طويلة وصلت القافلة وادي طوس وبات الحجاج ليلتهم فيه.

كان مع القافلة العديد من الحجاج الهنود ومن بين أولئك من كان مريضا بالكوليرا؛ وفي وادي طوس انتشر المرض بين كثير من الرجال. النساء في القافلة، وارتموا على الأرض ينازعون سكرات الموت.

وفي هذه الليلة حانت ساعة الولادة وفيها سيطل الطفل الذي كانت تحمله زوجة حسن إلى هذه الدنيا.أمر حسن عبده المخلص أن يستدعي القابلة أو المولِّدة والممرضات اللاتي اصطحبهن معه في القافلة لهذا الغرض. ولكن العبد أحمد أجابه قائلا: يا سيدي لا واحدة منهن على قيد الحياة، لقد متن من جراء هذا الوباء.

بعد ذلك قام العبد أحمد وحسن بتوليدها، وأنجبت صبيًا جميلًا إلا أنها ماتت بسبب الأرق وعملية الولادة. طلب حسن من العبد أحمد أن يسأل أي امرأة في القافلة يمكنها أن تحتضن الصبي الرضيع؛ ولكن عاد أحمد وقال: يا سيدي إن كل من في هذه القافلة هم من الرجال فقط، إن النساء اللاتي كن بيننا قد فارقن الحياة، وحتى الإبل جفت ضروعها وليس فيها حليب.

وكان قلب حسن مليء بالأسى وهو يحدث نفسه: «ماتت زوجتي المحبوبة وسوف يموت ابني الآن»، وأمر عبده المحبوب أحمد أن يحفر قبرا وأن يضع فيه زوجته وابنه. قال أحمد: «يا سيدي إذن أنت ستدفن ولدًا حيًا؟» أجاب حسن: «إذن هل هناك حليب في صدرك لكي ترضعه؟ يجب أن أتركه لإرادة الله». قام العبد أحمد بحفر قبر ووضع فيه المرأة والطفل الرضيع وهو لا يزال حيًا.

وفي الصباح وبعد أن دفن الاثنان الأم وولدها أكملت القافلة مسيرها وعندما وصلت إلى وادي فرطوس حطت الرحال ليبيتوا ليلة. ولم يبتعد عنهم المرض، فكانت الليلة مليئة بصرخات الموت وداهم المرض أمير القافلة ومات في تلك الليلة.

وعندما نهض العبد أحمد وقت الفجر لأداء الصلاة وجد نفسه وحيدا يلفه صمت القبور فالموت قضى على حجاج القافلة جميعا وبعد أن أدى الصلاة قام بجمع الإبل وأكياس المال والمؤن، ووضع جثة سيده فوق ظهر جمل وربطها بإحكام؛ لأنه رأى أنه من المناسب أن يكمل أمير القافلة الحج.

وقام العبد أحمد بتحميل الإبل متجها إلى مكة ووصل إلى هناك بعد رحلة خالية من أي مصاعب أخرى. ومكث في مكة لعدة شهوروباع إبل سيده وممتلكاته لأنه من الصعوبة بمكان أن يقوم رجل واحد بالاعتناء بقطيع من الإبل، وجمع مبالغ المال والذهب الذي أخذه من القافلة وحافظ على هذه المبالغ..

وبعد ذلك فكر وتدبر بعد هذا الحدث: ما الذي يجب أن أفعله بالمال لأن سيدي قد مات وزوجته ماتت وولده مات ووارثه الوحيد هو أخوه؟ وأضاف متسائلا: بما أن الأخ هو الوريث فسيستولي على أملاك وأراضي سيدي الكثيرة ولا يمكن أن أمنعه من ذلك لأنني فقط عبد فقير، رغم ذلك فإنه يجب ألا يأخذ هذا الذهب لأنه كانت تسود كراهية بين الأخوين وكرر

هكذا: سوف آخذ هذا الذهب وأعود إلى أراضينا وإذا وصلت في أمان فإنني سوف أعطي المال إلى المساجد والجمعيات الخيرية الدينية لتكون صدقة باسم سيدي.

وانتظر العبد أحمد مجيء الأمطار لتمتلئ الآبار وتكون رحلته سهلة وبعد ذلك شرع بالرحيل نحو العراق ومعه القليل من الجمال وفي أثناء الرحلة جاء إلى وادي طوس وفكرأن يمر على قبر سيدته ويقوم بإصلاحه من ركام الزمن. وعندما أناخ الجمال وانزل أمتعته وبنى خيمته سار إلى قبر سيدته.

ونظرأحمد إلى القبر ورأى أن هناك فتحة في السقف ونظر لأسفل عبر الفتحة وكان مليئًا بالدهشة والذهول لأنه رأى في المقبرة طفلا حيا. وبعد ذلك سحب أحمد الأحجار وفتح المقبرة ورأى أن الولد عمره حوالي سنة وأن جسم سيدته تحلل وتلاشى إلا ثدي واحد كان حيًا وفيه حليب وأخذ أحمد الطفل بين ذراعيه وفي هذه اللحظة تلاشى الثدي المتبقي وتحلل. وحمل أحمد الطفل وسار به إلى إبله وملأ وعاء بحليب إحدى نوقه وأعطاه للطفل فشربه.

وفي اليوم التالي استمر أحمد برحلته وأخذ يفكر: سوف أذهب إلى منطقة حائل وهناك أمكث لبعض سنوات إلى أن يكبر سيدي الصغير، أما إذا سرنا الآن إلى العراق فإن عم الصبي الشرير قد يسبب له الأذى؛ لأنه سيستولي على أملاكه ولا أستطيع مساعدته، فأنا لست سوى عبد فقير لن أكون قادرًا على حماية حقوق سيدي الصغير. ولحسن الحظ فإن لدينا

الكثير من الذهب ويمكنني أن أعلمه بطريقة مناسبة لإدارة أملاكه. وبعد ذلك عندما يكبر فإنه يمكن أن يطالب بأراضيه.

أخذ أحمد الطفل وقام برحلة إلى حائل وعندما وصل هناك اشترى منزلًا وقام بتوظيف ممرضه للطفل وعندما مرت بعض السنوات استدعى معلما ليعلمه الدروس واستخدام السيف والرمح في الفروسية وفنون الحرب.

وجاء اليوم الذي بلغ فيه الطفل سن السادسة عشرة وكان أوسم أبناء حائل وكان جماله منقطع النظير وبالنسبة بمهاراته في السيف فإنه لم يكن هناك من يضاهيه في حائل وجاء إليه أحمد وقال: اعلم يا سيدي إنني لست سوى عبدك ولست حارسًا كما كنت تعتقد وروى أحمد لسيده الصغير رجب الحقائق والأحداث وكان رجب مذهولًا مما سمعه.

وبعد ذلك أمر رجب العبد أحمد بإعداد الجمال للشروع برحلة إلى العراق وباع أحمد البيت وأعد للرحلة وكان معه كيس ذهب كبير لأنه كان حريصًا على سيده.

وبعد عدة أيام في الطريق وصل رجب والعبد أحمد إلى العراق إلى أراضي وأملاك والده التي كانت بالقرب من السماوة واستفسروا من أهل القرية وقالوا: ورث حامد أخو حسن أملاكا وأراضي استثمرها على مدار السنوات الستة عشرة الماضية وهو ظالم ينتزع من الفقراء لقمة عيشهم. وقد أخفى رجب وعبده أحمد هويتهم وبالنسبة لهؤلاء الذين سألوا أحمد

عن سيده رد عليهم قائلًا: إنه أمير صغير من شمر من حائل وحيث أن ليس لديه عمل أو مهنة فإنه يسافر من أجل المتعة وقد خيم أحمد ورجب ببيت شعر مع العرب بالقرب من السماوة مع حيواناتهم.

وفي إحدى الليالي المظلمة قبل طلوع القمر، وبينما كان أحمد ورجب نائمين في بيت الشعر استيقظ أحمد عند سماعه ضوضاء، والتقط سيفه وخرج وقد تبادر إلى ذهنه أن هناك لصوصا يحاولون سرقة الإبل فجرى إلى الحيوانات ووجد بالقرب منها رجلًا عجوزًا منحني الظهر لحيته بيضاء طويلة. وطلب منه الرجل العجوز الطعام والماء، دعا أحمد الرجل العجوز إلى بيت الشعر وأيقظ سيده الصغير وأمر رجب بأن يعطي العجوز الماء والغذاء. وأكل العجوز إلى أن شبع وبعد ذلك شكر رجب وقال: سوف أبيعك نصيحتين مهمتين مقابل أن تعطيني عملة دمشقية. بحث أحمد في كيس النقود إلى أن وجد عملة دمشقية وأعطاها للعجوز وبعد ذلك تحدث العجوز بطريقته الخاصة قائلا: بالنسبة للنصيحة الأولى: يجب أن تحترس من الأعور، وبالنسبة للنصيحة الثانية: يجب ألا تنام في ليالي الهلال. ونهض الرجل العجوز وسار بعيدًا.

وفي الصباح قال رجب لعبده أحمد: نحن مخيمون هنا دون فائدة لأنه لا توجد لدينا خطة معينة تمكنني من استرداد أملاكي. فإذا قلت للناس إنني ابن حسن وعشت لمدة سنة في قبر أمي فلن يصدقني أحد، يجب علي أن أذهب إلى دار ضيافة عمي وأرى أي نوع من الرجال هو؟

وإن لم يكن شريرًا فإني سأقول له أنني ابن أخيك. ولكن العبد أحمد قال له: إنه حقًا شرير. ورد رجب: إنه من دمي، كيف يمكن أن يكون كذلك؟

ركب رجب وعبده إلى دار ضيافة حامد ودخل رجب وحيّا الجميع، وقد رأى الكثير من الناس يأتون إلى دار الضيافة ويذهبون فاستفسر رجب من العبد القهوجي عن سبب هذه الحشود فأجابه قائلا: اعلم أيها الفتى أن ابنة سيدنا حامد ستتزوج هذه الليلة، وقد جاء الناس من المنطقة بأكملها ليشاركوا في هذا الاحتفال. وسأل رجب العبد: هل هي جميلة.وأجاب العبد: إنها جميلة حقا عندما تخرج سيدتي في الليل فإن القمر يخفي وجهه لأنه غيور من جمالها.

في هذه الأثناء فكر رجب وتحدث إلى نفسه قائلا: إنها ابنة عمي ومن حقي أن أتزوجها؛ لذا يجب أن أتحدث إلى عمي بهذا الشأن.

وجلس رجب لمدة نصف ساعة في دار الضيافة وبعد ذلك كان هناك هرج ومرج ونهض من في المجلس عندما دخل حامد دار الضيافة لتناول قهوة الصباح ورأى رجب وجه عمه لأول مرة وكان مذهولا لأن حامد كان أعور والتفت رجب إلى جاره في المجلس وقال: لم أعرف مطلقا أن مضيفي كان أعور. وردّ الرجل: لقد فقد عينه منذ شهر، كان سيدنا يدرب صقوره ووضع مدرب الصقور طائرا جديدا لم يعلم عنه سيدنا شيئا، وقد انقض على عين حامد وانتزعها كانتزاعه عين أرنب بري. في هذه الأثناء

تذكر رجب قول الرجل العجوز وتحذيره من التعامل مع الشخص الأعور وهذا بلا شك ينطبق على عمه؛ لذا يجب ألا يخبره بأنه ابن أخيه.

جلس رجب في دار الضيافة يفكر في الفتاة متحدثا إلى نفسه: هذه ليلتي لأتزوجها، كيف يمكنني أن أمنع زواجها من غيري.

لفت انتباه حامد وجود شاب جميل غريب في دار الضيافة فسأل من هم حوله قائلا: من هو؟ وأجابوا: إنه أحد أمراء شمر، قدم من حائل ونحن لا نعرف اسمه. وبعد ذلك نهض رجب وشكر مضيفه وغادر المجلس ممتطيا جواده وعندما توسط بستان نخيل توقف وأخذ ينظر إلى بيت حامد لأنه فكر: «يجب أن أختطف الفتاة هذا اليوم وأتزوجها». وقد رأى أن غرف النساء عليها حراسة مكثفة بالعبيد والمخصيين المسلحين بالسيوف وجميع الأبواب موصده ويصعب الدخول إليها. ولكنه رأى أيضا أن بيت الراحة (الحمّام) يبعد عن القصر مسافة لكي يبعدون روائحه (أجلكم الله) حتى لا تزعج أهل البيت. وفكر رجب: لماذا لم آت مبكرا ولو ليوم واحد لاختطف الفتاة عندما تذهب لبيت الراحة لقضاء الحاجة، لكن ليس هناك مزيد من الوقت للانتظار. وبعد ذلك امتطى جواده إلى السماوة.

وفي سوق السماوة اشترى رجب فستان امرأة ولفه وأخفاه تحت عباءته وبعد ذلك ذهب إلى الصيدلية وأشترى ثلاث حبات رومانية. واعلم أن الأدوية في هذه الأيام أصبحت كثيرة ومعقدة ولكنها سابقا كانت بسيطة وكانت الحبوب الرومانية تستخدم للرجال وللحيوانات،.

قيل أن الرجل يحتاج حبة واحدة وحبتين اثنتين للخيل وثلاث للبعير. وأخذ الحبات الرومانية الثلاث وذهب إلى دكان الحلواني وأشترى منه سلة من أجود أنواع الحلويات ووضع بداخل كل قطعة ثلاث حبات رومانية قائلا للحلواني: إن ناقتي لا تأكل الحبوب ولذا فإنني أخفيها في الحلوى.

وأمتطى رجب جواده عائدا إلى بيت الشعر وهناك أمر عبده أحمد لتقويض خيمته وتحميلها على الجمال متجها إلى ربوة في الصحراء على بعد مسيرة ثماني ساعات. بعد ذلك أمتطى جوادا صغيرا وأخفى ملابس المرأة تحت عباءته ذاهبا إلى منزل حامد. وعندما اقترب من المنزل أوقف حصانه داخل بستان نخيل متخفيا بين الأشجار بالقرب من بيت الراحة، وارتدى ملابس المرأة وأخفى ملابسه بالقرب من حصانه ووضع سلة الحلوى على كتفه ومشى نحو المنزل مناديا بصوت فتاة: اشتري حلوياتي واشتري الحظ. وقد غطى رأسه بنقاب على طريقة الغجر وكان شاربه صغيرا لم ينمُ، وكما نعرف فهو جميل. وأعتقد العبيد والحرس الذين رأوه إنها فتاة غجرية جميلة وربما تسنح لهم الفرصة للهو معها هذه الليلة، وقد سمحوا لرجب بالدخول إلى فناء الحريم.

وبعد ذلك جاءت الخادمات وتجمعن حول رجب وأردن شراء الحلوى ولكنه لم يعطهن قائلا يجب أولا أن أبيع أفضل الحلوى مقابل قطعة فضة إلى من أوشكت على الزواج لأنها ستأتي لها بالحظ وتنجب ولدا جميلا.

وصرخت المرأة: خذ الغجرية إلى سيدتي عسى أن تسعدها لأنها في أمس الحاجة لها فهي ما برحت تبكي طوال اليوم لأنها لا تريد هذا الزواج.

أخذت الخادمات رجب وقدنه إلى الغرفة التي تجلس فيها الفتاة عالية ابنة حامد وكانت تبكي بطريقة تمزق القلب. وقالت الخادمات لها: يا سيدتي اشتري من هذه الفتاة الغجرية حتى يكون لك الحظ وتنجبي ولدا جميلا. ونظر رجب إلى السيدة عالية وكان قلبه مليئا بالفرح لأن عينيها كانتا مثل اللآلئ وكان فمها مثل برعم الزهر، وصدرها بارز بالملابس الحريرية لفستانها، وكانت ممشوقة القوام، جسمها نحيل مثل جسم الولد.

ونظرت الفتاة عالية ودموعها تنهمر إلى الفتاه الغجرية وقالت: إذن أعطيني الحلوى رغم أنني أعرف أنها لن تعود علي بالسعادة لأن حزني لا حدود له. وأعطى رجب الفتاة عالية الحلوى وأكلتها وقالت: لماذا طعمها من الخارج حلو ولذيذ ومن الداخل مر؟ ورد رجب: يا سيدتي هذه حلوى الحب لأنك تعلمين أن الحب حلو ولكن لا يخلو من المرارة. للحب نهاية، كل حب ينتهي بالموت وبالتالي فإن الفتاه تتذوق أولا حلاوة الحب ومن ثم تتذوق مرارته ومأساته.

وفكرت عالية بكلمات الفتاة الغجرية قائلة: يا لها من فتاة حكيمة وأمرت بأن يتم مكافأة الفتاه بليرة من الذهب وأخذ رجب العملة وأعطى الحلوى المتبقية إلى الخادمات قائلا: خذن هذه مجانا من سيدتكن لأن سيدتكن دفعت لي سعرا عظيما ويجب أن أذهب الآن وأسرع إلى خيمتي

وأصنع العديد من الحلوى لأنه سوف يكون هناك طلبا كبيرا عليها هذه الليلة وترك رجب الغرفة وغادر الفناء وناداه القائد والحرس: أيتها الجميلة هل ستعودين إلينا؟ ونظر إليهم رجب وقال: سوف أكون تحت أمركم هذه الليلة. وأسرع إلى حصانه في بستان النخيل.

وجلست الفتاة عالية في غرفتها مفكرة: يا لجمال هذه الغجرية وكيف أنها نظرت إلى بعينيها كما لو أنها كانت ترغب في جسمي! ويا لمرارة هذه الحلوى من الداخل. ولأن الفتاة عالية لم تعلم أن الحلوى كانت تحتوي على ثلاث حبات رومانية مسهلة أي جرعة الجمل.

وعندما وصل رجب إلى حصانه خلع ملابس الفتاة وارتدى ملابسه الخاصة، وامتشق سيفه، وجلس بالقرب من حصانه مراقبا بيت الراحة قائلا. «لن يكون الوقت طويلا».وبعد عشر دقائق رأى السيدة عالية تخرج من بوابة الفناء وكانت تسرع الخطى متجهة نحو بيت الراحة، وعندما اقتربت الفتاة من بيت الراحة وقبل أن تتمكن من دخوله انقض عليها رجب وأمسك بها بين ذراعيه وسحبها إلى حصانه وغطى فمها بيده ولم يمكنها أن تصرخ واركبها حصانه وعاد مسرعا إلى الصحراء ولم يرَ الحرس أي شيء لأنهم كانوا ينظرون إلى الفناء؛ لأنه من غير المناسب أن ينظروا إلى الفتاة عالية وهي تمشي نحو بيت الراحة.

وعندما ابتعدا بمسافة من منزل حامد رفع رجب يده عن فم عالية ونظرت إلى وجهه ورأت أن له وجه فتاة غجرية جميلة وفكرت: إذا كان

الأمر بالفعل هو رجل فإنني محظوظة؛ لأنه أجمل من الرجل العجوز الإقطاعي البشع الذي كان والدي يرغب في زواجي منه.

وكانت عاليه تشكو من مغص بمعدتها وألم، فقالت له: أيها الرجل الغريب النبيل لتسمح لي بأن أقضي حاجتي وسمح رجب للبنت بأن تنزل وتقضي الحاجة. وعندما انتهت عادت وركبت الجواد ولم يكن عليه أن يمسكها ورأى رجب أنها جاءت معه بحرية. وعندما امتطت الحصان قالت له: عفوا على التأخير، وهيا بنا نسرع حتى يمكننا أن نبعد عدة أميال عن بيت أبي..رد رجب: إن التأخير كان ضروريا لأنني أعطيتك ثلاث حبات رومانية وهي جرعة جمل. وأجابت عالية: حقا كان مفعولها قويا لدرجة أنها أجبرتني على مغادرة المنزل، إن حبة واحدة منها تكفي، وضحكت كثيرا من فكرة رجب الخادعة وقالت: «الآن اكتشفت مرارة الحب الحلو». وأجابها رجب: عزيزتي أنت تذوقتِ المرارة في بداية حبنا ولن تتذوقيها مرة أخرى مطلقا لأن حبنا ليس له نهاية نحن قلبان منصهران في بوتقة واحدة.

وبعد مضى ثماني ساعات وهما يشقان طريقهما عبر الصحراء عرّجا إلى ربوة ـ الطريق إليها غير سالكة للقوافل ـ وهناك انتظرا مجيء العبد أحمد مع الإبل، وبعد انتظار لمدة ساعة وصل العبد مع الحيوانات.نصبوا بيت شعر أسود، وقامت عالية بطهي الطعام لهم. وعندما أكلوا الطعام أخذ رجب عالية إلى داخل بيت الشعر، وأمر العبد أحمد بالقيام بمهام الحراسة، وارتبكت الفتاة عالية عندما أخذها رجب إلى البيت. قال رجب

لها لا تخافي؛ لأنني قريب منك وأنا لست بعيدا عنك. أنا الذي له الحق في أن يتزوجك وأنا الذي له الحق في أن يقتلك. وردت عليه عالية وهي مندهشة قائلة: إن الذي له الحق في أن يتزوجني وأن يقتلني هو ابن عمي، ولكن ليس لدي أبناء عم! ورد رجب: أنا ابن عمك حقا، وروى لها قصة حياته كاملة، ودهشت عالية تماما مما سمعت.

وعود إلى بيت حامد: بعد مضي فترة من الوقت بدأ الناس يتساءلون أين الفتاة عالية، وأم الفتاة كانت تنادي عليها: عالية، يا عالية أين أنتِ؟ دون جدوى.وأصبح حامد الأعور قلقا عندما رأى أن ابنته لم تكن في المنزل وسأل قادة الحرس قائلا: هل خرجت الفتاة عالية؟ ورد الحراس: لقد مرت عبر هذه البوابة منذ ساعة وذهبت نحو بيت الراحة ورغم ذلك فإننا لم نرها عائدة! وازداد قلق حامد عندما سمع هذه الكلمات وأخذ يتساءل هل قطعت أحد شرايينها؟ أو هربت لأنها ترفض الزواج؟ ثم أرسل جارية إلى بيت الراحة لتخبره عن الفتاة.

وهرعت الجارية إلى بيت الراحة ووجدته خاليا ولم يكن هناك أي شخص. وبعد ذلك أمر حامد عبيده والحرس بتفتيش بستان النخيل، وعادوا مؤكدين أنهم لم يعثروا عليها بل وجدوا ملابس امرأة وقلادة ذهبية وتفحصتها الجواري وأثبتن أنها لا تخص الفتاة عالية بل إنها ملابس الغجرية التي باعت الحلوى وبعد ذلك أستفسر حامد من حرس البوابة وقال أحدهم: لم أمنع البنت الغجرية من الدخول لأنها بنت وأنا رجل،

ولكن يا سيدي إن وجه الغجرية يشبه وجه أمير شمر الشاب الذي كان هنا هذا الصباح وكذلك ذيل شعر مهرته.

وهنا أيقن حامد بعد سماع كلمات الحرس من فقدان ابنته وقال: فتاتي اختطفها الأمير الشمري. هل يعلم أحد أين مضاربه؟ وقال أحد العرب ممن كان في دار الضيافة سمعت أنه يخيم بالقرب من قرية كذا وكذا. وأمر حامد قائد حرسه بأن يذهب إلى مضارب أمير شمر ويصطحب معه عشرين رجلا وأن يأتوا به إلى هنا بالقوة.

وذهب قائد الحرس مع رجاله وبعد مسيرة ساعتين عادوا إلى حامد وأخبروه أن الشاب الشمري مخيم في مكان قصي في الصحراء مع حيواناته. هنا اشتاط حامد غضبا وقال: من هم هؤلاء أمراء شمر؟ إنهم يلتفون حول الحريم مثل الفئران حول مخزن حبوب.

وبعد ذلك أمر حامد قائد حرسه ليجهز كل رجاله ويطاردون الشمري وهو في طريقه إلى حائل. واعترض الرجال في المجلس أو دار الضيافة منتقدين حامد قائلين: مَنْ أنت؟ أتظن نفسك شيخ قبيلة كبير حتى تشعل حربا مع شمر؟ أنت مجرد إقطاعي لديك أملاك كبيرة، لن يسلموك هذا الصبي مطلقا. إنه يعد من كبار الأمراء ألم يقولوا أن لديهم عشرة آلاف محارب؟

أدرك حامد حقيقة كلماتهم وقال: سوف أطاردهم بكل رجل لدي حتى يمكنني أن أمسكهم قبل أن يصلوا جبل شمر ولكن إذا لم أتمكن من ذلك فإنني أحتاج إلى مساعدة. وكتب حامد خطابات إلى جيرانه من شيوخ

القبائل والذين يستأجرون أراضيه وقال: ساعدوني في الانتقام لشرفي حيث إن ابنتي اختطفت؛ ولكن الشيوخ أجابوه قائلين: نحن نتعاطف معك، ونأسف على هذا الوضع الذي يمس شرفك، وأنت تعرف كيف تدافع عنه. نحن لن نقوم بدور الوساطة. ولم يساعده الشيوخ لأنه غير محبوب وبخيل.

جمع حامد عبيده ورجاله الخاصين وبلغ عددهم ثلاثمئة فقط وشرع بالرحيل إلى حائل ورأى الناس أن حامد ذاهب ليحارب شمر.

ومن مخيمه في الصحراء يرسل رجب عبده أحمد يوميا إلى المدن والقرى لجمع المعلومات وقد سمع رد الشيوخ ومغادرة حامد. وفكر رجب قائلا: جاءت الآن فرصتي لأسترد ممتلكاتي، فترك الفتاة عالية مع العبد أحمد وركب إلى مخيم شيخ مرموق تستأجر قبيلته بعض أراضي حامد ودخل إلى دار الضيافة وحيا الجميع وعرف نفسه للشيخ قائلا: أنا رجب ابن حسن الذي مات في الحج وقد جئت لاسترد ممتلكاتي، ولكن الشيخ قال: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لأن حسن لم يكن لديه ابن رغم أن زوجته كانت حاملا عندما غادر من هنا ومات هو وزوجته بسبب مرض الكوليرا وهما في طريقهما إلى الحج، ولم يبق أحد من هذه القافلة. وروى رجب قصته كاملة إلى الشيخ وذهل الشيخ مما سمع.

وبعد ذلك قال الشيخ لرجب: أتشرف بدعوتك على عشاء في داري الليلة وقبل رجب الدعوة. خرج الشيخ وأمر العبيد بأن يأتوا بالطعام

وجلس رجب في دار الضيافة منتظرا مجيء الوجبة وبعد فترة أحضر العبيد الوجبة وذهل رجب مما رأى لأنه بدلا من كومة الأرز على الطبق الكبير كانت هناك كومة من التراب الساخن يخرج منها البخار وفوقها هيكل شاة لا لحم حول عظامها. وتوجه رجب إلى الشيخ وقال: أليست هذه وجبة غريبة التي وضعتها أمامي؟! ورد الشيخ: أنت عندما كنت طفلا رضعت حليبا من صدر امرأة ميتة لذا يجب أن تحصل على الغذاء من هيكل الشاة الميتة ومن كومة الرمل الحارة المتبخرة وأتطلع إلى أن تأكل هذه الوجبة وعندما تنتهي من تناولها سأقدم لك قهوة من الحبر الساخن.

ورأى رجب أن الشيخ لم يصدق قصته وتأمل: كيف يمكنني أن أقنعه لأن هذه القصة صعبة التصديق حقا؟ وتحدث رجب وقال: بالنسبة للغذاء فإن هناك غذاء في الهيكل لأن الحشرات تستقر عليه ولا تذهب إلى أي مكان أخر لأنها تجد فيه غذاء. وبالنسبة لي فلا يمكنني أن أموت الآن لأنه بدون غذاء يمكن أن يحييني الله لمدة عام في قبر أمي وأن يميتني الآن في السادسة عشرة من عمري. أيها الشيخ سدد نحوي سهما إذا أردت ولتعلم أنه لن يقتلني إذا لم يحن موتي بعد.

وأمر الشيخ العبد بأن يأتي له بالقوس وأخذ السهم وجلس على مسافة عشر خطوات من دار الضيافة ووجه السهم إلى رجب وقال: أطلب عفوك إذا قتلتك أيها الضيف، وإذا لم أقتلك أطلب عفوك أيضا لأنني كنت أشك في حديثك. قال رجب: أطلق السهم وأمنحك عفوي. ورأى الشيخ أن رجبا ثابت لم يتحرك، وأطلق السهم عليه فذهب بعيدا ولم يصبه.

وبعد ذلك دعا الشيخ رجب أن يجلس ويتناول القهوة وقال: أنت ابن أبيك بحق وسوف أساعدك في نيل حقوقك لأن هذا الكلب حامد لا يعجبني سلوكه. ونادى الشيخ على رئيس حاشيته وقال هذا الصبي هو الوريث الشرعي لحسن. اذهب واحضر أربعمئة رجل ليذهبوا إلى منزل أبيه، وتجمعت الحاشية ورجال القبائل وذهبوا إلى منزل حامد ولم يعترض دخولهم الحرس لأنهم أناس كثر وتحدث رجب إلى المستأجرين قائلا: إنه الوريث لحسن.

وبعد ذلك كتب رجب رسالة إلى عمه حامد.

إلى الأكرم المكرم العم العزيز حامد المحترم

تحية طيبة وبعد،،

سؤالي عن صحتك وطيب خاطرك يا عمي العزيز جعلك الله دائما ترفل بثياب الصحة والعافية. اعلم أنني ابن أخيك حسن وفي غيابك قمت باسترداد أملاك أبي من عقارات وأراض والتي كنت أنت تعتني بها. وعندما تعود سوف أقابلك بالترحاب كضيف يحل علي إذا رغبت بالسلام، وإذا جئت غاضبا فإنني سأعاملك بالمثل. وتهديك السلام ابنتك عالية زوجتي وتدعو لك بالصحة.

وتقبل تحياتي

رجب ابن أخيك حسن

وتلقى حامد الرسالة وهو يبعد عن حائل بسبع مسيرات وعندما قرأ الرسالة أسودّ وجهه من شدة الغضب وقال: من هذا المدعي؟ وقال الرسول: إنه ابن أخيك.

وبعد ذلك أمر حامد رجاله بالعودة إلى العراق، وقال عبيده: نحمد الله أننا لم نقدم على محاربة شمر. وبعد عدة مسيرات وصل حامد إلى بيته السابق ورأى أنه محاط ببيوت شعر لرجال القبائل والذين يفوقون رجاله عددا فضعفت قوة حامد. ووقف رجب أمام رجال القبائل وقام بنزع سلاح عمه ولكنه لم يمسس حياته بأذى قال: إنه عمي ووالد زوجتي لا يمكن أن أقتله.

واصطحب رجب زوجته عالية إلى منزل والده وعاشا في رخاء وسلام.

وفي فجر إحدى الليالي ذهب رجب وعالية معا إلى بيت الراحة الذي يقع على مسافة قريبة من منزلهما ولم يتركها تذهب لوحدها.

حكاية العباءة التي كانت أبا لطفل

ذات مرة في أيام هارون الرشيد كان أبو نواس مرافق الخليفة يتجول بين بيوت شعر البدو وصرائف الفقراء القاطنين في أرجاء بغداد بحثا عن طرائق الترفيه لسيده، وعندما مر بجوار بيت شعر سمع فيه أصواتا مرتفعة تبدو غاضبة يتحدث أصحابها بلهجة أهل الصحراء فتوقف أبو نواس ليستمع إلى حديثهم.

كان صوت رجل ينطق بكلمات ذات نبرات غيظ، سمعه وهو يقول: لابد أن تقولي لي يا ابنتي اسم أب هذا الطفل حتى أتمكن من قتله، وإلا أقتلك غسلا لشرفنا من هذا العار. وردت البنت قائلة: يا أبي لم يكن هناك رجل. اعلم أنه ذات ليلة في الشتاء الماضي ذهبت لأجلب الماء وكان الصقيع يغطي الأرض وكنت أرتعش من البرد والخوف، وهبت ريح باردة شديدة، ورأيت عباءة رجل على الأرض فأخذتها ولففتها من حولي لتدفئني، ولكن يا للحسرة فإن رائحة العباءة جعلتني أحمل بطفل في بطني.

فكر أبو نواس: هذه الحالة ستلفت اهتمام سيدي الخليفة لأنه حريص على رعاياه. فدخل أبو نواس بيت الشعر ووجد رجلا عجوزا مجعد الوجه من الغيظ وفتاة صغيرة جميلة الوجه كانت تبكي بطريقة تدمي القلب وفي يد والدها خنجر.

وأمر أبو نواس الرجل بوضع خنجره جانبا وقال: أعلموا أنني مسؤول كبير في الدولة، وإن لم تطيعوا أوامري ستفقدون رؤوسكم! يجب أن يرفع الأمر للعدالة، لتذهب غدا إلى القاضي أنت وابنتك وخذا معكما العباءة وأيضا الرجل صاحب العباءة حتى يمكن للقاضي أن يكتشف كيف جاء الطفل إلى بطن الفتاة ويحكم بالعدل.

وعاد أبو نواس إلى القصر وروى الحكاية إلى الخليفة. وكان هارون الرشيد سعيدا، وأمر بأن يأتوا إليه بملابس تنكرية وسيذهب بنفسه غدا إلى المحكمة. وفي اليوم التالي ذهب هارون الرشيد وأبو نواس إلى المحكمة، وحضرت البنت ووالدها والعباءة وصاحبها.

كان أبو الفتاة صامتا أمام القاضي في المحكمة لأنه رجل بدوي عاش حياته في الصحراء، وسأله القاضي: مَنْ تتهم؟.ظل البدوي صامتا، ثم تقدم أبو نواس للأمام وقال: أيها القاضي دعني أتحدث نيابة عنه لأنه بدون لسان، وتم السماح له بالتحدث.

وأشار أبو نواس بإصبعه إلى العباءة وقال أيتها العباءة إني أتهمك باغتصاب هذه الفتاة اليافعة البريئة. لقد التففتِ حول فخذيها العاريتين

وأدخلتِ رائحة الذكورة إليها وحملت بطفل في بطنها. وكان القاضي مذهولاً من كلمات أبي نواس وسأله: هل لديك أدلة تثبت اتهامك؟ وقال أبو نواس دع الفتاة تتحدث عن الأدلة.

وتقدمت الفتاة وقالت: أيها القاضي المبجل أنا بريئة من جميع الاتهامات الشريرة، ولم اقترب مطلقا من أي رجل، ولكن صادف في الشتاء الماضي أن ذهبت في الليل لأجلب الماء من نهر دجلة، وكان الطقس باردا وكنت أرتعش من البرد والخوف من ظلام الليل الحالك، وعندما سرت رأيت أمامي في الطريق عباءة رجل فأخذتها ولففتها حول جسمي وشعرت بالدفء، ويا للحسرة نتج من رائحة العباءة أن حملت بطفل. وفكر القاضي: هذه أغرب قضية تمر علي ولا أرغب في الحكم بها. ونظر القاضي فرأى بين حشد الحضور تاجرا ضخما له لحية يشبه سيدنا هارون الرشيد نفسه. وأخذ القاضي يستجوب الفتاة مفكرا في أن يحكم بالقضية حسب قواعد القانون ويكسب رضا أمير المؤمنين.

وسأل القاضي المحنك الفتاة: ما اسمك؟ وردت الفتاة: اسمي خديجة ولم اسم باسم غيره. ودوّن القاضي إجابتها في دفتر كبير لديه. ثم سألها القاضي: ذكرتِ العباءة المتهمة إنها التفت حول فخذيك العاريتين، هل حصل ذلك؟ وأجابت الفتاة خديجة: نعم، كنت أرتدي فستانا وفوقه عباءتي السوداء ووضعت فوقهما عباءة الرجل. شعرت بدغدغة حول رقبتي فسحبت فستاني إلى أعلى على رأسي حتى أحمي رقبتي من

الدغدغة وعندما فعلت هذا لف شيطان العباءة طياته بالتساوي حول فخذي العاريتين، وبدأ في دغدغتي مئة مرة في هذه المنطقة، وبدأت أضحك وضعفت قوة ساقيّ وسقطت على الأرض واستمرت الدغدغة فأفردت ساقيّ وفرقتهما عن بعضهما ودخلت رائحة العباءة فحملت بالطفل.

واتجه القاضي إلى الحضور وسأل: هل من شخص يتحدث نيابة عن المتهمة لأنها مجرد عباءة ليس لها لسان لتدافع عن نفسها؟ لا نستطيع أن ندين شخصا دون سماع دفاعه لأن هذا هو نظام العدل المبارك لسيدنا هارون الرشيد. ووقف التاجر ذو اللحية ـ وهو أمير المؤمنين ـ وقال: سوف أدافع عن العباءة.

ورفع التاجر الملتحي يده وقال بصوت عال وشجاع: العباءة بريئة، ألا تقول الفتاة أن الرائحة هي التي جعلت بطنها يحمل طفلا؟ والرائحة تختلف عن العباءة، والرائحة كانت تركب العباءة، بنفس الطريقة التي يركب بها الرجل على جواده، وكثيرا ما يحدث أن يعود الراكب من الصحراء إلى بيته ويدخل إلى زوجته ويمكن أن تحمل الزوجة بطفل ببطنها، ورغم ذلك فإنني لم أسمع مطلقا أنه قيل أن الحصان كان أبو الطفل. وعلى عباءة واحدة يمكن أن تركب عدة روائح مثل رائحة التبغ (السجاير) ورائحة البخور ورائحة القهوة والروائح الأخرى بالطريقة التي يمكن أن يكون للحصان فيها عدة ركاب. إنها الرائحة التي يجب أن تتهمها وتحاكمها ويجب أن

تبرئ العباءة وقد أصدر القاضي المحنك حكمه قائلا: أيتها العباءة أنت غير ملامة وامضي في طريقك كعباءة كما عهدناك. وآمر بأن تحضر أمامي الرائحة التي أفسدت هذه الفتاة البريئة.

وقال أبو نواس: أيها القاضي إن الرائحة على العباءة وهي أمامك الآن وإن كان لديك أدنى شك فلتشم العباءة، وعاد أبو نواس إلى العباءة وأشار بإصبعه إليها وقال: أيتها الرائحة الشريرة التي تركبين العباءة البريئة لقد دخلتِ هذه الفتاة البكر وجعلتِ في بطنها طفلا.

واتجه القاضي إلى الناس الحضور وسأل: هل من شخص يدافع عن الرائحة؟ ومرة أخرى تقدم التاجر الكبير الملتحي ـ هارون الرشيد ـ وقال: سوف أدافع عنها.

رفع يده اليمنى وقال: إن الرائحة حقا بريئة، كيف يمكن أن تكون الرائحة مذنبة؟ هل تتهم السهم أو تتهم الرجل الذي أطلقه. أيها القاضي يجب أن تبرئ الرائحة وتتهم صاحب الرائحة. وأعلن القاضي حكمه قائلا: أيتها الرائحة أنتِ غير مذنبة استمري بأداء وظيفتك كرائحة كما كان يشمك الناس من قبل.

وبعد ذلك أمر القاضي بأن يتم إحضار صاحب الرائحة أمامه واقتيد شاب في السادسة عشرة من عمره أمام القاضي وقالوا: هذا الفتى هو صاحب العباءة ولابد أنه صاحب الرائحة التي تذهب مع العباءة. وسأل القاضي الفتى: ما اسمك؟ ورد الفتى: اسمي كريم. وبعد ذلك قال القاضي

للفتى: أعلم أنك متهم بامتلاك رائحة نشطة وخطيرة، وحيث أنك فشلت في السيطرة على تلك الرائحة فإنك تسببت بحمل هذه الفتاة طفلًا في بطنها ورد الفتى وقال: أنا بريء من كل هذه الأخطاء.

وقال القاضي للفتى: في الليلة التي وجدت فيها الفتاة عباءة على الأرض وارتدتها لتدفئ نفسها أين كنت؟ ولماذا لم تتحكم في رائحتك؟ ورد الفتى: في تلك الليلة قارصة البرودة التي ارتدت فيها الفتاة عباءتها لتدفئ نفسها كنت أنا داخل العباءة وليس في أي مكان آخر، لأنه أين يجب أن يكون الرجل في ليلة باردة إلا داخل عباءته؟

واستدعى القاضي الفتاة وقال لها: كانت أدلتك ناقصة وتفتقد إلى الدقة، عندما وجدتِ العباءة على الأرض في تلك الليلة قارصة البرودة وقمتِ بارتدائها لتدفئ نفسك، لماذا لم تذكري أن هناك فتى في العباءة؟

وردت خديجة قائلة: لقد نسيت لأنه مرت عدة شهور بعد تلك الليلة ومن السهل أن أنسى بعض أحداثها. كم مرة أيها القاضي المبجل تتحسس جيوبك لترى إن كانت مفاتيحك ومسبحتك ونقودك فيها وقد أخذتها من المنزل فقط قبل دقائق قليلة؟ ما الأسهل من ذلك؟ هل أتذكر ما احتوت عليه العباءة بعد هذه الشهور العديدة.

وسأل القاضي الفتى كريم: ما ردك على الاتهام الموجه لك؟ رفع كريم يده وأجاب: أنا بريء يا سيدي القاضي لأنني لم أفعل سوى أنني سمحت للفتاة بأن تتغطى بعباءتي في تلك الليلة الباردة. يا سيدي القاضي هل أنت

تلوم الأغنام عندما تلتف حول بعضها طلبا للدفء عندما تهب عليها رياح صاقعة؟ إن الأغنام تعرف أن التفاف الجسدين حول بعضهما أدفأ من الجسد الواحد، وهل نحن بنو آدم أقل من الأغنام شأنا؟

وأصدر القاضي حكمه قائلا: الفتى بريء والفتاة بريئة كما أن أبا الفتاة ليس له حق في أن يقتلهما. وأمر بأن يتزوج هذا الفتى بهذه الفتاة في هذا اليوم، وعندما تهب رياح الشتاء الباردة يمكن أن يغطيها بعباءته ويلتف جسداهما حول بعضهما للحصول على الدفء.

حكاية الراقصين

كان يعمل في دار لهو في البصرة شابان جميلان من الشراكسة ـ أخ وأخت ـ كراقصين. وكان صاحب دار اللهو التركي يعاملهما كعبدين. وكان الشابان ماهرين بالرقص، وكان رواد الدار من الباشوات الكبار ووالي البصرة نفسه، وكانوا يدفعون أكياس الذهب لكي يستمتعوا برقصات هذين الشابين وكان الشاب اسمه نصر الله والفتاة اسمها سلمى، كانا غير سعيدين بعملهما هذا لأن الذهب الذي يكسبانه يذهب إلى صاحب دار اللهو التركي، وبدا لهما أنهما سيظلان عبدين للأبد.

وذات يوم قال الشاب نصر الله لأخته: اعلمي أنه سيأتي الوقت الذي يذوي فيه شبابنا ولن ينظر إلى رقصنا هؤلاء الباشوات الكبار، وسيبيعنا سيدنا التركي كعبدين لنعمل على الطرق وفي الحقول وسيمتص جهدنا بالعمل الشاق إلى أن نموت خلال سنوات قليلة بسبب البؤس واليأس. وبالنسبة لسيدنا التركي فإنه سيكون غنيًا من جمع الذهب الذي يحصل

عليه من جهدنا، وسيشتري منزلا ويعيش مع نسائه بينما نحن نتضور جوعا. إن وضعنا غير صحيح وغير عادل. وردت الفتاة سلمى: أنت أصبت كبد الحقيقة ولكن كيف نهرب من هذا التركي؟ لأنه في النهار يراقبنا عن كثب، وفي الليل يكبلنا من رقبتينا بسلسلة من حديد؟ ورد نصر الله: يجب أن نقتل هذا الرجل. وشحب وجه سلمى وقالت: ألا تعلم عقوبة العبيد الذين يقتلون أسيادهم؟ وكيف يفيدنا قتله؟ عندما يجدونه مقتولا سيلاحقوننا ولن يجدي هروبنا نفعا، وعلى أي حال فهل يمكنك قتله؟ أنت مجرد شاب ضعيف.

وقال لها نصر الله: سأقتله، وعندما يموت لا أحد يعلم عنه شيئا؟ وبالنسبة للصبيان النادلين الذين يقدمون النبيذ لن يناموا في هذا البيت، ويمكن أن نقول لهم أن سيدنا مريض ولن يشكّوا في الأمر، أما الزوار الذين يحضرون للتسلية فإنهم لم يروا سيدنا مطلقا،لإننا نحن نذهب إليهم ونجلس على ركبهم ونقبلهم لكي يعطوننا الذهب وقليل منهم يعرف أن سيدنا يأخذ منا الذهب عندما نكون خلف المشهد. ووافقت سلمى على كلمات أخيها وقالت: يجب أن نجازف ونقتله.

وفي اليوم التالي عندما أغلقت صالة الرقص أمسك نصر الله بفأر وألقاه في جرة نبيذ كبيرة كان لها رقبة كبيرة وفم واسع فأخذ الفأر يسبح في النبيذ متفاديا الغرق ونادى نصر الله سيده: تعال وساعدني إن هناك فأرا في جرة النبيذ! وغضب التركي لأنه اعتقد أنها خدعة من الصبي من أجل

غمس الوعاء في النبيذ لسرقة شيء منه، وجاء التركي ونظر إلى جرة النبيذ، وبينما هو مشغول يبحث عن الفأر في الجرة عاجله نصر الله بضربة قوية من الخلف على رأسه بقضيب حديد وسقط مغشيًا عليه ورأسه في الجرة، ونادى نصر الله على أخته لتساعده، فقاما برفع رجلي التركي معًا وأسقطاه في الجرة وقد تحطم رأسه. وفي جرة الخمر واجه التركي ملك الموت. وأخذ نصر الله وسلمى الذهب الذي وجداه في المنزل ووضعاه في جيوبهما، ولم يكن كثيرا لأنهما لم يعلما أين احتفظ التركي ببقية الذهب.

وفي الليلة التالية جاء النادلون الذين يقدمون الخمور إلى صالة الرقص وقال لهم نصر الله: اعلموا أن سيدنا مريض وقوموا بتقديم الخمور كالمعتاد، وسأستلم المال أنا شخصيا لأنني أعمل لدى سيدي وأتمنى من الله أن يكون شفاؤه عاجلًا ويسترد صحته.

وقام النادلون بتقديم الخمور إلى الضيوف الذين كانوا يأتون إلى صالة الرقص. ورقص نصر الله وسلمى بطريقة لم يرقصا بها من قبل. ونال رقصهما إعجاب الباشوات والبكوات وقال كل منهم للآخر: إننا لم نشاهد رقصا أفضل من رقص هذه الليلة وحتى مذاق الخمر أفضل من ذي قبل.

وبعد انتهاء فقرات رقصهما خرج نصر الله وسلمى من ساحة الرقص وجلسا على ركب الباشوات وعلى ركب البكوات وقبلاهم وتمازحا معهم لدغدغة مشاعرهم للحصول على أكياس الذهب والمال، وحصل الراقصان على الكثير من الأموال والذهب لم يحصلا عليه من قبل. وفي

نهاية ليلة اللهو تلك أغلقت صالة الرقص، وأخذ كل من نصر الله وأخته يعدان حصيلة الليلة من أموال، وقالا: إذا استمررنا بهذه الطريقة لأسبوع آخر فإننا سنحصل على أموال كافية للعودة إلى القوقاز.

وفي الليلة التالية كانت الصالة أكثر ازدحامًا مما كانت في الليلة الأولى لأن الباشوات والبكوات قد تحدثوا لأصدقائهم عن تميز الرقص وجودة النبيذ. ومرة أخرى رقص نصر الله وسلمى بطريقة بارعة، وحصلا على مال وذهب أكثر مما هو ليلة البارحة. وقال الباشوات والبكوات كل منهم للآخر: النبيذ في هذه الدار يزداد تحسنًا كل ليلة أما الرقص فلا مثيل له في العالم.

وفي الليلة الثالثة والرابعة كان الرقص رائعا والخمور تزداد جودة. وجمع نصر الله وسلمى الكثير من الذهب. وفي الليلة الخامسة جاء العديد من الضباط الأتراك إلى الصالة ولم يتمكن بعضهم من دخول الصالة ونشبت بينهم مشاجرة وتم قتل بيك مرموق وأبلغ والي البصرة بالحدث.

وفي صباح اليوم السادس جاء الجنود إلى دار اللهو وسألوا نصر الله قائلين: أين جمال أفندي صاحب الصالة؟ وملأ الخوف قلب نصر الله وأجابهم قائلا: لقد خرج إلى السوق ولا أعرف متى سيعود. فقال الشاويش المسؤول عن الجنود: أمرنا الوالي بمصادرة الخمور في الدار لأنه قيل أن هذه النوعية من الخمور يرغبها أفراد وضباط الحامية وبسببها تنشب مشاحنات وعراك بينهم. وقد أمرنا أيضا بأن نستدعي الراقص والراقصة

للمثول أمام الوالي لأن رقصهما يشعل عواطف أفراد الحامية ويجب أن يرقصا في بيت الوالي فقط.

وكان وجه نصر الله شاحبًا مثل وجه الميت وفكر: الآن لم يعد سرنا سرًا، .قال للشاويش: لتعلم أن هذا أفضل نبيذ في العالم ولكنه سيفسد ما لم يكن لديك عدد كبير من الرجال لنقله وهو في هذا البرميل، ويجب أن يبقى البرميل رأسيًا، ويحافظ عليه بأن لا يهتز لأنه من أفضل الأنبذة، ويجب أن يربط فمه بإحكام لأنه يفسد إذا تعرض للهواء البارد. وذهب الشاويش ليحضر مجموعة من الحمالين لنقل البرميل. وطلب نصر الله من أخته أن تأتي وألا تتأخر لأنهما قررا مغادرة دار اللهو، وخرج نصر الله وسلمى إلى الشارع وأخذا معهما الذهب.

وعند خروجهما إلى الشارع كان الوقت نهارًا، وفكرا: أينما نذهب الآن سيرانا الناس، ومن الأفضل نتخفى ولا نخرج إلا ليلا. ودخلا إلى مستودع كبير كان مليئًا بخزائن من الكويت هائلة الحجم، وفتح نصر الله إحدى أكبر الخزائن ووجدها مليئة بالحرير، فأفرغها منه وأخفاه في خزينة أخرى ودخل هو وسلمى في الخزينة وأغلقا الغطاء وقاما بعمل فتحه صغيرة بالسكين حتى يمكنهما أن يتنفسا الهواء داخل هذه الخزينة.

وعندما اختبآ في الخزينة سمعا خطوات رجال تقترب منهما متجهين نحو المخزن وقال أحدهم للأخر: هل قمت بتعبئة الحرير؟ ورد الآخر: يا سيدي قمت بتعبئته بيدي في هذه الخزينة وطرق بيده على الخزينة التي كان

يختبئ فيها نصر الله وسلمى، وبعد ذلك أمر مسؤول الخزائن بربطها وقال سأجلب الجِمال لنحمّل عليها هذه الخزائن بعد ساعة ولكن الخادم قال: يا سيدي يجب أن آتي بالحمالين ليرفعوا هذه الخزينة قبل أن أربطها بالحبال على ظهر الجمال، لأنني وحدي، وغادر كل من السيد والخادم المحل.

وكانت سلمى ترتعد خوفًا وقالت لنصر الله.دعنا نهرب قبل أن يعود الرجل. رد نصر الله: لا تخافي لأنه أينما ذهبت الخزينة سوف نذهب بداخلها. ويبدو أن الخزائن ستسير بطريق طويل وإلا لما ربطوها، والمهم أن أي مكان نذهب إليه أفضل لنا من البصرة. وعندما يجد الوالي جسم سيدنا في خمره سيغلي عقله مرات ومرات كما يغلي اللبن عندما يترك لفترة طويلة على النار. انتظري هنا وخلال دقيقتين سأعود بالخبز والماء لأن الرحلة ستكون طويلة. وفتح نصر الله الصندوق، وأخذ يجرى في الشارع إلى أحد الدكاكين وقال: أعطني خبزًا وتمرًا ولبنًا وخذ هذا الذهب. واشترى نصر الله كيسًا كبيرًا ملأه بالخبز والتمر واللبن واشترى قربة ملأها بالماء وفي طريق عودته اشترى بطيختين وعاد إلى أخته ودخل إلى الخزينة وأغلق الغطاء قائلا لأخته: اعلمي أن هذا التموين يكفينا لأسابيع، وقد يكون من حسن الحظ أن تشحن هذه الخزائن على ظهر سفينة متجهة إلى الهند.

وبعد فترة عاد الخادم مع الحمالين ورفعوا الخزينة وربطوها بأمان على ظهر جمل وشرعوا في الرحلة، وسمع نصر الله وسلمى العديد من رغاء الإبل وقالا هذه ليست سفينة أنها قافلة متجهة إلى بغداد. وسارت القافلة

واستغرقت رحلتها لأيام وأيام لا تتوقف إلا في الليل وفي كل يوم يأخذ نصر الله وسلمى رشفة ماء فقط وقطعة بطيخ وقليل من التمر.

وعندما اقتربت الأيام من الأسبوع انتهى البطيخ وعندما أصبحت الأسابيع شهرا نفد الماء وبقي فقط القليل من التمر واللبن وقال نصر الله لأخته: اعلمي إننا لم نكن في الطريق إلى بغداد ولحسن الحظ فإننا في طريقنا إلى مكة عبر القصير أو في طريقنا إلى سوريا بطريق الصحراء. وقالت سلمى: إذا لم نصل خلال ثلاثة أيام فإننا يجب أن ننادي على الجمّالين لكي يخرجونا من الخزينة وحتى لو أدى ذلك لقتلنا لأننا سنموت من العطش.

وفي اليوم التالي سمعا حولهما أصوات ناس في الشوارع في مدينة كبيرة وقال نصر الله: إن الناس يتحدثون بلسان تركي. كيف وصلنا إلى تركيا دون أن نمر بإحدى مدنها الكبيرة؟ لابد أن تكون هذه قافلة خاصة تجلب البضائع إلى السلطان نفسه لإنها كانت تتوقف خارج المدينة ويرسل لها التموين من المياه والغذاء وهي في الصحراء دون تأخير.

وتوقفت القافلة وجاء الحمالون وتم إنزال الخزينة الكبيرة التي كان فيها نصر الله وسلمى وحملها الحمالون في طريق طويل وفي النهاية أسقطوها علي أرضيه من الحجر ولم يعلم نصر الله وسلمى أين كانا وسمعا الرجل وهو قادم وقطع الفستان حول الصندوق وقال باللغة التركية سوف استدعي السيدات حتى يمكنهن مشاهدة الحرير وكان صوته صوت

مخصي وعندما اختفت خطوات أقدام المخصي فتح نصر الله الصندوق وخرج ولكن لم ير أحدًا.

خرج هو وأخته من الصندوق ولم يتمكنا من المشي من الإجهاد والإرهاق. ووجدا نفسيهما في صالة كبيرة: حوائطها مغطاة بالرخام والأحجار الكريمة النادرة وبها مرآة إطارها من الفضة الخالصة وفي وسط الصالة نافورة ماء. ذهب نصر الله وسلمى إلى النافورة وشربا حتى امتلأت بطناهما وبعد ذلك أخذ نصر الله أخته وقال لها: دعينا نختبئ إلى أن نكتشف ما هذا المكان، وكيف يمكننا أن نخرج منه، لأنني لا ألاحظ أن عليه حراسة مشددة. ودخل نصر الله وسلمى إلى غرفة صغيرة تؤدي إلى الصالة الرئيسة ووجداها مليئة بأجمل الفساتين المصنوعة من الأقمشة النادرة، وكانت جميعها ملابس نسائية ولم يكن هناك معطفًا واحدًا أو عباءة لرجل. وفي هذه الغرفة وبين الفساتين والملابس اختبأ نصر الله وسلمى.

وبعد ذلك عاد الخادم المخصي إلى الصالة الكبيرة وذهل نصر الله عندما رأى مئات ومئات من أجمل الفتيات تسرن خلف المخصي. وذهب المخصي إلى الصندوق وفتحه صارخا: أيتها الجميلات أنظرن إلى آخر أفضل الأقمشة الحريرية. ولكن ماهو موجود في الصندوق سوى قشور بطيختين، ومئات من حبات نوى [فصم] التمر، وزجاجة فارغة، ورائحة قذارة؛ لأن نصر الله وأخته لم يغادرا الصندوق لمدة تزيد عن شهر. وخيم الذهول على السيدات والمخصي عندما فتح الصندوق. قال المخصي: سوف أذهب لآمر حراس

القصر للإمساك برجال القافلة ليضربهم بالفلقة حتى الموت. لا بد إنهم بحق قد سرقوا الملابس التي أمر بها سيدنا السلطان لحريم قصره.

وسمع نصر الله كلمات المخصي وكاد يتوقف قلبه من الخوف وقال لأخته: هل تعلمين أين نحن؟ إننا في قصر حريم السلطان وهو المكان الوحيد المغلق والتي تشدد عليه الحراسة في الإمبراطورية العثمانية، ويقال أنه لم يدخله رجل ولن يخرج منه رجل حيا ويعيش في هذا المكان فقط الفتيات الجواري والمخصيين.

استدار نصر الله نحو الفساتين التي كانا يختفيان فيها وأخذ واحدا منها يناسب جسمه وارتداه وأخفى ملابسه الخاصة، واختارت سلمى أيضا فستانا جديدًا وارتدته لأن ملابسها كانت قذرة، وبعد أن ارتديا الفستانين بدا نصر الله وسلمى كالأختين، ومن رأى نصر الله لن يشك مطلقا بأنه ولد؛ لأن شعره طويل وليس له شارب.

سمع الاثنان المخصيين ينادون على الجواري للحضور لتناول الطعام، واتجه نصر الله إلى أخته وقال: لنذهب ونتناول الطعام لأننا جائعان، وردت سلمى: ماذا نفعل بينهن؟ رد نصر الله: سوف نذهب ونأكل، هناك عدة مئات من الفتيات، ووجود وجهين جديدين بينهن لن يكون لافتا للنظر.

وذهب نصر الله وسلمى إلى الصالة ثم دخلا صالة أخرى أكبر من الأولى بكثير وقد أقيم فيها حفل كبير وموائد طعام فيها مئة خروف محمر ومئة طاووس محمر وعدة مئات من الدجاج والبط والحمام والقطا.

مئات من أجمل الفتيات جيء بهن من شتى أنحاء العالم يجلسن على هذه الموائد وكانت الخمور تقدم لهن من خلال جواري سود.

وجلس نصر الله وسلمى على إحدى الموائد وأكلا إلى أن كادت بطناهما أن تنفجران. ولم يسأل أحد عمن هما، وعندما توقفت جميع الأيدي عن تناول الأكل كان رئيس المخصيين يتجول بين الموائد ويتحدث إلى بعض الفتيات، وجاء إلى نصر الله وسلمى وقال لهما: إنكما وجهان جديدان. هل أنتما جزء من آخر هدية إلى سيدي؟ وردت سلمى: نعم نحن جدد هنا ورغبتنا هي أن نكون في خدمة السيد؛ ولكن المخصي قال بتنهيدة:كيف حصل هذا؟ لقد كان الوضع مختلفًا أيام كان سيدنا شابًا، إذ كان من النادر أن يحتاج لأكثر من ثلاثمئة فتاة في العام ولكنه الآن قد تقدم به العمر: فلحيته بيضاء وعيناه تقلص إبصارهما ويمكن القول أن فتاة واحدة تلبي حاجته، ورغم ذلك فإن لدينا في هذا المكان ثلاث آلاف فتاة، وكل شهر يصله ألف فتاة أخريات كهدايا من الحكام والولاة. وهؤلاء الفتيات المسكينات يجبرن على العيش في قصر الحريم الكبير دون أن يراهن أحد حتى أن كل منهن تقبل الأخرى من حسرة القلب.

وكان نصر الله مذهولًا من كلمات المخصي وفكر: بينما أنا هنا في هذا المكان المشدد الحراسة وحتى أجد وسيلة للخروج فإنه على الأقل أسباب الراحة مهيأة لي بين هؤلاء الفتيات.

وفي اليوم التالي وما بعده من أيام تفحص نصر الله جميع أبواب قصر

الحريم ونوافذه وكانت جميعها يحرسها مخصيون مسلحون بالسيوف ولا يمكن لأحد أن يدخل أو يخرج. وطالت الأيام إلى شهور ولم يجد نصر الله أي مكان دون حراسة إلا مكانا واحدًا وهو نافذة مغطاة بشبكة من قضبان الحديد بسمك ساعد رجل وتحت النافذة بحيرة ولا يمكن لأحد أن يخرج من النافذة دون أن يسبح في البحيرة. وبدأ نصر الله في قطع القضبان الحديدية باستخدام الماس والأحجار الكريمة المتوفرة بكثرة في قصر الحريم؛ ولكن عملية قطع كل قضيب بالطريقة التي لا يمكن كشفها استغرقت أسابيع وكانت قبل فترة طويلة من اقتراب العمل من الانتهاء.

وفي أحد الأيام وقبل أن ينهي نصر الله قطع القضبان جاءت سلمى إلى نصر الله وكان وجهها شاحبًا مثل وجه الميت وقالت له: هناك شائعة بين الفتيات وأرى أن هذه الشائعة صحيحة وهي أن ما يقرب من ثمانين منهن أصبحن حوامل وفي بطونهن أطفال، ومن دون شك لن يكون أطفالهن أبناء للسلطان. وبعد فترة قصيرة سينتشر خبر هؤلاء الأطفال وسيعرف رئيس المخصيين الأمر وحينئذٍ ستجري تحريات وسيستخدم الجلد والتعذيب والإعدام حتى تتحول النافورة من رش الماء إلى رش الدماء في هذا القصر. وعندما سمع نصر الله كلمات أخته شعر بالإغماء من شدة الخوف وفكر: هل هذه عواقب ذلك الفعل البسيط؟

وأخذ نصر الله أخته وذهب إلى النافذة وقد انتهى من عمليات قطع القضبان المتبقية، وفي البحيرة أسفل النافذة رأى نصر الله ولدين عاريين

في سن السادسة عشرة من عمريهما وكانا يسبحان ويمتعان نفسيهما في الماء وقال نصر الله لأخته يجب أن نبعد هذين الصبيين من طريقنا ويجب أن نسرق ملابسهما لأننا إذا نزلنا في البحيرة فإن جرس الإنذار سيقرع وإذا خرجنا منها بملابس مبتلة فإننا سنلفت الانتباه ولا يمكننا أن نمشي في المدينة بملابس حريرية من قصر حريم السلطان.

وأدركت سلمى حقيقة كلمات أخيها، ورأت على الضفة البعيدة من البحيرة ملابس الصبيين غير المبللة وفي مكان آمن، نادت سلمى على الصبيين فرأيا وجهي فتاتين جميلتين في النافذة ولم يعلما أن نصر الله كان ولدا وسبحا إلى أسفل النافذة وقالت سلمى لهما.نحن اثنان وأنتما اثنان تعالا هنا والعبا.

ورد الصبيان: كيف لنا أن نأتي إليكما بينما هذه النافذة مغطاة بقضبان بسمك ذراع الرجل؟ أليس هذا قصر حريم السلطان جزاء من يدخله التعذيب حتى الموت؟ قالت سلمى: لا تخافا تسلقا هذه الحوائط وسوف نفك القضبان ولن يراكما أحد لأن المخصيين لم يأتوا إلى هذه النافذة قط حيث أنها تعتبر آمنة، وعندما تصلانا سنقوم بإخفائكما في غرفة لا يمكن أن يراكما فيها أحد، ودعونا نمتع أنفسنا لمدة ساعة وبعد ذلك يمكنكما أن تعودا إلى البحيرة وإلى ملابسكما. وفكر الصبيان: ليس هناك خطر وسنسعد بوجودنا في قصر حريم السلطان.

فخرج الصبيان من الماء وتسلقا الحائط وكانا عاريين. وقام نصر الله

وسلمى بتوسيع القضبان لكي يدخلا وقاداهما إلى غرفة صغيرة بها باب واحد وليس لها نوافذ وقال الصبيان: يمكننا هنا أن نمتع أنفسنا دون أن يرانا أحد. وقال نصر الله وسلمى للصبيان: انتظرا هنا، لنستكشف الأمر ونتأكد من أن المخصيين نائمون، وأغلقا الغرفة من الخارج بإحكام وتركا الصبيين سجينين في هذه الغرفة.

وتجرد نصر الله وسلمى من ملابسهما وغطسا في الماء وسبحا في البحيرة نحو ملابس الصبيين وكان نصر الله قد ربط حول وسطه حبلا علق به الكثير من الذهب والمجوهرات النفيسة والنادرة. ووصل نصر الله وسلمى إلى ملابس الصبيين وارتدياها وأصبحا مثل الولدين لأنهما لفا شعرهما بعمامة الصبيين.

وبالنسبة للصبيين فقد ظلا جالسين في الغرفة الصغيرة وقالا: إن هاتين الفتاتين تحبان المزاح لأنهما أغلقتا الباب علينا وهذه دعابة لطيفة! ومرت الدقائق والدقائق وشعر الصبيان بالبرد لأنهما كانا مبللين وعريانين وبدآ يستشعران الخوف لأنهما فكرا: هذا المكان هو قصر حريم السلطان وهو ليس مكان يتم إمساكنا فيه من خلال خدع بعض الفتيات. وجلس الصبيان وهما عاريان يرتعدان من الخوف ومرت ساعة.لم تعد الفتاتان.

وفي الساحة الرئيسة خارج قصر الحريم جلس رئيس المخصيين مع مساعديه الذين لا يحرسون الأبواب يراقبون بعض الفتيات اللاتي تغتسلن عند النافورة، وقال لزملائه: ألا ترون أن بعض الفتيات قد تغيرت أشكالهن

أم أن عيني تخدعني؟ وأجاب المخصيون: أن ما تفكر به هو ما نفكر به ونحن قد رأينا مؤخرا العديد من الفتيات أعينهن حمراء من البكاء.وهذا أمر يتطلب التحقيق.

فأرسل رئيس المخصيين امرأة حكيمة.طلب منها أن تقوم بفحص الفتيات وعادت إليه وقالت له: هؤلاء الفتيات حوامل بارك الله لهن بأطفالهن، وأنتاب رئيس المخصيين الرعب والهلع من كلمات المرأة الحكيمة وفكر قائلا: من هم آباء هؤلاء الأطفال؟ لا يمكن أن يكون سيدنا السلطان، وليس نحن المخصيين، ولا يوجد في هذا المكان سوى الفتيات، ولا يمكن لرجل أن يدخل هذا المكان. فأمر اثنين من المخصيين بأخذ إحدى الفتيات وربطها من أصابع يديها بالسقف وقال رئيس المخصيين لها: سنتركك معلقة بالسقف إلى أن تخلع أصابعك من يدك أو أن تقولي لنا حقيقة هذا الأمر. وظلت الفتاة معلقة لمدة عشرين دقيقة إلى أن صرخت من الألم وقالت: اعلم أن ما حدث نوع من السحر، ففي الليل تتحول إحدى الفتيات في قصر الحريم إلى صبي، وهي إحدى البنتين الشركسيتين المتشابهتين تمامًا، وفي وقت النهار تكون بنتا، وليس هناك شك في هذا الأمر.

وأمر رئيس الحرس المخصيين قائلا: اذهبوا واحضروا لي الفتاتين الشركسيتين، وذهبوا وفتشوا وعادوا قائلين: لم نعثر عليهما. وأمر رئيس الحرس بأن يذهبوا مرة أخرى ليفتشوا في كل غرفة وكل ركن في قصر

الحريم الكبير. وذهبوا وفتشوا ووصلوا إلى الغرفة التي كان فيها الصبيان العاريان، وفتحوا بابها ووجدوهما بداخلها، وأخذوهما مكبلين وجاءوا بهما أمام رئيس الحرس.

وبكى الصبيان وتوسلا إليه أن يصفح عنهما ولكنه لم تأخذه بهما رحمة، وأمر بأن يتم ربطهما من أصابع يديهما في السقف ويتم ضربهما بالسوط حتى تنتهي حياتهما، لأنه فكر: كيف يمكن أن تأخذني الرحمة بينما حياتي أنا الآن في خطر داهم؟ وعندما مات الصبيان، جاءت المرأة الحكيمة إلى رئيس المخصيين وقالت: إن ثمانين فتاة حامل من جواري القصر فكاد يتوقف قلب رئيس المخصيين عن النبض من الرعب، وفكر: الآن سينهي سيدي السلطان حياتي، وفكر مرات ومرات، ووجد مخرجا من هذه المشكلة وقال لنفسه: يجب علي إعلان الأمر أمام السلطان على ملأ من الناس.سيسكت السلطان خجلا أمام هذا الخبر المعلن أمام الجميع ولن يقول أنه ليس أبا لأولئك الأطفال!

وفي صباح اليوم التالي ذهب رئيس المخصيين إلى الديوان السلطاني وأمام الوزراء وقادة الجيوش والولاة ورجال البلاد المرموقين أعلن وبصوت عال قائلا: يا جلالة السلطان إن ثمانين من جواريك في قصر الحريم رزقن بأطفال، وذهل الحضور عند سماعهم الخبر لأن لحية السلطان بيضاء وعينيه لا تبصران جيدا! ولم يرد السلطان على ما أعلنه رئيس المخصيين. وعندما غادر الجميع الديوان ذهب السلطان إلى غرفة

خاصة وطلب من سكرتيره الذي يثق به أن يقتل رئيس المخصيين ويدفن جثته وأن يعلن أنه مات بسبب مرض أصابه ونفذ السكرتير أمر سيده السلطان.

وبالنسبة لنصر الله وسلمى عندما ارتديا ملابس الصبيان ذهبا إلى المدينة، واشترى نصر الله أسلحة وحصانين أصيلين من أجود السلالات وستة خيول أخرى لنقل الأمتعة وحملوها بالمؤن وانطلقت رحلتهما ليلا نحو بلدهما، ولم يرغبا في أن يمكثا طويلًا في أرض الأتراك، وبعد رحلة استغرقت عدة أسابيع وصلا في أمان. وتزوج نصر الله، وتزوجت أخته سلمى. وفي إحدى أمسيات الشتاء ذهب نصر الله إلى حانة خمر لتناول نبيذ مع أصدقائه قال لهم: اعلموا أنني أب لثمانين طفلًا لكنهم لم يصدقوه!

حكاية الشيخ مزعل القرنيشي
رجل نبيل رغم افتقاره

في أيام العثمانيين عاش في بغداد رجل من عائلة عريقة اسمه الشيخ مزعل القرنيشي. وكان له بيت كبير على ضفاف نهر دجلة. ومع كل هذا تضاءلت ثروته بسبب الضرائب واضطهاد العثمانيين، وتدمير الجراد محاصيله الزراعية إلى جانب الفيضان، إلى أن افتقر تماما.

وهكذا عاش الشيخ في بيته مع ابنته الوحيدة دون خدم ولا عبيد، ولا أثاث ولا آنية لأنه باع كل هذا لشراء الطعام، ولم يقدم على بيع بيته؛ لأنه رأى أن من العار على المرء أن يبيع البيت الذي ورثه من أجداده.

وابنة الشيخ (نورا) البالغة من العمر سبعة عشر ربيعا لا تجد أحدا يتقدم لخطبتها لأن ليس لديها جارية تتحدث عن جمالها، ولم يسمع عنها أبناء العائلات المرموقة، ولو وصف لهم جمالها فلن تغمض لهم عين: شعرها

أسود مثل مياه شط العرب في ليلة شتاء صافية، وعيناها مثل عيني الغزال، وجلدها ذهبي مثل رمال الصحراء عندما تسقط عليها أشعة شمس الفجر الحمراء الوردية، وقوامها ممشوق طري، وساقاها مبرومتان، وصدرها كاعب، وجلدها ناعم كنعومة ريش القطا.

ذهبت نورا في أحد الأيام إلى والدها قائلة: يا أبي المحبوب إن حالتي كذا وكذا، فهل أستمر بالقيام بممارسة وظيفتي اليومية بطهي الطعام للأبد أم أصبح أماً تنجب النبلاء.

حزن الشيخ مزعل بعد سماع كلمات ابنته التي يتقطع قلبها حزنا، وفي إحدى الليالي الباردة صعدت نورا إلى سطح منزلها الفخم وهي تناجي القمر متسائلة.

يا قمرنا العالي

ما ترأف لحالي

وين حبيبي الغالي

مشتاقه له مشتاقه

ابو خدود برّاقه

ما احتمل فراقه

حبي له يهنا لي

واختفى القمر وراء أقرب سحابة خجلا من جمال وجهها الوضاء.

وفي أحد الأيام جاء الشيخ مزعل إلى ابنته ورآها تبكي، فأمسك يديها قائلا لها: اعلمي يا صغيرتي أنني أتعس من أفقر متسول في مدينة السلام. لو كنت رجلا من العامة لاشتغلت موظفا أو غسالا أو حمالا أو حتى كناسًا لتحصيل شيء من النقود، ولكن اسم عائلتنا معروف، ومن المخجل بالنسبة لي أن أعمل ويعرف القاصي والداني بأمر افتقارنا. وأضاف الأب إن المجاعة التي تواجهني يا ابنتي تدفعني أن أقدم وإياك على الانتحار بأن نقطع شرايين سواعدنا. ثم أعطى نورا آخر ليرات ذهبية يملكها قائلا: اشتر بها ثيابا تليق بمقامك، حتى إذا وارانا الجيران الثرى وجدونا في حالة تليق بكرامتنا.

ارتدت نورا نقابها وأخذت الليرات الذهبية من أبيها رغم انهمار الدموع من عينيها، وذهبت إلى السوق وإلى بائعي الملابس الحريرية واشترت أجود أنواع الحرير، وبقيت معها بعض الليرات التي لم تنفق بعد، وذهبت إلى دكان كبير مفكرة: سأشتري ترترا لماعا بآخر ما عندي من ليرات، وأزيّن به فستاني بتطريز جيد لكي يتذكرني الناس بعد موتي. فذهبت إلى التاجر الذي اسمه جاسم وسألته عن الترتر وعرض لها علبة بعد علبة مليئة بأجود الألوان المعروفة وأيضا من الألوان التي لم تعد تستخدم، وتفحصت الترتر بألوانه المتعددة الزاهية لتختار أفضل الألوان المناسبة لفستانها الحريري، وبينما كانت هي منهمكة تقارن الألوان سقط نقابها فانكشف وجهها، ولم تشعر أن جمالها مكشوف لأن تركيزها كان منصبا على اختيار الألوان.

نظر إليها التاجر جاسم نظرة ابن آوى إلى غزال ميت؛ لأن جاسم كان من بين هؤلاء الذين يرغبون في نهب الفتيات، وكانت أفكاره أفكارًا شريرة، نظر إلى وجه نورا ونظر إلى ملابسها: العباءة والنقاب وفكّر: إنها ليست غنية ورغم ذلك فإن وجهها لا مثيل له؛ ولا بد أن أعرف عنها الكثير. بحذر! أولًا يجب أن اكتشف مكانها وأعرف هل لديها أخ أو أب يثأر لشرفه أم لا. وبما أن جاسم لا يعرفها ولا يعرف من أين جاءت، فقد فكر في حيلة بارعة: فعندما اشترت خمسين مثقالا من الترتر لتطريز فستانها قام جاسم بوزنها وتعبئتها في كيس ورقي ولكنه أحدث فتحة صغيرة بالكيس بإصبعه. وبعد أن دفعت نورا ثمن الترتر عادت إلى منزل أبيها وأثناء سيرها أخذ الترتر يتساقط من فتحة الكيس محدثا سلسلة تمتد من الدكان إلى منزل والد نورا، ومن الحزن والأسى لم تنتبه نورا لما حدث.

وقام جاسم بتتبعها بعد أن ترك بينه وبينها مسافة مناسبة، وكان متأكدا من المسار الذي اتخذته نورا لأنه رأى على الأرض سلسلة الترتر اللامعة وعبر الأزقة الضيقة والمداخل الجانبية في بغداد تعقبها رغم أنه لم يرها ووصل إلى منزل ذي باب خشبي مرصع بالنحاس الأحمر وكان الباب مغلقًا، وعرف أنها دخلت ذلك المنزل لأنه رأى الترتر مرشوشا على عتبة الباب مشكلا نهاية السلسلة.

سأل جاسم الفقراء في الشارع عن المنزل ذي الباب الخشبي وأجابوه قائلين: هذا هو قصر القرنيشي، كان منزلًا فخمًا لشيخ ثري، وقد اعتاد

صاحبه على ذبح عشرة خراف يوميا لإطعام الفقراء، ولكن الآن يعيش الشيخ العجوز ومعه ابنته الوحيدة دون خادم أو عبد، ولا يدخله شخص ولا يخرج منه أحد.

وفكر جاسم وتأمل وقال لنفسه: القرنيشي اسم كبير، وليس من الحكمة التطفل على هذه الفتاة لأن أباها قد يقتلني بلا شك، وبدلا من ذلك فإنني سأتخذ إجراء آخر. لماذا لا أتزوجها؟ وسأستمتع بجمالها بدون خوف، وأيضا يمكنني أن أتباهى بالقول لأصدقائي في المقهى: أن زوجتي الجديدة ربة منزل مثالية، إنها سليلة عائلة مرموقة هي ابنة القرنيشي. وسينظرون إلى بعين الاحترام وسيختلط نسب أبنائي بهؤلاء النبلاء، وبما أن الشيخ فقير فإنني سأعرض عليه سعرا مغريا وسيوافق على زواجي من ابنته.

وفي اليوم التالي زار التاجر جاسم منزل الشيخ مزعل القرنيشي وطرق بابه الكبير وفتح الشيخ مزعل الباب بنفسه ورحب بجاسم وأدخله صالة الضيوف كعادة شيوخ العرب الأصلاء، وقال له أتشرف بزيارتك أيها التاجر المحترم، ولتعذرني لعدم تمكني من تقديم واجب الضيافة الذي يليق بك وذلك لعدم وجود الخدم، فقد سمحت لهم بالذهاب إلى بيوتهم وأخذ يوم راحة، وليس لدي من يعد القهوة أو الطعام، لتعذرني على حماقتي التي قد تسبب عدم الارتياح: لذا أرجو أن تقول لي اسمك وطلبك سريعا.

ورد جاسم وكان رده فظا يفتقد إلى اللباقة والكرامة وقال: أيها الشيخ النبيل بالنسبة لاسمي فهو جاسم الكوتي وأملك محل ملابس كبيرًا،

وبالنسبة لطلبي فهو الزواج لأنني أعلم أن لديك ابنة وسوف ادفع مئة ألف ليرة من الذهب مهرا لها. وذهل الشيخ مزعل من كلمات التاجر، وأسودّ وجهه وقال بغضب: لقد ضللت الطريق! هل تبحث عن عاهرة؟ إنني أعرف اسمك وسمعت عنك. ألا تعرف أن جدك بائع لبن، هل يستوي النسر والطاووس يا حمار؟ سألقنك درسًا لن تنساه.

وأمسك الشيخ مزعل جاسم التاجر بيديه وبدأ في ضربه بعصا على رأسه إلى أن تدفق الدم منه، وبعد أن أوسعه ضربا ألقى به في التراب. ورأت نورا الأحداث من نافذة الفناء الداخلية وفكرت متسائلة: هل هو التاجر الذي اشتريت منه الترتر اللماع؟ وكيف عرف منزلنا؟ وعرفت نورا أن كيس الترتر كان مثقوبا وأن نصف الكمية قد سقطت على الأرض أثناء سيرها. ورأت الترتر يلمع على عتبة الباب. فقالت: هذه كانت حيلة التاجر الشهواني.

بالنسبة لجاسم فقد نهض ونظف ملابسه من التراب وسارع إلى دكانه وكان قلبه مليئا بالغضب والرغبة في الثأر وفكر: كيف يمكنني أن أدمر هذا الأحمق الذي تجرأ على معاملتي بهذه الطريقة المهينة والذي ليس لديه حتى العملات النحاسية؟ وعاد إلى دكانه وفتح الخزينة وعد عشرة آلاف ليرة ذهبية ووضعها في منديل حريري، وذهب إلى منزل الباشا التركي قائد الشرطة. ودخل منزل الضابط وحياه وتحدث إليه بهذه الطريقة: كم سمعت عن إدارتك الحكيمة وبراعتك وكرمك لقد جئت إلى خدمتك وأعرض

عليك هدية متواضعة، وأطلب منك أن تشرفني بأن تنفقها بطريقتك الخاصة على الأعمال الخيرية. ووضع جاسم صرة العملات على المائدة ونظر التركي إلى الهدية ورأى أنها كانت ثقيلة وطلب من جاسم الجلوس وطلب له فنجان قهوة.

وبعد محادثة مناسبة ومهذبة قال جاسم: يا سيدي الباشا أحذرك من خدعة ومكيدة شيطانية موجهه ضد الخليفة نفسه. والمحرك الرئيسي الذي دبر المؤامرة الحمقاء هو إقطاعي عربي اسمه الشيخ مزعل القرنيشي ملعون أصل حقير.

واستمع القائد إلى كلمات جاسم وأستدعى ضابطًا وأمره قائلا: خذ الجنود واذهب إلى قصر القرنيشي وأعتقل الشيخ وقيده وزج به في السجن لأنه خطر على الدولة ويجب أن يتم التحقيق معه وعن مخططه لعصيان الدولة والتآمر عليها.

وكانت نورا وأبوها يجلسان في بيتهما عندما سمعا صهيل الخيول وطرقا شديدا كالرعد على الباب الكبير، وفتح الشيخ مزعل الباب للجنود مستفسرًا عن الأمر. وبالنسبة لنورا فقد تحركت مسرعة وأخفت نفسها في البيت الكبير قائلة: إذا رآني هؤلاء الأتراك فإنهم يدنسون عفتي ولن أبقى بكرًا! ورأت الأتراك يعتقلون والدها ويقيدونه بالسلاسل ويأخذونه معهم، وفكرت: إن ما حدث ما هو إلا من تدبير التاجر جاسم. وعندما اقتاد الجنود والدها وغادروا بكت نورا حتى كاد قلبها يتمزق.

وكانت نورا فتاة عربية أصيلة، فبعد فترة وجيزة جففت دموعها وجرت إلى خزانة الملابس التي تحتوي على ملابس قديمة وأخذت ملابس الصبي الحارس التي ظلت هناك منذ الأيام الأولى عندما كان لدى الشيخ مزعل العديد من الخدم والحشم وخلعت ملابسها وارتدت ملابس الصبي وارتدت كوفية[غترة] وعقال على الرأس وأخذت عصا وغادرت المنزل مفكرة: إذا بقيت في القصر فسيبحث جاسم عني ويجدني،.كانت حافية القدمين لأنها لم تعثر على حذاء صبي يناسب قدميها، وسارت في الشارع لا تعلم إلى أين تذهب؟ أو إلى مَنْ تلجأ؟ وفكرت: سوف اذهب من بغداد إلى القبائل العظمى، لأن سكان المدينة يفتقدون إلى الكرم، ومن يذهب إلى القبائل سيجد الغذاء والمأوى، وسوف أبتكر خطة لإنقاذ أبي. وخرجت من بغداد وأخذت تسير في طريقها إلى البصرة وسارت لعدة ساعات في طريق ترابي وكل من رآها أعتقد أنها ولد.

وهؤلاء الذين مروا بجوار نورا على الطريق حيّوها وردت تحيتهم، وأخذت نورا تشق طريقها سيرًا على الأقدام إلى أن مالت الشمس نحو المغيب وكانت قدماها متعبة وتنزف دما من خشونة الطريق ورأت أمامها كوكبة من الفرسان يقودها شيخ شاب وجهه كالبدر، تدل هيئته على النبل والأصالة، عندما اجتاز الفرسان نورا وعبروا من أمامها حيوها فردت تحيتهم، واختلس الشيخ الشاب نظرة إلى نورا التي اعتقد أنها فتى جميل. والشيخ الشاب هو عقاب الركابي، أخذ ينظر إلى الأرض مستغرقا بالتفكير وهو الذكي الفطن الذي يهتم بشؤون القبيلة ومصالحها العليا.

وبعد مضي عشر دقائق من مسيره بعد اجتيازه الفتى، حث الشيخ عقاب الركابي جواده على السير خببا وخرج من الطريق الذي سلكه أتباعه مناديا على أحد رجاله الذين يجيدون معرفة الأثر لاصطحابه، وكان هذا الرجل الحكيم هو عبود المطرود الذي يمكنه أن يعرف من أثر خفاف الناقة متى تلد! وتحدث إليه وقال: يا عبود ألق نظرة على الأرض وتفحص آثار أقدام الصبي صاحب الوجه القمري الذي مررنا عليه منذ أقل من عشر دقائق قل لي ما ترى هناك مكتوبا يتعلق به؟ ورد عبود المطرود قائلا: يا ابن الركابي إنني في دهشة من أمري لأن عينيّ رأتا شكل صبي ورغم ذلك فإن أثر القدمين تعودان لفتاة؛ لأن شكل القدمين ليستا لصبي وكذلك الخطى، تلك خطى فتاة متعبة تماما، لم تعتد على المشي، تسير حافية القدمين. وتحدث عقاب وقال: إن أفكارك متطابقة مع أفكاري ولكن دعنا نجعل هذا الأمر سرا.

وأمر مرافقه عبود أن يعود إلى الفتاة ويعرض عليها استضافتها لهذه الليلة لأن الشمس توشك أن تغيب، ويجب أن نخيم ونحن رحالة وهي رحالة ورغم ذلك لا تفصح لها على أننا علمنا أنها فتاة.

وبينما أمتطى عبود المطرود جواده عائدا إلى الفتاة لتنفيذ أوامر الشيخ، توقف عقاب الركابي مع رجاله وأمرهم بإقامة بيوت الشعر السوداء وبإعداد العشاء. وعاد عبود مع نورا وسألها الشيخ قائلا: يا رفيق الطريق من أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ ردت نورا قائلة: بالنسبة لاسمي فهو نوري، وأنا لا

أعلم إلى أين أنا ذاهب؛ لأنني فقط خادم صغير وسيدي مسجون، وألجأ إلى الشرفاء من الظلم الذي لحق بي.

وعندما بني بيت الشعر الكبير، ألح الشيخ على نورا بالأسئلة إلى أن روت له القصة الكاملة، وقد تظاهرت بأنها خادم الشيخ مزعل القرنيشي وليست ابنته. وقالت: بالنسبة لابنة الشيخ مزعل الجميلة فإنني لا أعلم ما حدث لها، ربما قد ألقت بنفسها في النهر هربا من العار. وتحدث الشيخ وقال: إن مصيبة الشيخ مزعل هي مصيبتي لأنني أعرف الشيخ مزعل وأعتقد أن هناك صلة قرابة دم بيننا، إننا أبناء عم ألم يقل الشاعر.

عيال عم الرجّال يا ناس جناحينه

ما شفت صقر يطير بليّا جناحينه؟

نفس الشجاع المقدام تلقا الموت في حينه

واما الجبان يموت عشر مرات قبل حينه

أو كما قال الشاعر:

الطير لا طار محلا رفيفه ..

وإن انكسر أحد الجناحين ما طار

وعندما تم تناول الطعام أمر الشيخ عقاب بأن ينام الصبي في بيت الشعر الخاص به وهمس إلى عبود المطرود قائلا: احرسها بعناية هذه الليلة.

وجلس الشيخ في خيمته يداعب مسبحته بأصابع يده متأملا: كيف يمكنني أن أتغلب على بائع الترتر وأطلق سراح مزعل من الأتراك؛ وأكسب حب هذه الفتاة؟ وعندما غابت نجمة الفجر كانت قد اكتملت خطة الشيخ عقاب لإنقاذ الشيخ مزعل. وعند انبلاج ضوء خيوط الفجر الأولى، أمر الشيخ بتقويض بيوت الشعر إيذانا بالرحيل إلى بغداد.

وفي صباح اليوم التالي كعادته نهض التاجر جاسم من سريره وغادر منزله ذاهبًا إلى دكانه ونادى على مساعديه وعبيده وصبيان الدكان وسألهم قائلا.ألم تجدوا هذه الفتاة الهاربة، ابنة الخائن مزعل؟ وهل بحثتم عنها طوال الليل؟ فأجابوا: يا سيدي لقد بحثنا في جميع أنحاء بغداد ولم نعثر عليها؛ ولكن هناك أمرًا مهما نود أن نخبرك عنه وقد ملأ قلوبنا بالرعب والهلع. ليلة البارحة بعد أن غادرت الدكان جاء رجل قد أخفى وجهه في شماغه، ويتحدث بلهجة القبائل سألنا قائلا: هل هذا دكان التاجر جاسم؟ في أي وقت يأتي إلى الدكان؟ وفي أي وقت يغادره؟ أين يعيش وأين يأكل؟ أين يجلس وأين ينام؟ ولم ترُق للتاجر جاسم كلمات خدمه.

وبعد ساعة أو ما يقرب من ذلك قضاها في دكانه يحسب ربحه من تجارته غادر جاسم دكانه كعادته وذهب إلى المقهى لمقابلة أصدقائه ليزجي نصف ساعة من الوقت في سعادة الحوار وعندما نهض من المقهى ليعود إلى دكانه رأى أن الطريق كان مليئا ببريق سلاسل الترتر تمتد على طول الطريق إلى أن تصل دكانه وكان مذهولا مما رأى وأخذ يتحسس في

جيوبه مفكرا: ربما وضعت كيسا من الترتر في جيبي وتسرب منه مكونا هذه السلسلة ولكنه لم يجد بجيبه أي أثر للترتر.

وفي وقت الظهيرة غادر دكانه ذاهبا إلى منزله وبينما هو جالس يتناول الطعام أقبل عبده مسرعا إليه وقال: يا سيدي إن الترتر قد تسرب من الكيس، وذهب جاسم إلى باب منزله ورأى سلسلة من الترتر تغطي المسار الذي اتخذه من دكانه،بعد أن تناول جاسم الطعام وشبع ترك منزله مفكرا: سأذهب إلى ضفة النهر لكي أتمكن من معرفة من هو الذي يتعقبني ويرش الترتر خلفي لأن هناك مكانا مفتوحا يمكنني أن أنظر إلى من هو ورائي بحرية.

خرج جاسم يسير على قدميه بالقرب من ضفة النهر وأخذ يختلس النظر خلفه لكنه لم يرَ أحدًا، وسار عبر بساتين النخيل ولم ير أحدا من بني آدم أيضًا. وبينما هو في طريق عودته إلى المدينة سالكا نفس المسار الذي خرج به من منزله، رأى أمامه سلسلة من الترتر ممتدة على طوال الطريق فأخذ يركض مسرعا إلى منزله وهو التاجر المشهور.

ذهب إلى منزله وأمر خدمه بأن يأتوا له بفستان امرأة فاشتروه له، وتنكر في هذا الفستان قائلا: سأخفي نفسي في شكل امرأة وأذهب إلى منزل أخي وأختبئ هناك لأتخلص من هذا الشبح الشرير. وخرج من منزله مرتديا عباءة امرأة ونقابا لكي لا أحد يتعرف عليه، وسار إلى منزل أخيه في الطرف الآخر من بغداد، وطرق الباب وطلب أن يرى أخاه، وسمح له بدخول المنزل وعندما جلس في غرفة أخيه خلع ملابس التخفي.

وبينما هو يحكي قصته لأخيه سمع طرقا قويا على الباب وسمع الخادم يقول بصوت مرتفع: يا سيدي قل للعجوز التي تجلس معك أن كيس الترتر الذي بحوزتها تسرب منه الكثير وهناك سلسلة من الترتر على طوال المسار الذي سلكته إلى عتبة الباب، فذهل جاسم مما سمع ولم يعلم أن من كان يتتبعه هو عبود المطرود الذي لا يمكن أن يخدعه أي مخلوق مهما تخفى أو تنكر، إنه يتعرف على الناس من واقع أثر أقدامهم على الأرض. نهض جاسم وأخوه وغادرا الغرفة ليتحريا الأمر، وقد تأكدا من صدق كلمات الخادم عندما رأيا سلسلة الترتر ممتدة على الطريق الذي سلكه جاسم وهو مرتديا ملابس امرأة إلى أن وصلت عتبة الباب. حينئذ قال أخو جاسم: لا تخف من شيء ولا تخشى الموت ستنام هنا الليلة، وسأقف لأحرسك وسأستل سيفي وتكون يدي على مقبضه.

وعندما جاء الليل أمر أخو جاسم جميع خدمه بتسليح أنفسهم وأرسلهم إلى أبواب ونوافذ المنزل، فأحكموا الحراسة حتى لا يكاد الفأر أن يدخل المنزل أو يخرج منه، ونام جاسم على سرير أخيه، ووقف أخوه بجانبه ممتشقا سيفه لحراسته. نام جاسم وقلبه مطمئن؛ ولكنه عندما استيقظ في الصباح كاد قلبه أن يتوقف وأغمي عليه من شدة الخوف لأن ملاءة السرير [الشرشف] قد غطاها الترتر، ووجد أخاه ميتا يسبح ببحيرة من الدم وقد اختلط الدم ببريق الترتر ولمعانه.

قفز جاسم من سريره وخرج مسرعا من الغرفة ومن المنزل مرتديا

ملابس النوم [بيجاما]، وعندما خرج رأى أن جميع العبيد وجميع الحراس الذين حرسوا الأبواب والنوافذ ميتون ويسبحون في بركة من الدم.

فر جاسم من منزل أخيه مسرعا متجها إلى دكانه، وهو غير آبه يركض في شوارع مدينة السلام في ملابس النوم، وكل من رأى هذا التاجر المرموق نظر إليه نظرة اندهاش وتعجب.

عندما اقترب جاسم من دكانه رأى تجمعا كبيرًا من الناس حول الدكان، وعندما اقترب أكثر سمع الكثير من الصراخ والضوضاء. وحالما وصل إلى دكانه، وهو يلهث محاولا التقاط أنفاسه،حاصره العاملون والباعة في الدكان قائلين.يا من يخرج الترتر من أقدامه، ادفع لنا رواتبنا، نرغب في إنهاء علاقاتنا معك، اتركنا نرحل بسلام لأننا لا يمكن أن نخدم ملعونا. وقد قادوه إلى داخل الدكان، ورأى الدكان بأكمله مليئًا بالترتر. ورأى جثة الحارس الليلي تسبح في بركة من الدماء، ووجد على مكتبه رسالة كتبت شعرا وحولها الكثير من الترتر هذا نصها:

خذها رساله صريحه واعلنه عني

النوم آمن في بيتك هذا ما اظني

لو كان يحرسك مليونين ابو جني

سلّمنا مزعل يا جاسم وانت تامني

قام جاسم بارتداء الملابس المناسبة وغادر دكانه ذاهبًا إلى منزل قائد

الشرطة العثمانية وعندما دخل منزل الضابط حياه وقال له: يا سعادة القائد جئت لأصحح خطأ أرتكب ولأستبدل الظلم بالعدل؛ لقد اكتشفت أنني قمت بارتكاب أكبر خطأ وبحماقة نحو الشيخ مزعل القرنيشي: إنه لم يكن يوما يحيك المؤامرات أو عصيان الدولة العلية، بل هو كان يثني على حكم العثمانيين الرشيد ويدعو للخليفة طول العمر والصحة. لقد أسأت فهم كلماته وأعترف بخطيئتي؛ لذا أطمح بعفوك ورحمتك لإخراج هذا الشيخ اللطيف العجوز من السجن.

ولكن وجه قائد الشرطة تجهم معبرا عن استغرابه، وتحدث بصوت يفتقد إلى الرحمة قائلًا: كيف يمكن أن يتم هذا؟ لأن تاريخ إعدام هذا الشيخ الخائن قد تحدد بالفعل، وتمت كتابة التقارير بشأن مؤامراته ومكائده وسلمت إلى كبار الضباط والوزراء وحتى إلى الخليفة قائدنا الأعلى والتي تنم عن الدور الفعال لشرطتنا ويقظتها وحرصها على اكتشاف ذلك.

ورد جاسم قائلًا: إن الشيخ العجوز النبيل حقا هو بريء؛ ولكن هناك تاجر أقمشة اسمه مزعل هو المتورط بحق في تدبير المؤامرة التي اكتشفتها شرطة سيادتكم ودكانه بالقرب من دكاني. يا سيدي دع الشرطة تقبض عليه وتقدمه للعدالة، وهذه المعلومات صحيحة. واستميحك العذر على إهمالي وخطأي بسبب تشابه الأسماء. ورغم أن سيادتكم لم تفرضوا على أي عقاب بسبب هذه الحادثة؛ إلا إنني أرى أن خطأي سبب مشكلات لسيادتكم وأنا أرغب في عقاب نفسي، لذا سأذهب الآن وأحضر مئة ألف

ليرة من الذهب وأدفعها لك كغرامة مقابل ما سببه إهمالي من أذى لك كضابط كبير في الدولة. ووافق القائد على ما قاله جاسم واستدعى ضابطا وأمره بإطلاق سراح الشيخ مزعل، وتم القبض على مزعل التاجر الآخر وتقديمه للعدالة.

خرج الشيخ مزعل من السجن رجلا حرا وذهب إلى منزله وانضمت إليه أبنته نورا هناك، وكان قلبها حزينا لأنها أحبت الشيخ النبيل عقاب الركابي حبا شديدًا وفكرت: إن الشيخ عقاب يعتقد أنني ولد وعليه لم تكن لديه الرغبة في طلب الزواج مني، ولا يمكن أن افصح له عن حبي لأنني بنت شريفة .وكم كانت دهشتها وذهولها عندما رأت رجلا وقورا يبدو أنه سليل عائلة كريمة المحتد يتحدث إلى والدها، وبعد هذه المحادثة جاء إليها والدها وسألها: هل توافقين يا أغلى من عيني أن يتزوجك الشيخ النبيل عقاب الركابي أبو الألف سيف؟ فأجابت نورا: أوافق. وفكرت نورا: كيف عرف عقاب جنسي؟ وفي تلك الليلة ذهبت إلى سطح منزلها وخاطبت القمر قائلة.

«يا قمرنا يا من تنير درب العاشقين»

ثم قالت بيتا من الشعر:

عندي حبيب وحيد مافيه غيره

يموت في حبي ولا يعيش بغيره

وابتسم القمر ولم يختف وراء السحاب، وعاش عقاب ونورا في سعادة غامرة وحياة رغد لا يمكن وصفها لكم، لأنكم لا تستطيعون تخيلها إذا لم تروهما معا ولكن إذا سألتني عن التاجر جاسم وأحواله فإنني سأقول لكم: إن ثروته قد تضاءلت لأن الأتراك أخذوا منه الكثير من الذهب، ورغم ذلك فإن شهوته ورغبته في الزواج من البنات اليافعات لم تنته، فقد أقدم على طلب الزواج من ابنة فارسي فقير، جميلة كالغزال، يعمل والدها بائع لبن، ودفع مهرها مبلغا كبيرا، وكانت الفتاة تبكي وتصرخ كارهة الزواج منه قائلة: هل يمكن أن يلمس جسمي الرشيق تاجر مسن بدين؟ ولكي يهوّن والدها من غضبها أعطاها بعضًا من الذهب وقال لها أذهبي إلى السوق وإلى أفضل الخياطات واطلبي منها عمل فستان زفاف لم يسبق لعروس أن ارتدت مثله من قبل.

وجففت الفتاة دموعها واصطحبت أخواتها وعمتها وصديقاتها وذهبت إلى محل أفضل الخياطات وقالت: أرغب في فستان عرس لم يرتدَ من قبل على سرير الزواج، ودار الكثير من الهمس والكلام والنقاش بين العاملات، وفي النهاية همست كبيرة الخياطات بفكرتها إلى إحدى الفتيات وهمست الفتاة إلى فتاة أخرى، وبهذه الطريقة فقد عرفت جميع العاملات في مشغل الخياطة الفكرة فصفقن لها وصرخن قائلات: يا لها من فكرة جميلة! يا لها من فكرة ممتعة. يا لها من أداة لطيفة!

وفي ليلة الزواج وبعد انتهاء مراسم الاحتفال، أخذ جاسم عروسه إلى

غرفة النوم وخلع عباءتها، وكانت ترتدي فستانا جميلا من حرير براق، متوافق لونه مع جلدها الذهبي. وكان جاسم سعيدا برؤية ذلك الفستان المصمم من الحرير الخالص، والخالي من الزخارف، وليس فيه أي أثر للترتر. ووضع زوجته على السرير ورفع فستانها وكان يلتف على وسطها حزام حريري عريض ذو جيوب وحاول فكه إلا.أنه مربوط بإحكام لا يستطيع فك عقده إلا بشق الأنفس.

ولشدة تلهفه أمسكت يداه بالحزام وقام بسحبه بشدة حتى انقطع، ويا لهول ما رأى.لقد خرج من جيوب هذا الحزام ترتر كثير براق غطى السرير وغطى جسد عروسه الجميلة وحتى شعر رأسه نفسه؛ حينئذ فر جاسم من غرفة النوم لا يرتدي غير الصديري. لقد وضعت خياطة الفساتين الماهرة أكياسا ورقية مليئة بالترتر في حزام وسط العروسة؛ ورغم ذلك فإن الفتاة لم تفهم لماذا فر جاسم من غرفة نومه يهذي بكلمات غير مفهومة. وفي الصباح وجدوه يتجول عاريا في الشوارع ويصدر أصوات كنباح الكلب؛ فكبلوه وأخذوه إلى دار المجانين.

حكاية داود الجمل وسوء الحظ

ذات مرة في الموصل كان هناك عربي مسيحي اسمه داود السليمان وقد عمل كصايغ في السوق، وجميع سيدات الموصل تزرن دكانه وتشترين منه الذهب المرصع باللآلئ كأقراط الآذان والعقود والقلائد من الذهب والجواهر النادرة. فكانت صنعته رائجة وثروته كبيرة، عاش في حياة هانئة مع زوجته المثالية والجميلة، تغمره السعادة والمودة.

وفي أحد الأيام وبينما كان داود يجلس في دكانه وقت صلاة المغرب ويضع الذهب والمجوهرات في صندوق حديدي، وكان صبي الدكان يغلق الباب الحديدي لأن الليل قد داهمهما؛ جاءت إلى دكانه فتاة منقبة مثل فتيات المدن، وقد كانت تبكي وتتنهد وتحدثت إلى داود بصوت كصوت العندليب وقد أعطت لداود عقدا من الذهب واللآلئ، وخواتم وأقراط من الذهب وأحجارًا كريمة نادرة وقالت: يا نصراني خذ مجوهراتي هذه واعطني المال لأنني في أمس الحاجة إليه وفي عجلة

من أمري. أخذ داود المجوهرات والأحجار والذهب وتفحصها ووزنها حتى تأكد بأنها حقيقية.

وبعد ذلك أتجه إليها قائلا: أعلمي أيتها السيدة أن سعر هذه المجوهرات لا يقل عن خمسة آلاف ليرة؛ رغم ذلك فإنه ليس لدي الكثير من المال في دكاني لأنني فقط احتفظ بالمجوهرات هنا، لذا أنصحك أن تأتي إلى هنا غدًا بعد شروق الشمس وسوف آخذ مجوهراتك وأعطيك المال. ولكن الفتاة أنفجرت بالبكاء والنشيج بطريقة تمزق القلب وقالت: أيها التاجر اعطني المال الآن وإلا فإن حياتي ستنتهي، وحياة حبيبي ستدمر.

سألها داود عن أحوالها وردت قائلة: أيها التاجر اعلم أنني ابنة أسرة كبيرة واسمها محترم ويخشاه الناس وقد كنت نموذجا للفضيلة ورغم ذلك فقد حدث هذا وجاء اليوم الذي كنت أسير فيه في الشارع ورأيت شابا وجهه بجمال الغزال، وهبت ريح أطاحت بنقابي ونظرت عيناي إلى عينيه فألتقيا كاندماج مجرى جدولين معا، عندما سرت في الطريق شعرت أنه كان يتبعني، وكان أن أخطأت قدماي ولم أتمكن من السيطرة عليهما فقاداني إلى بساتين النخيل خارج المدينة. وهناك اجتمعنا وتحدثنا وتحاورنا أنا وحبيبي واعتدنا على أن نلتقي هناك كل يوم. ومن خلال افتراء أحمق عرف أبي وإخوتي هذا الأمر، وإنهم لن يقوموا بقتلي فقط وإنما يبحثون عن اكتشاف اسم حبيبي حتى يلقى مصيري، وبالتالي فإنهم ظلوا صامتين وسمحوا لي بأن أسير في طريقي ولكنهم يراقبونني عن بعد

في كل مكان، وعندما ألتقي حبيبي فإنهم سيتعرفون عليه ويقتلونه؛ ولكن من خلال الخدعة هربت منهم منذ نصف ساعة مضت، وبالتالي اعطني المال وقد أجد حبيبي وأهرب من المدينة.

وبعد ذلك تحدث داود وقال: إذا كنتِ ترغبين في المال في الحال، فليس أمامي سوى طريقة واحدة: تعالِ معي إلى الصراف وسيعطيني المال لأنه يعرفني جيدا ويثق بي وسأعطيه لك.

ووافقت الفتاة على كلمات داود، فأغلق دكانه وسارا معا عبر الشوارع في اتجاه سوق الصرافين وعندما كانا يسيران في أحد الأزقة انحرفا إلى زقاق ضيق فقابلهما رجلان، وعندما رأتهما الفتاة صرخت وجرت بعيدا بسرعة الغزال في اتجاه معاكس، وصرخ الرجلان: هذه أختنا مع حبيبها. وهجما على داود وأمسكا به ونظرا إلى وجهه قائلين: هذا هو الصائغ المسيحي، نحن نعرف بيته، ونعرف دكانه، ونعرف اسمه. وبالنسبة لداود فإنه أرتعش خوفا وقال: أنا بريء حقا، إنني لم أر أختكما مطلقا أو أعرفها أو أسمع عن اسمها، ولكن أحد الأخوة هوى بعصاه على داود قائلا: يبدو إنهما على وشك الموت، يجب أن يلتقيا بعزرائيل ملاك الموت ليقبض روحيهما. يا أيها الصائغ توقف عن التوسل غير الرجولي واذهب إلى بيتك، وهناك جهز نفسك، وقم بتسوية أعمالك، لن تفلت من عقاب الله. وبمشيئة الله سيكون موعدنا غدا وقت صلاة الفجر ستقابل الذي ينتظر مجيئه الجميع والذي يأتي لكل إنسان في وقت محدد، لا يمكن أن يتجنبه

جبان ولا أن يهرب منه شجاع. ونحن نعرف بيتك ونعرف دكانك وسنأتيك في هذا الوقت.

وعاد داود إلى منزله ويداه ترتجفان، والدموع تنهمر من عينيه. دخل وعانق زوجته، وشرح لها مصيبته فاختلطت دموعها بدموعه وتردد صدى نشيجه بنشيجها، واستمرا في حالة يرثى لها قرابة الساعة وهما في هم وغم. وبعد أن أنهكهما البكاء قالت زوجة داود له: يا حبيبي اهرب من هنا واذهب إلى مدينة أخرى، لأن هذه الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنقذ حياتك وهناك قافلة ترتحل من هنا في منتصف الليل والوقت صيف الآن؟ ضع المجوهرات في كيس واربطه جيدا ولنرحل.

وحمل داود ثروته بكيس، وغطى وجهه بكوفيته [شماغه] ووضع فوقها عقاله وارتدى عباءته وغادر منزله وذهب إلى السراي وأنضم إلى القافلة وسارت ليلا قاصدة بغداد.

وفي غضون يومين في مسيرهم وصلوا إلى ديار شمر في الجزيرة إلى منطقة البدو المغيرين الذين يمتطون أصائل الخيل ويركبون نجائب الإبل وقد اعترضوا القافلة ونادوا بصوت عال: من أنتم؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟ ولماذا جئتم إلى هنا؟ وبتصريح من؟ وصاح الضباط والجنود الأتراك الذين كانوا يحرسون القافلة قائلين: نحن نسير بأمر الحكومة، أفسحوا الطريق لنا وصرخ المغيرون: هل العثمانيين إذن حكومة؟ لتعلموا أننا نحن الحكومة هنا، وهذا عرفنا، ونحن نفرض الضرائب على من يعبر ديارنا، وأما بالنسبة

للقافلة فنحن نسمح بانطلاقها عندما تدفع الضريبة، وبالنسبة للجنود فإنه يجب نزع سلاحهم ونسمح لهم بالعودة من حيث جاءوا ولكن يجب أن يسيروا على الأقدام.

وقد رأى الضباط الأتراك أن رجال القبائل كانوا كثيرين ومسلحين ومجهزين جيدا، لذلك فقد أمروا جنودهم بالتخلي عن أسلحتهم صارخين: أيها المسلمون أنقذوا حياتنا. وقال رجال القبائل: لقد وعدناكم ولن ننكث الوعد. وترجل الأتراك عن خيولهم وعادوا سيرًا على الأقدام إلى الموصل وتركوا أسلحتهم ملقاة على الأرض.

وبعد ذلك صرخ رجال القبائل منادين: أيها التجار أنزلوا حمولة الإبل وافتحوا الأكياس حتى يمكننا أن نفتش البضائع ونحدد الضرائب. وأنيخت الإبل، وبدأوا في فك البضائع المحملة. وكان داود يقف بجوار حمولة أواني من النحاس، ورأى أنها أواني مياه نحاسية لها عنق ضيق طويل، لا يمكن أن تمر عبرها اليد لأن لها امتداد طويل مستقيم والتي لها استخدام واحد فقط، وهذا معروف لك: لأنها تستخدم للنظافة بعد قضاء الحاجة (في المرحاض) وفكر داود بهذه الطريقة: لماذا لا أضع الجواهر في هذه الأواني لأن البدو لا يستخدمون أواني المياه هذه، ولن يفرضوا الضريبة على هذه السلع.

أخذ داود كيس الذهب والمجوهرات وجعله طويلا ورفيعا وحنى رقبة أناء الماء لأسفل ولم يره أحد وهو يفعل ذلك. وجاء رجال القبائل وفتشوا

الأحمال ونادوا: أيها التجار الضريبة نصف لنا ونصف لكم، لقد فشلتم في إبلاغنا عن مجيئكم لذا توصلنا إلى اتفاق آخر، وقاموا بتفتيش الأحمال وأخذوا من كل حمل نصفه وتركوا النصف الآخر. وهؤلاء البدو أخذوا هذه الأشياء التي ترغبها قلوبهم مثل: الحرير والكتان وقماش الموصل والسجاد والموكيت والسكر والتبغ والساعات والسروج والبطاطين واللوز والعسل والخيوط والإبر والجبن والفحم وحتى المظلات، وعندما جاءوا إلى أواني المياه ضحكوا وقالوا: نحن نسمح لهذه السلع بالمرور معفاة وبدون ضرائب. وفتش الرجال المغيرون رجال القافلة وكل السلع والبضائع وأخذوا منهم محافظ جيوبهم وفتحوها قائلين: هذه العملات الذهبية تحمل شعار العثمانيين لذا سيتم مصادرتها لأننا لا نسمح بتداولها في أراضينا. وحين جاءوا إلى داود وفتشوه لم يجدوا معه سلعا ولا ذهبا، فسألوه قائلين: أيها التاجر أين سلعك وأين ثروتك؟ ورد داود قائلا: أنا لست تاجرا ثريا إنما أنا فقط نحاس فقير أصنع ما يكفي حاجتي وأذهب إلى بغداد لزيارة أمي المريضة وليس لغرض التجارة. وقد أخذوه وأبعدوه قائلين: أيها النحاس الذي يرتدي ثوب كتان ناعم تعال معنا وسنعطيك الطعام الكافي لاحتياجاتك ونتمنى من الله أن يشفي أمك.

وعندما انتهى البدو من القافلة سمحوا لها بالمغادرة،ولم يسمحوا لداود بمرافقتها، وارتحلت القافلة ومعها أواني المياه النحاسية التي في أحدها كنزه. وظل داود مع البدو ـ مع شمر بالذات ـ لعدة أسابيع. ويقدمون له وجبات الطعام، ولكنهم جعلوه يحمّل الإبل وينزل حمولتها ويبني بيت

الشعر ويقوضه، ويقوم بالأحمال الثقيلة، وجعلوه ينظف الأطباق والأواني ويقوم بالطهي وفي الترحال الطويل يقوم بمصاحبة الأغنام كراعٍ ولم يسمحوا له بالركوب.

وعند الغروب كانوا يقولون له: ألم تكن تاجرًا ثريا وليس نحاسًا فقيرًا، قل لنا الحقيقة وسندعك تذهب إلى بغداد بعد دفع الضريبة. يا للشفقة أنك تقيم هنا وتعمل هنا، نتمنى من الله أن يشفي أمك المريضة. وذات مساء عندما كان متعبًا من العمل في حرارة النهار ألقى داود بنفسه تحت أقدام شيخ القبيلة صارخًا: أيها الشيخ الكريم عاقبني إن شئت لأنني خدعتك. فقد كنت ثريًا حقًا وأملك الكثير من الجواهر والأحجار الكريمة ولكن أخفيت ثروتي عن محصلي الضرائب في وعاء الماء النحاسي مع القافلة التي غادرت. والآن حيث مضت عدة أسابيع فإنني قد لا أجد كنزي مرة أخرى، وضحك الشيخ كثيرًا على كلمات داود وقال: يا لسوء حظك العاثر أيها النصراني إن فرصة العثور على إناء الماء ضعيفة جدا، إن فرصة إيجاد إناء الماء هذا في مدينة السلام أقل من فرصة الحصول على درهم سقط في عاصفة رملية. سأسمح لك بالمغادرة. سأؤجل دفع الضريبة، ولكن إذا وجدت إناء الماء فإنني أمرك بدفع الضريبة وهي فلس نحاس واحد إلى وكيلي في بغداد واسمه كذا وكذا لأنني أرغب في أن أعرف نتيجة هذا الأمر، وبعد ذلك أعطى الشيخ داود خمس ليرات من الذهب وخمس خيول أصائل وسمح له بالرحيل.

امتطى داود جوادا مغادرا ديار شمر في الجزيرة، وقد تمنوا له السلامة في رحلته. وبعد مسيرة عدة أيام وصل إلى بغداد، ودخل المدينة ووجد مأوى في بيت صديق مثله مسيحي من الموصل، وباع خيله بسعر جيد. وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى سوق الأواني النحاسية مفكرًا: يجب أن أكون حريصًا على عدم إظهار هدفي وإلا إذا أفصحت عما أبحث عنه فإن الكثيرين يبحثون عن المفقود وبين العديد من الباحثين قد لا أجد شيئا.

أخذ داود يتجول في الأسواق الشعبية ورغم ذلك لم ير التاجر صاحب حمولة أواني الماء النحاسية ومر يوم ومر يوم آخر ومر أسبوع ومر شهر وفي كل يوم يتجول داود في الأسواق ورغم ذلك فإنه لم ير هذا الوجه الذي تمنى أن يراه بين جميع الوجوه. وعندئذ يئس من العثور على التاجر. وبينما هو جالس في القهوة يفكر في قدره، جاءه رجل وحياه قائلًا: ألم تكن من ضمن القافلة التي استوقفها شمر؟ أليس أنت الذي سجنوك لديهم؟ ونظر داود لأعلى ورأى صاحب حمولة أواني الماء فحياه بحرارة وطلب له الشاي.

وبعد محادثة واستفسارات عن الصحة سأل داود التاجر قائلا: هل لا يزال لديك حمولة أواني الماء؟ لأنني أفكر في شرائها حيث أن عملي ضعيف وسوف أقوم بأخذ هذه الحمولة من منزل إلى منزل حتى يمكنني أن أحقق ربحًا قليلًا. رد التاجر قائلًا: بالنسبة لأواني الماء فقد فتحت محلًا صغيرا (كشكا) وبعتها جميعًا وبعتها بخسارة حيث لم يتوافر لدي مالًا

للغذاء أو مصاريف منزلي. وقال داود: قل لي من كان المشتري؟ لأنني أشعر أن قدري يتوقف على هذه الأواني. ولكن التاجر أجابه قائلًا: من يعرف أو يتذكر أو يهتم بمن يشتري إناء الماء لأن هذه السلع تباع نقدا وليست بالتسليف؟ ألم تأتِ النساء ويساومن على سلع صغيرة من يتذكر هذه المعاملات.

نهض داود مغادرًا المقهى وقلبه مثقلًا بالحزن وتجول في شوارع بغداد مفكرًا: أين ثروتي؟ وكيف لي أن استردها؟ وفكر على طريقته: إن أواني الماء لا تسمح لليد بالدخول ولا تتطلب تنظيف لأنها تستخدم فقط في المرحاض ولا يمكن استخدامها في مكان آخر حيث ليس لها التجهيزات المناسبة كتلك المستخدمة لغسيل الأيدي بعد الطعام. إن من ترغب في شرائها لن تقوم بتنظيفها وستضعها في المرحاض وتملأها بالماء وسيمنع المنديل الذهب من الارتجاج أو إحداث صوت رنين وبالتالي أياً كان المالك لن يكتشف الذهب. لماذا لا أذهب من منزل إلى منزل وأدخل المراحيض بالخداع وفي خصوصية المرحاض سأفرغ الإناء من الماء وأحرك فيه عصا لاكتشف ذهبي.

عاد داود إلى السوق واشترى علبة إبر ووضعها في قبضة يده وذهب إلى الشارع وطرق على باب أحد المنازل صارخًا: «إبر للبيع» وعندما فتح الباب قال للعبد الذي فتح له الباب: اسمح لي باستخدام المرحاض وعندما دخل المرحاض وأغلق بابه أفرغ الإناء من الماء وحرك فيه العصا

ولم يجد كنزه. وبعد ذلك ذهب لمنزل ثان ومنزل آخر وآخر وبهذه الطريقة حتى الشارع التالي وفي يوم واحد زار أربعين منزلًا.

لفت داود انتباه الأطفال والأولاد الذين كانوا يلعبون في فناء المنازل والشوارع وأخذوا يناقشون كثرة دخوله المراحيض قائلين: إن بائع الإبر هذا يدخل إلى منزلنا ويدخل مرحاضنا وفي اليوم التالي ولعدة أيام ولعدة شهور يدخل مراحيض منازل أخرى. وأدرك الأطفال ما يقوم به قائلين: بائع الإبر المسيحي يدخل إلى كل منزل ويدخل المرحاض ويستخدمه ويذهب إلى المرحاض ويفرغ إناء الماء وبعد ذلك يذهب إلى بيت آخر ويتصرف بهذه الطريقة في كل بيت. وأخذ يتساءل بعض الأطفال وهم في الشوارع: ألم تفرغ معدة داود مطلقًا؟ ورد عليهم الآخرون: إنه مثل الجَمَل، فالجمل لا يريد أن تسقط سقطه (دمنه) في مكان واحد ولذلك ينشرها بذيله عندما تسقط. ووافق رأيهم أطفال آخرون قائلين: إن داود مثل الجمل حقا لأنه لا يريد أن تسقط سقطاته في مكان واحد.

وهكذا عندما يسير داود في الشوارع يجري خلفه الأطفال مرددين:

داود الجمل، داود الجمل

أين ستسقط سقطاتك اليوم

واسود وجه داود خجلًا وتوقف عن زيارة البيوت والمراحيض، وجلس حزينًا في منزل صديقه لا يخرج منه خلال ساعات النهار حتى

لا يتبعه الأطفال بهتافاتهم الساخرة وفكر بطريقته: لقد زرت كل منزل وكل مرحاض في الكرخ وقمت بزيارة نصف المراحيض في باب الشرقي والكرادة. هل تبقى العديد من المراحيض في بغداد؟ إن فرصتي في إيجاد ذهبي تزداد مع كل منزل أزوره.إذا زرت جميع البيوت ما عدا واحد فإنني أعلم أنني سأجد ثروتي في هذا البيت الأخير، كيف يمكن أن تكون في مكان آخر؟ وكيف يمكن أن أرفع يدي من مهمة أنجزت نصفها؟ لأنه ربما أجد الكنز في مرحاض تال وليس في آخر؛ وبالتالي يجب أن أستمر في هذه المهمة ولكن هتافات الأطفال الفظة لا تسمح لي بالعمل في ساعات النهار لذا يجب أن أذهب كلص في الليل لفحص أواني الماء.

وفي إحدى الليالي عندما كان القمر ينير السماء والناس نائمون والمدينة تغط بسبات عميق خرج داود من منزل صديقه. وذهب إلى منزل من تلك البيوت التي لم يزرها بعد وقام بتسلق سور مرتفع ودخل إلى الفناء وفكر في المرحاض وعندما كان في المرحاض وجد مصباح وأضاءه وأفرغ الإناء من مائه. وتصادف أن ربة البيت استيقظت من إثر ألم في معدتها كأعراض إسهال وهي في منتصف الليل، فنهضت من سريرها وذهبت إلى المرحاض ووجدت بداخله رجلا وكان في يده إناء الماء فأطلقت السيدة صرخة سمعت من أبعد مكان في بغداد لدرجة أنها أيقظت الفلاحين والصيادين خارج المدينة.

تناول رب العائلة وأبناؤه وخدمه أسلحتهم وخرجوا إلى الفناء ووجدوا

داود في المرحاض وطوقوه صارخين: حرامي، حرامي. ولكن أحد الخدام نظر إلى داود وفتش ملابسه وحذائه وقال.هذا ليس لصًا: هل يرتدي اللص هذه الأحذية؟ وهل يرتدي اللص ملابس مثل ملابس التاجر؟ ونظر رب العائلة ورأى أن داودا لم يكن لصًا فاستشاط غضبا وقال أيها الوغد أنت تعلم أن لدي بنات جميلات وجئت بغرض شهواني وتختفي في المرحاض، سأدمر أعز شيء لديك لكي لا تقدم على هذا الفعل المشين مرة أخرى، وسحب سيفه وضرب داود ضربة في معدته حتى خرج منها الطعام وكان صوت ملاك الموت يدندن في أذنه.

وبعد ذلك نظر أصغر الأبناء وهو فتى في سن الرابعة عشرة إلى داود وقال: يا أبي لقد أخطأت في حقه هذا ليس داعرًا وإنما هو داود الجمل زائر المراحيض. ربما سيطرت عليه رغبة المرحاض فقط ولم تكن لديه النية للتعرض لأخواتي وقال كبير العائلة: لقد سمعت عن هذا الرجل، ويقال إنه مجنون حرمه الله من عقله ورشده وجنونه يتخذ شكل زيارة المراحيض. وأن تلحق الأذى بالمجنون من الأعمال الشريرة، ولكن بعد أن تهوي بضربة السيف لا يمكن استردادها.

وأمر سيد المنزل خدمه بأن يرفعوا داودا ويسيروا به في الشوارع لبيت مسيحي موصلي حيث مأوى داود وهناك تركوه واستدعى صديقه طبيبا وأحضر الماء ونظف جراحه ولكن الطبيب قال: أتوقع أن يكون ملاك الموت حاضر هنا، وأحضر صديقه كتاب الإنجيل وتلا عليه بعض

الآيات. ورغم ذلك فإن ملاك الموت في الطريق وكان داود ممددا على السرير يتأوه من الحمى والألم وظل يهذي: إناء الماء، إناء الماء، يجب أن أجد إناء الماء، ولم يفهم أصدقاؤه كلماته، فقالوا: إن الرجل على فراش الموت، عادة يسأل عن زوجته وأبنائه ومحبيه. لماذا ينطق بأواني الماء؟ ورد بعضهم قائلين: إنه مجنون اعلموا أنه قضى أيام حياته في المراحيض، ولكن زوجة صديقه قالت لأبنها: كلمات المحتضر هي الكلمات ذات المعنى والحكمة ويجب أن تحترم. اذهب إلى مرحاضنا وخذ إناء الماء الذي فيه والذي اشتريته قبل أيام قليلة من وصول صديقك وأفرغه من الماء واجلبه إلى هنا.

وذهب الابن إلى المرحاض وأفرغ الإناء من الماء وجلبه إليهم قائلًا: هذا هو إناء الماء الذي يستخدمه داود في كل يوم وقت الفجر فقط، ويستخدم العديد من أواني ماء في أوقات أخرى. أخذوا يرجون الإناء فوق داود كاللعبة عندما ترج فوق الطفل أو المجنون قائلين: انظر إلى وعاء الماء يا له من وعاء ماء لطيف! وعندما رجوه سمعوا بداخله صوت رنين وأحضروا عصا وأدخلوها فيه ووجدوا شيئًا بداخله وأحضروا سلكًا وصنارة وسحبوها للأعلى وكان فيها حزمة مربوطة في منديل مبللة بالماء ومثقلة بالذهب. وعندما أرادوا أن يخبروه كان قد فارق الحياة.

حكاية بين الحق «والزور أربعة أصابع»

في أيام العثمانيين كان هناك تاجر كبير في البصرة مؤمن بالله وحده، واسمه محمود، فاقت ثروته جميع تجار البصرة، ثراؤه ثراءً فاحشا. لديه زوجة جميلة غاية في الجمال كعنود الغزلان، عيناها جميلتان ساحرتان مثل ينابيع الماء في الصحراء، جلدها ناعم مثل بتلات الأزهار، صدرها كالرمان، وسطها رشيق رفيع، وساقاها مبرومتان، لا إمرة في الكون تضاهي جمالها. لا تستطيع العيش بدون زوجها، تموت إذا ما تم التفريق بينهما: إنها ليلى ابنة السبعة عشر ربيعا.

والتاجر محمود لديه وفرة من الأشياء التي تصنع له السعادة في هذا العالم؛ ورغم ذلك لم يكن سعيدًا ولم يسعد كذلك أصدقاؤه من كبار التجار والصرافين. كان يجمع بين البخل الشديد والشك في كل شيء. كانت تجارته واسعة، وقد اعتاد على أن يذهب إلى محلات الصرافة والبنوك

لتبديل العملات. فكان يعطيهم أكياسا من الذهب التركي قائلًا: إليك ألفين من الليرات الحميدية أعطني ما يعادلها من الروبية الهندية أو التومان الفارسي. وكان كبار الصرافين يأخذون الأكياس ويضعونها مع ذهبهم دون أن يفتحوها أو يعدوها لأن هذا أسلوب التعامل والعرف التجاري بين الشرفاء؛ ولكن عندما يعطون محمود كيسا قائلين: خذ الخمس وعشرين ألف روبية. فإن محمودًا يقوم بفتح الكيس ويعد الروبيات واحدة واحدة متفحصًا كل عملة ليتأكد من صلاحيتها فيتجمع الناس ليراقبوه قائلين: انظروا كيف يعد محمود النقود؟ لابد أن يكون الصراف غشاشًا وإلا لما يتصرف التاجر هكذا!

وأظهر الصرافون غضبهم نحو محمود قائلين: منذ كم سنة ونحن في السوق؟ ألم تكن أسماؤنا معروفة حتى تعاملنا كلصوص؟ ورد عليهم محمود يقول المثل: «إن بين الحق والزور أربعة أصابع» لأنك إذا وضعت يدك اليمنى على رأسك فإن المسافة بين أذنك وعينك تقاس بأربعة أصابع. إن ما تسمعه بأذنيك يمكن أن يكون خاطئًا ولكن ما تراه بعينيك يكون حقيقيا وليس هناك أي مجال للشك فيه. لذا توجب علي أن أرى هذه الروبيات الفضية.

أحد الصرافين واسمه داود وهو نصراني كان غاضبًا من أخلاقيات محمود وعاداته فقال لأصدقائه في السوق: إن محمودًا وثني المعتقد، فسلوكه يدل على أنه ليس منكم أيها المسلمون، وليس منا نحن المسيحيون.

لأنه لا يوجد إيمان بأي شيء في العالم إلا فقط بخالق واحد، وفي كل شيء نرى أو نسمع هناك شك؛ وعلى الرغم من ذلك فإننا نقوم بإجراء معاملاتنا. يجب أن نؤمن بكلمات بعضنا ونثق بها وأن نتحمل شيئا من المخاطر المترتبة على ذلك. إن عد خمس وعشرين ألف روبية يستغرق ساعات وإذا كنا جميعًا نتصرف بهذه الطريقة فإن عملنا اليومي يمكن أن يأخذ منا سنة حتى يكتمل، لذلك يجب أن نلقن محمود درسًا تحذيريًا. إذا استمع إلى الدرس التحذيري جيدا وأفاد منه فإنه سيكون مثل أي ابن آدم الذي ليس هناك شيئًا مؤكدًا له إلا الموت بإرادة إله واحد، ووافق أصحاب البنوك والصرافين على مقترح داود، وقالوا: يجب أن يلقن درسا.

في اليوم التالي جاء محمود إلى السوق إلى محل داود وقال: إليك عشرة آلاف من ليرات الذهب الحميدية أعطني مقابلها دنانير عربية. وضع داود الكيس مع ذهبه دون أن يعد ما فيه، وأخذ أربعة أكياس كبيرة من الفضة وأعطاها لمحمود قائلًا إليك أربعة أكياس كل منها تحتوي على أربعة عشر ألف دينار عربي فضة، هذا هو صرفك.

أخذ محمود الأكياس الأربعة وبدأ في عد الدنانير الفضية وتفحصها ولفها في حزم وشكل أكواما من عشرة دنانير حتى يتمكن من عدها بسهولة وأخذ داود يراقبه. مضت ساعة كاملة ولم ينته من عد الكيس الأول، وبعد ذلك تحدث إليه داود قائلا: حقًا إن مثلك صحيح وهو: «إن بين الحقيقة والزور أربعة أصابع» وما لم يشهد الرجل بعينيه فإنه لا يمكن تصديقه،

ورغم ذلك فإنني أعتقد أن هناك أمرًا واحدًا يؤمن به سعادتكم وتفتقدون الأدلة عليه من عينيكم.

ورد محمود وقال: لا أصدق شيئا ما لم أره. وأنا أعد كل عملة من الأموال التي آخذها، وأقيس كل ياردة من الملابس التي اشتريها، وأزن كل كيس من الذرة أو السكر أو الأرز أو الشعير الذي يدخل إلى مخزني، كما إنني أراقب مخزني في الليل لأنني لا أثق في أن الحارس يظل يقظًا.

وبعد ذلك سأل داود: ولكن كيف تعلم أن زوجتك ليلى عفيفة؟ غضب محمود وأجاب: هل تشك في شرف زوجتي؟ سأفقدك حياتك لأنك تشك في شرفي.اسم ليلى مرادف للعفاف في البصرة. ولكن داود استمر وسأل بما إنها ليست الآن أمام عينيك كيف تعرف أنها في هذه اللحظة في حضن زميل فاسق؟

فكر محمود وأجاب: إنها عفيفة وهناك طريقة لاختبارها ويمكن أن اختبرها لأن هذه عادتي ولكن كيف يمكن أن يختبر الشخص شرف المرأة؟ لأنها ليست مثل كيس العملات التي يمكن أن نعده، وليست مثل لفة القماش التي يمكن أن نقيسها، وبعد ذلك كيف يمكن وزن شرف المرأة؟ وأجابه داود قائلًا: هناك طريقة.

وأظهر محمود اهتمامه قائلا: قل لي هذه الطريقة لأنني أفكر في كيفية اختبار شرف زوجتي. قال داود: اكتب خطابًا إلى زوجتك بأنك ستسافر إلى الكويت للقيام بنشاط تجاري وستمكث هناك مدة أسبوعين. وأرسل

الخطاب إلى زوجتك من خلال عامل المحل، وبعد ذلك اذهب إلى الدكان الذي يبيع ملابس التنكر وعد إلينا بشكل غريب وملتح، ومن ثم سأرشدك إلى الطريقة التي يمكن أن تختبر زوجتك.

كتب محمود الخطاب وغادر محل داود ذاهبًا إلى دكان ملابس التنكر. في هذه الأثناء أعطى داود الخطاب لمساعده في المحل وقال له: سلم الخطاب إلى السيدة ليلى، واقتطف حبة ليمون من الشجرة التي تنمو أسفل نافذتها ولا تدع أحدًا يراك واجلبها لي وأجعل الأمر سريًا. وغادر مساعد داود المحل لينفذ أوامر سيده. وبعد ذلك ذهب داود إلى تاجر القماش في نهاية السوق وقال له: ألم تأتِ السيدة ليلى زوجة أخينا المبجل محمود التاجر إلى دكانك واشترت حريرا أحمر مرصعا بنجوم من الفضة منذ عشرة أيام؟ على الرغم من أنها كانت منقبة إلا أنني عرفتها من طريقة مشيتها؟ لقد رأيتها عائدة ومعها تلك الأقمشة التي تصنع منها السيدات الفساتين الجميلة. فأجابه التاجر قائلا: لقد جاءت هنا وبعت لها عشرين مترًا، إنها تحب هذا النوع من ملابس الحرير. قال داود: أعطني لفة من ذلك الحرير لأعرضها على زوجتي. لقد ألحت علي أن أقدم لها هدية وأنا في حيرة من أمري. لا بد أن أعرض القماش عليها أولا وأحصل على موافقتها؛ لأن الرجل الذي يشتري قماشا لامرأة بدون موافقتها كمثل الذي يقدم عناقيد العنب لنمرة جائعة. قام التاجر بقطع لفة القماش وأعطاها لداود. وعاد داود إلى محله وفي الوقت نفسه عاد مساعده من بيت محمود.أخذ داود منه الليمون وذهب إلى منزله الذي يقع خلف محله، وأمسك بقطته

وسحب شعرة منها(شاربها)، وأخذ لؤلؤة ولفها في قطعة القماش ووضعها مع شارب القطة والليمون الحلو في المنديل وتركها في بيته.

وبعد فترة عاد محمود من دكان ملابس التنكر، ودهش داود عندما رآه فلم يكن بمقدور أحد التعرف عليه، وبدا كرجل فارسي ملتح. جلس محمود في دكان داود متسائلا: الآن ماذا أفعل لاختبار زوجتي؟ أجاب داود: أرسل إليها الآن رسالة ترمز إلى حبك لها. سأل محمود: وما هو هذا الرمز؟ وكيف أرسل رسالة حب رمزية؟ أجابه داود: يبدو أنك محب جاهل. و نادى على مساعده وأمره قائلًا: اذهب واحضر لي وردة وقارورة من الزجاج البلوري تحتوي على ماء نظيف نقي وعثا وقارورة نبيذ ومنديل حرير.

وبعد نصف ساعة عاد مساعد دواد ومعه ما طلب منه ووضعها أمام سيده. استخرج داود من خزانته تومان فارسي فضي ووضعه على المائدة مع المواد الأخرى. اتجه داود المسيحي إلى محمود المسلم وقال له: اعلم أن هذه هي الرسالة كتبت من هذه المواد بلغة الحب العالمية التي يتكلمها الناس في أراضي العرب والترك والهنود والفرنجة والصينيين، إنها اللغة التي يفهمها المحبون والنساء في كل أنحاء العالم. رسالتك تقرأ كما يلي: أنتِ المحبوبة اللطيفة مثل بتلات الزهور. وأنا متعطش إليكِ كالغزال الظمأى إلى الماء العذب. وأنا منجذب نحوك مثلما تجتذب الشمعة الفراشة. وأنتِ تسرّعين من ضربات قلبي مثلما يسرعها النبيذ. وأنا فارسي وغريب.

وبعد ذلك لف داود المواد في منديل الحرير وقال لمحمود: سأعطي المنديل بما يحتويه لإحدى خادماتي لتذهب إلى منزلك ـ ودون أن تكشف هويتها ـ تسلمه لزوجتك. وسننتظر الرد وسنعرف فيما هي عفيفة أم لا. قال محمود: أنا موافق على ما ستقوم به؛ لأنني أرغب بمعرفة الحقيقة. أخذ داود المنديل وذهب إلى بيته ولكنه لم يعطها إلى الخادمة، وبدلًا من ذلك فقد وضعها في خزانة وأغلقها، وعاد إلى محله وجلس بجانب محمود، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث في مختلف الأمور.

وبعد مضي ساعتين قال داود: سأذهب لاستكشاف إن كان الخادم قد عاد أم لا. ودخل بيته وذهب إلى غرفته وأخذ منها المنديل الآخر الذي يحتوي على شارب القطة والليمون الحلو وقطعة الملابس واللؤلؤة وعاد إلى المحل وسلم المنديل لمحمود قائلًا: هذا هو الرد.

فتح محمود المنديل وذهل مما رأى وقال: ماذا تعني هذه الأشياء؟ هذا الليمون الحلو مثل ليمون الأشجار التي بقرب نافذتي، وهذه الملابس مثل ملابس زوجتي، ولكن ما هذا الشعر؟ نظر داود إلى المواد وقال: اسمح لي بأن أترجم لك هذه الرسالة لأنه يصعب عليك فهم لغتها: هذا الشعر هو شارب القطة ومعناه هو: تسلل إلى سرًا في الليل كالقط. والليمون الحلو يعني تسلق الشجرة لتصل إلى نافذتي. وكانت قطعة الملابس ملفوفة. بداخلها شيء، وفتح داود قطعة القماش وقال: معناها هو عندما تخلع الملابس ستجد لؤلؤة جميلة.

استشاط محمود غضبا وأسودّ وجهه ووضع يده على خنجره صارخا: سأذهب الآن لأقتل هذه العاهرة وأطهّر شرفي من دنسها. ولكن داود قال: تمهل يا رجل، يجب أن لا تصدق ذلك حتى ترى خيانة زوجتك بعينيك. أنت الآن ترتدي ملابس كرجل فارسي ولا يمكن لزوجتك التعرف عليك، اذهب ليلًا وتسلق الشجرة وادخل من نافذتها وإذا استطعت خلع ملابسها دون أن تصرخ وتستنجد بالخدم فهي غير شريفة. قال محمود: ولكن رسالتها كما فسرتها أنت تدل على ذلك! أجابه داود: ربما تريد أن تخدع زميلًا فاسقًا لتلقنه درسًا في الأخلاق، يجب أن تتأكد قبل أن تقتل زوجتك.

تمكن محمود من ضبط نفسه منتظرا مجيء الليل على مضض. أما داود فقد أبلغ الصرافين الآخرين بأحداث هذه القصة المعروفة، فأخذوا يضحكون حتى كادت تنقطع أنفاسهم، وسألوا داود: ماذا تتوقع أن يحدث في منزل محمود هذه الليلة؟ ورد داود: سيتسلق شجرة الليمون ويدخل النافذة، ولكن قبل أن يتمكن من تجريد زوجته من ملابسها ستصرخ مستنجدة بالخدم، وسيهبون لنجدتها ويضربونه لأنهم سيعتبرونه غريبًا وسيلقن درسًا يصعب نسيانه. إن هذا الساذج لن يستطيع حبك قصة لزوجته تنقذه من ورطته وسيحكي لها الحقيقة وهنا سيزداد غضبها عليه. ستظل هذه الحادثة ماثلة في ذاكرة زوجته، وستذكرها بمرارة ولسنوات قادمة كلما نشب بينهما شجار. وقال الصرافون لداود: لقد أحسنت صنعا بإعدادك درسًا جيدًا لزميلنا في التجارة.

جلس محمود التاجر في المحل، وهو يعض أصابعه متململا من طول الانتظار، وكاد ينفد صبره .وما أن أرخى الليل سدوله وأغلقت المحلات أبوابها، وذهب الناس إلى أسرهم وأخذت المدينة تغط في سباتها، حينئذ ظهر القمر.

أمسك محمود بمقبض خنجره واتجه مشيا على الأقدام نحو منزله مفكرًا: الآن ستشهد عيناي الحقيقة، وصل إلى بيته وكان كل شيء هادئًا، فتسلق شجرة الليمون نحو شرفة غرفة زوجته، وكان التاجر ذا جسم ضخم، ولم يتسلق الشجر منذ صباه. قام بتسلق الشجرة برفع نفسه لأعلى بصعوبة، أمسك بيده اليمنى بحافة الشرفة فوقه، ولم تكن لديه القدرة على رفع نفسه لأعلى. ودفع بقوة بأرجله المتشبثة على فرع الشجرة تحته لأعلى حتى يمكن أن يصعد إلا أن الفرع قد انكسر، وأصبح معلقًا بحافة الشرفة ومتشبثا بأصابع يده اليمنى.

وسمعت الزوجة ليلى كسر الفرع وخرجت، ولم تفزع أو تصرخ، لأنها امرأة عربية أصيلة، وكان بيدها سيف وعندما رأت أصابع الرجل تمسك بالشرفة هوت عليها بالسيف فقطعت أصابع يده الأربعة بضربة واحدة فسقط على الأرض. ونادت ليلى على الخدم وخرجوا بالعصي وأوسعوه ضربًا وهو ملقى على الأرض. هنا نزع محمود لحيته ليعرفوه. وسألته ليلى عن سبب تنكره بينما هي تقوم بتضميد أصابع يده المقطوعة قال لها الحقيقة، وتحدثت إليه بمرارة بكلمات الازدراء والتوبيخ اللاذع.

وفي الصباح ذهب محمود إلى سوق التجار ليستبدل النقود، ورأى التجار أن يده اليمنى قد لفت برباط وأصابعه مقطوعة. وعندما استلم محمود أكياس النقود من الصرافين لم يفتحها ولم يعد النقود. وعندما سألوه عن سبب فقده أصابعه لم يجب واكتفى بالصمت. وبعد أن غادر السوق.تجمع الصرافون يناقشون حالته قائلين: لقد كانت نيتنا أن نعلمه درسًا وبالفعل فقد تعلم درسا قاسيًا لن ينساه. وبعد سنوات كلما تناقش محمود مع رجل قال له معلقا: بين الحق والباطل أربعة أصابع ويلتزم الصمت كي يتملص من الموقف.

حكاية عبد الرحمن ولسان الميتة

يقول الراوي: ماذا تعرفون عن الحياة أنتم أيها الأبناء؟ لقد كنتُ عجوزًا قبل الحرب الألمانية الأولى، وأعرف البلد وتاريخه، ورغم ذلك تقولون: ليس هناك مِسخ[1] في بحيرة «هور الحَمّار» وقد رايته بأم عيني قبل ثلاثين عامًا لأن هذا المسخ يتخذ هيئة امرأة تنادي الرجل الذي يتصادف دخوله البحيرة وكل اثني عشر عامًا لا بد أن يأكل رجلًا. وقد رأيته يظهر على حافة البحيرة عند غياب القمر، ولم أتتبعه لأنني أعرف تاريخه، وأعرف أن الرجل يتوجب عليه أن يحمل سلاحا ولو إبره عندما يخرج بعيدا عن بيته ليلا. أنتم لا تعلمون شيئًا عن هذه الأشياء. وأنتم مثل "عبد الرحمن أبو سلطان» الذي بلغ من شدة جهلة أنه لم يكن يرغب إلا في الثراء، وبلغ من شدة الجهل والحماقة أن حاول سرقة الموتى متجاهلًا التحذير من أن الإنسان لا يجب أن يمارس السحر والأشياء الغريبة، أو يتدخل في حياة الكائنات التي تعيش في أقصى الأرض، أو يزعج أولئك الذين ينتظرون يوم القيامة.

---

(1) المِسْخ: شخص في منتهى البشاعة أو التشويه الخلقي أو الوحشية ذو نزعة إلى الشر. [المترجم]

كان عبد الرحمن أبو سلطان نجارا في البصرة، عاش في بيته مع زوجته المحبوبة الشابة وطفليه الجميلين، ورغم ذلك فإنه لم يكن سعيدًا لأن دخله كان ضئيلا، وبيته متواضعًا مصنوع من حصير البواري، ولم يكن طعامه سوى التمر والخبز. وحل فصل الشتاء وهطلت الأمطار وأصبح كل شيء في بيت عبد الرحمن مبتلًا حتى بطانيات سريره لأن الحصائر لا تحجب الأمطار كما أن الرياح الباردة عصفت بحوائط بيته وكان في حالة يرثى لها.

ذهب عبد الرحمن إلى المقهى ليتمتع بالدفء والاجتماع هناك بأصدقائه. وناقش حالته قائلًا: كيف يمكنني الحصول على المال لاشتري بيتًا يحميني من الأمطار، وخروف العيد، وملابس لزوجتي؟ وأجابه الأصدقاء: لو كنا نعرف الإجابة لما جلسنا هنا! يجب أن يعمل الرجل وإن كسب القليل من المال بما يكفي لاحتياجات البيت، وهذا هو مصير أي رجل في العالم.يعمل ويعمل رغم فقره. إن حياتنا حياة الكفاح والسعي لطلب الرزق، والثروة تأتي إلينا عندما يشاء الله. ولكن أحد الرجال الجالسين في المقهى قال: «هناك طريقة للغنى تمنحك ذهبًا أكثر مما تستطيع حملة، وجواهر أكثر مما تستطيع عدها، وحكمة واسعة تجعلك سيد العالم. وكل هذا في يوم واحد فقط»، فسأله عبد الرحمن: «ولماذا لم تتخذ هذه الطريقة؟» فقال الرجل: «أنني راغب عنها لأنها تتضمن سرقة الأموات».

ورفع الحاضرون أيديهم إلى السماء يبتهلون إلى الله قائلين: اللهم نلجأ إليك لتحمينا من هذه الأعمال الشريرة. ولكن عبد الرحمن سأله قائلا: «إذا كنت تعرف الذهب الذي يخص الموتى، قل لي أين هو حتى يمكنني أن أحصل عليه فما حاجة الموتى إلى الذهب؟»

ورد الرجل قائلا: كنت أتجول في منطقة أثرية تدعى «تل المقيّر» وعندما وصلت طرفها الغربي الصحراوي كنت متعبًا فجلست على ربوة، وأردت أن أدخن فسحبت من جيبي علبة [قوطية] بداخلها ورق السجائر والتبغ [التتن]. وحاولتُ فتح العلبة لكنها كانت محكمة الإغلاق فضغطتُ بأصابع يدي بشدة على الغطاء فانفتحت وتناثرت محتوياتها على الأرض وكان من ضمنها «درهم» فضي سقط.تدحرج منحدرا إلى أسفل ودخل في فتحة في الأرض، وكنتُ حينذاك لا أملك سوى هذا الدرهم وكنت ملزمًا بالبحث عنه ووجدت أن الفتحة التي سقط فيها كانت كبيرة تتسع لدخولي. وكنت مترددا في اقتفاء أثره لأن الفتحة كانت مظلمة وموحشة؛ ولكن لا تنقصني الشجاعة ولا مال لدي لوجبة العشاء، فدخلت من الفتحة وأشعلت عود ثقاب[كبريت] ونزلت إلى أسفل. رأيت الدرهم فالتقطته من على الأرض، ورأيت أيضًا أن هناك ممرا كبيرا يؤدي إلى فتحة تحت الأرض، ففكرت: إلى أين يؤدي هذا النفق وإلى أين ينتهي؟ وأشعلت عود ثقاب آخر وسرت في النفق منحدرا.قطعت مسافة كبيرة تحت سطح الأرض حتى وصلت إلى آخره ووجدت بابا كبيرا مرصعا بالحديد والنحاس مكتوبا عليه باللغة العربية: «من يريد أن يدخل فليقبل

هذا الباب». وقلت: أن الحقائق لا تختفي عن ضوء الشمس في الكهوف المعتمة، لذا لن أتراجع عن فتح هذا الباب، وحاولت فتحه بيدي ولكنه لم ينفتح ولا توجد فيه فتحة لمفتاح، فوضعت شفتي على الباب وقبلته. شعرت بأنه يتحرك للخلف ويتأرجح حتى انفتح.ووجدت أمامي غرفة على طول جدرانها هياكل عظمية لرجال، وكان ملقى على الأرض عظام موتى، وفي الغرفة كانت هناك كومة كبيرة من الذهب والجواهر والأحجار النادرة، وفي أقصاها تجلس امرأة حسناء عارية لا تغطي جسمها بملابس، شفتاها بلون الدم. وسألتها قائلا: من أنتِ وماذا تفعلين في هذا المكان الشرير؟ وأجابت قائلة: «أنا من ستجعلك أغنى من الملك سليمان، وتمنحك ذهبًا أكثر مما تستطيع حمله، وجواهر أكثر مما تستطيع عدها، وحكمة واسعة تجعلك سيد العالم، وكل ما أطلبة منك هو أن تحتضنني وتقبلني وتنطق بهذه الكلمات: «أنني اقبل شفتيك وجسدك ولسانك» وبعدها ستمرر لسانك في فمي، وامرر لساني في فمك، وسأكشف لك عن معجزات الحكمة والثراء». وقلت لها سأفعل كل هذا، ولكن بشرط أن تنطقي أولًا بالبسملة لأعرف إن كنتِ روحًا خيرة أم شريرة، إلا أنها رفضت قائلة: أن لسانها لن ينطق بمثل هذه الكلمات، عندئذ أدركت أنها روح شريرة فهربت مسرعا من النفق عائدًا إلى سطح الأرض، إلى حيث ضوء الشمس، وحيث لا يمكن لأي روح شريرة أن تتلبس الإنسان.

وسمع عبد الرحمن أبو سلطان كلمات صديقه وقال له كنت تفتقر إلى الشجاعة والمبادرة لأن الإنسان الشجاع الحق لا يخشى شيء لا في

العالم المنظور ولا في العالم الخفي، وإذا ما تدلني على مكان النفق، فإذا ما دخلت على المرأة سأجعلها تنسى كل شيء عن الأسئلة، وسأنزلها عن كومة الذهب والجواهر، وقبل أن أعود سآخذ كنزها معي لأنني لا أخشى شيء.

ونفض الحاضرون في المقهى عباءتهم [بشوتهم] - إشارة لاستنكارهم - متعوذين من الشيطان، قائلين: لا حول ولا قوة إلا بالله، والله يحفظنا من الشرور. وقال صديق عبد الرحمن له: إذا كنت لا تزال مصرا على رأيك، ولن تستمع إلى صوت الحكمة، ولا تزال تسخر من هؤلاء الذين يحذرونك ويحاولون منعك من الأشياء الشريرة فسأدلك على مدخل النفق ولكنني لن أكلمك بعد اليوم ولن تدخل بيتي مرة أخرى، ولن أجتمع بك في المقهى أبدا، لأنك ستكون من الآن فصاعدًا رفيق بنات أوى والضباع. وكانت ملابس عبد الرحمن مبتلة ويرتجف من البرد، ويتضور جوعا فمعدته خالية، وقال لصديقه أطلب منك فقط أن تدلني على النفق.

وفي صباح اليوم التالي ركب كل من عبد الرحمن وصديقه بعيرا وغادرا البصرة متجهين غربا إلى تل المقيّر حيث تقوم خرائب مدينة أثريه وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصلا إلى التل والشمس توشك أن تغرب. قال عبد الرحمن لصديقه: أرشدني إلى الفتحة والممر والنفق والباب. ورد صديقه: هل ترغب أن تدخل النفق ليلا؟ قال: عبد الرحمن أنا لا أخاف. وأشار صديقه بأصبعه إلى فتحة في الأرض قائلًا: يجب أن تدخل من تلك الفتحة

وهناك ستواجه أمامك الغرائب والعجائب. أما أنا فسأعود إلى البصرة هذه الليلة، ولا يجب أن أتحدث إليك أو أسمع صوتك أو أرى وجهك مرة أخرى.وركب صديقه ورفيق طريقه جمله عائدا من حيث أتى. وترك عبد الرحمن وبعيره لوحده لا أحد من بني آدم بالقرب منه عدا قبور الأموات ووحوش الصحراء.

ودخل عبد الرحمن إلى الفتحة وسار في الممر المظلم الذي يقع تحت الأرض وقد كان باردًا ومبللًا من الداخل، وروائح القذارة والموتى والشر تنبعث منه. وجلس عبد الرحمن على الأرض وقلبه يرتجف من الخوف مفكرا في أن مصير كل إنسان سينتهي إلى التراب. وإن معدة الإنسان طاقتها محدودة تحوي طعام رجل واحد ولا يمكن أن يأكل أكثر، ولن يحب الإنسان فتيات لعدد غير محدود. وعندما أعود إلى منزلي بعد يوم من العمل وأتناول وجبة طعامي البسيطة فإن لها مذاقا خاصا قد لا يستمتع أغنى التجار في المدينة وهو يأكل أصنافا متنوعة من لحوم البط والحمام أكثر مما استمتع أنا بالتمر والخبز؟ وهل يمكن لرجل متزوج أسعد مني بزواجه إذا افتقر الزواج إلى الحب؟ فما السعادة التي يجنيها الرجل في المرأة إذا لم يكن هناك حب؟ إن الأغنياء الذين لديهم ثروات كبيرة ليسوا أسعد مني لأنني مثلهم تمامًا فما مصائر الثروة والحكمة والسلطة عندما تتضاءل قوة إبصار عيني الإنسان، وتضعف قدماه، وترتعش يداه، ويخفت صوته، وتأكل جسمه الديدان وحشرات الأرض كما تأكل جسمي؟ وفكّر عبد الرحمن: لماذا لا أعود إلى بيتي وأتخلى عن هدفي؟ ولكن الكل يذكر

كلماتي. كيف أنني أبديت استعدادي وشجاعتي أمام أصدقائي في المقهى، فإن عدت أليهم خالي الوفاض فسيسخرون مني بالتأكيد.

ومضى عبد الرحمن قدما في السير في النفق تحت الأرض إلى أن وصل إلى الباب الكبير وشعر بارتعاشة في يده، وبأوجاع في معدته من شدة الخوف، وضغط بشفتيه على الباب وقال: افتح! وتأرجح الباب وفتح. ووجد غرفة مضاءة بضوء أخضر وعلى طول جدرانها هياكل عظمية، وفي أقصاها، كومة من الذهب والجواهر والأحجار الكريمة النادرة تجلس عليها امرأة حسناء عارية لا تغطي جسمها بملابس، شفتاها بلون الدم. وسألها عبد الرحمن قائلا: من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟ فأجابته قائلة: «أنا من ستجعلك أغنى من الملك سليمان، وتمنحك ذهبًا أكثر مما تستطيع حمله، وجواهر أكثر مما تستطيع عدها، وحكمة واسعة تجعلك سيد العالم. وكل ما أطلبة منك هو أن تحتضنني وتقبلني وتنطق بهذه الكلمات أنني «اقبّلُ شفتيك وجسدك ولسانك» وبعدها ستمرر لسانك في فمي، وامرر لساني في فمك، وسأكشف لك عن معجزات الحكمة والثراء».

فكر عبد الرحمن في التراجع بعد إحساسه بالخوف والإرهاق؛ ولكنه تذكر أن أصدقاءه سيسخرون منه. أخذ المرأة بين يديه وقبّلها وأدخل لسانه بين شفتيها وشعر بها تبتلع لسانه وتجتثه من جذوره، فأصابه الخوف والرعب وحاول التفلت منها إلا أنه لم يستطع. وتُدخل المرأة لسانها بين شفتيه: لسان بارد مثل جسد حية ميتة ليحل محل لسانه، ويتحلل الجسد

بين يديه ويتحول إلى كومة عظام. ويكتشف عبد الرحمن أن لسان الميتة استقر في فمه باردا ومرعبًا، وتذهب كل جهوده لانتزاعه عبثاً، ويحاول تلاوة البسملة لطرد الشر إلا أن الكلمات لا تخرج من فمه لأن اللسان لم يعد لسانه، وينطق اللسان في فمه بصوت هو ليس صوته، قائلًا: «لتعرف أنني لسان الميتة، وسأفي بوعدي لك، وأعطيك قدرا من الذهب لا تستطيع حمله، وقدرا من الجواهر لا تستطيع عدها، وحكمة واسعة تكون بها سيد العالم، وفي ماعدا هذا يجب أن تطيعني، وعندما أقول اذهب شمالًا ستذهب شمالًا، وعندما أقول اذهب يمينا ستذهب يمينا، فرغم انك سيد العالم إلا أنني سيدك» ولا يملك عبد الرحمن أمام هذا إلا أن يبكي بصمت.

وأمره اللسان بأن يذهب إلى البصرة. وغادر الغرفة وخرج من النفق، وكان الوقت ليلا ووجد بعيره باركا وركبه وشرع برحلته التي استغرقت ثلاثة أيام. وكان طعامه التمر واللبن ولم يستطع تذوق الطعام إذ كان بدون نكهة. وفي مساء اليوم الثالث وصل إلى البصرة واتجه نحو بيته وعندما مر بالمقهى خرج الرجال قائلين: لقد عاد عبد الرحمن وصاح أحد الرجال ساخرًا: يا عبد الرحمن أبو سلطان أين كيس الذهب؟ ولكن اللسان رد قائلًا: هل تسخرون مني؟ سترون مَنْ يسخر مِنْ الآخر! هل تعلم أن من يجلس بجانبك قد نام مع زوجتك ليلة البارحة؟ ولكي اثبت لك ذلك: ألا يقع في منزلك سرير نومك الكبير محاذيا للجدار المصبوغ باللون الأحمر والذي لم يجف صبغه بعد؟ انظر إلى ذراع صديقك وكتفه وسترى

بقايا الصبغ فيهما. ونظر الرجل ورأى أن ما قيل صحيحًا؛ فاستل خنجره وطعن الرجل ببطنه قائلا: الآن أغسل شرفي من دنسك، في الوقت نفسه، استل الرجل هو الآخر خنجره وهوى على رقبة الأول، وكانت النتيجة أن الاثنين قد سقطا على الأرض مضرجين بدمائهما أحدهما مقطوع الرقبة والآخر ممزق المعدة والدماء تسيل على الأرض كالنهر. وقال اللسان لعبد الرحمن: هل يمكن لأحد أن يسخر من سيد العالم، ولكن عبد الرحمن لم يكن راضيا عما سببه اللسان لأن القتيلين هما صديقاه. وعاد عبد الرحمن إلى بيته ليجد زوجته المحبوبة وابنته عايدة وقد استقبلتاه مرحبتين متلهفتين لرؤيته وقالت زوجته: نحمد الله على عودتك بالسلامة، بوجودك ستغمرنا السعادة. ولكن اللسان صرخ بصوت عال: أيها الناس، أيها الجيران تعالوا واشهدوا، وكل من سمع اعترته الدهشة والذهول، ولكن بصوت عال بدأ اللسان في قول يمين طلاق زوجته.وانفجرت الفتاة عايدة في البكاء والعويل، ولكن الحاضرين قالوا: إنه من حسن حظها أن طلقها، انظروا إليه إنه مثل المجنون، ورغم أن الكلمات خرجت من فمه إلا أن حركة يديه كانتا تحاولان إيقاف ما تلفظ به اللسان وبدت علامات الرعب والاشمئزاز على وجهه. وعندما تم الطلاق خرجت ابنته عايدة من المنزل وهي تبكي، ودخل عبد الرحمن ورأى ابنه الجميل سلطان ـ في العاشرة من عمره ـ يبكي لأنه سمع كلمات الطلاق .حاول عبد الرحمن أن يتحدث إلى ابنه معتذرا عما بدر منه لكنه لم يستطع قول كلمة واحدة؛ وبدلًا من ذلك فإن اللسان تحدث قائلًا: يا بني إنني اختبر مدى طاعتك

لي! لذا اطلب منك أن تتسلق هذا العمود الخشبي المقام على البئر. وكان الطفل مطيعًا لوالده فتسلق العمود وجلس على طرفه العلوي. فكر عبد الرحمن: إن هذا اللسان لا يعنى إلا بأعمال الشر، فجرى نحو الطفل لحمايته من الشر ولأخذه بين يديه ولكن اللسان أصدر صرخة مفزعة مليئة بالشر والخوف، وعندما رأى الطفل سلطان أباه يجري نحوه بعد الصرخة المدوية الشنيعة اعتراه الخوف والهلع فارتبك وانزلق من العمود ليسقط في قاع البئر الجاف وتحطم عموده الفقري فمات. فخيم الحزن على عبد الرحمن ولم يرغب في الثروة ولم يرغب في أن يصبح سيد العالم. وكانت رغبته العارمة في أن يتخلص من هذا اللسان الشرير.

ثم هجر منزله وذهب إلى المدينة وحاول أن يدخل إلى المسجد وكلما حاول أن يدخل باب المسجد التف لسانه في حلقه حتى يخنقه ولا يستطيع التنفس. وحدث أنه عندما كان يسير على ضفة النهر رأى درويشا عابرا. رجلا عجوزا ذا لحية شيباء ـ وألقى بنفسه تحت قدميه وبصعوبة خط أمامه على الرمل كلمات طالبًا من الدرويش أن يقرأ آيات من القرآن الكريم لطرد لسان الميتة. وقرأ الدرويش وهو مندهش بعض الآيات من القرآن الكريم، وعندما سمع اللسان الآيات الكريمة اهتز واضطرب بعنف، وتسببت حركته واضطرابه بإلقاء عبد الرحمن بالنهر، وخرج اللسان من فمه وسبح بعيدًا، وظهرت أربع سمكات سود متوحشة طول كل منها ستة أقدام وانقضت على أطراف عبد الرحمن وقطعتها: اليدان واللسان. فأخذ الدرويش يسحبه من الماء، ولم تتعرض السمكات للدرويش بسوء، وتجمع الناس

حوله وحملوه إلى طبيب جراح ليعالج جراحة، وعندما سألوه عما جرى له لم يجبهم لأن لسانه مفقود، وعندما نظروا في عينيه أدركوا أن الرجل قد فقد عقله وبدا كالكلب المسعور، وبعد أن شفت جروح عبد الرحمن أخذوه إلى قارعة الطريق لعل أحد المارة يسقيه أو يطعمه شفقة عليه، ومن مكانه هذا راقب عبد الرحمن المارة وهم يلقون إليه بقطع النقود والذهب وأحيانا بالجواهر.

وتصادف أن مر به رجل حكيم مع مجموعة من المثقفين فقال: بهذه الطريقة تحققت لعبد الرحمن الوعود التي سعى إليها لذا أنصحكم أن تكتبوا لوحة كبيرة تعلق فوقه: ها هو عبد الرحمن يمتلك ذهبًا لا يستطيع حمله لأن لا يدين له، وها هو يمتلك جواهر لا يستطيع عدها لأن لا أصابع له، وها هو سيد العالم لأن الذين سلبوا نعمة العقل هم سادة العالم، فلا شيء مما يقيد الناس يقيدهم، ولا تشغلهم رغبه أو قلق.

حكاية عن اختبار الأصدقاء

رواها الشيخ سالم الصباح بتاريخ 12/ 10/ 1934

يحكى أنه في سالف الأيام، وسابق العصر والأوان تاجر ثري من تجار البصرة، له ابن مدلل هو وحيده، وكان التاجر لا يرد لابنه طلبا، مما افسد الابن برفقته لأصدقاء السوء. وما أن كبر الابن حتى أسرف في إنفاقه، وكان الوالد أيضا مسرفا بإعطائه أكثر مما يحتاج ويطلب.

وفي أحد الأيام طلب التاجر من ابنه أن يبدأ عملا خاصًا به يكسب منه عيشه بنفسه استعدادا للمستقبل. فأعطاه رأس المال اللازم وفتح له محلا تجاريا صغيرا، إلا أن الشاب المدلل لم يقم ببذل الجهد المطلوب لكسب عيشه كما وعد والده، بل كثر دائنوه ممن كان يطلق عليهم الأصدقاء، وأغلبهم من أصدقاء السوء الذين يدركون أن والد الشاب التاجر الثري سيسدد ديونه فأخذت تتراكم عليه الديون. في الوقت نفسه ازدادت طلبات الابن للمال من أبيه عما كانت عليه من قبل. وفي أحد الأيام طلب الابن

من والده مبلغا كبيرا من المال، فرد الوالد قائلا: ماذا فعلت بما أخذت من المال الكثير؟ وكيف أنفقته؟ فرد الشاب على الفور قائلا: إنني أنفقته على إسعاد أصدقائي الكثيرين وراحتهم. فقال التاجر الخبير: هل قلت أن لك أصدقاء كثيرين! فكيف تعرف أنهم أصدقاء يا بني؟ وكم عددهم؟ فأجاب الشاب: هناك ثلاثون من الأصدقاء الحميمين، وحوالي مئة من العاديين وهم جميعا أصدقائي.

صرخ والده المسن بعد سماعه إجابة ابنه الشاب قليل التجربة في الحياة قائلا: يا بني اسمع من أب مجرّب، إن من تسميهم بالأصدقاء، وأنت تنفق عليهم الأموال هم ليسوا أصدقاءك؛ بل هم أصدقاء أموالك التي تنفقها عليهم، فكيف تصفهم بالحميمين؟ وسيتخلون عنك وقت الشدائد إذن هم ليسوا أصدقاء.

يا بني ها أنا والدك المسن الذي تقف أمامه، إنني على مر السنين الطويلة، لم يكن لي في هذه الدنيا سوى صديق ونصف صديق، وسأثبت ذلك بالدليل والبرهان، ولأبين لك أن الصديق الصدوق يندر وجوده، وسأقوم بتجربة عملية لتدرك حقيقة الصديق، ولتساعدك في حياتك ومستقبلك.

استمع الابن المدلل بإنصات إلى ما قاله أبوه عن تجربته، وكان الابن بارًا بأبيه محبا له. أرسل التاجر المجرب أحد خدمه إلى السوق لشراء خروف سمين. وعندما جلب الخادم الخروف ذبحه على الفور في بيته،

ولطّخ يديه وثوبه بدم الخروف. وقطّع الخروف ووضعه في تابوت على هيئة إنسان ميت، وغطاه بقماش أبيض وكأنه كفن.

سمع الأب طرقات على باب بيته ففتح البابَ، وكان الطارق ممن كان يسميهم الابن بأعز أصدقائه. وبين الدهشة والذهول استفسر ذلك الصديق عن مصدر هذه الدماء. فأطرق الأب متظاهرا كأنه ارتكب جريمة قتل آثمة، وتنهد عميقا قائلا: «وأسفاه، لقد تشاجرت مع القاضي وقتلته في لحظة غضب، وها هو جثمانه ممدد أمامك. لقد جئت في الوقت المناسب يا أعز أصدقاء ابني لتساعدنا على إخفاء آثار هذه الجريمة بالتخلص من هذا الجثمان. ونكتم هذا السر بحيث لا يعلم أحد في الدنيا به، كأن شيئا لم يكن، لا تخف! ستسير الأمور على خير ما يرام». وسيطر الخوف والرعب على الصديق فهرب دون أن يجيب بكلمة واحدة.

وبعد وقت قليل والأب والابن بالانتظار، طرق طارق جديد من الأصدقاء المزعومين. وتوجه الأب إليه أيضا بالسؤال طالبا النجدة بإخفاء أدلة الجريمة في نقل الجثمان بعيدا، وفاء للصداقة الحميمة بينه وبين ابنه، إلا أنه هرب مثل الصديق الأول، وجاء ثالث ورابع وجميعهم رفضوا تقديم المساعدة للخلاص من تلك المحنة المزعومة. فذهل الولد مما رأى.

أنتشر الخبر سريعا بين الأصدقاء المزعومين وتوقفوا عن زيارة صديقهم. وبدأوا يتهامسون ثم يتحدثون علنا عما قام به التاجر المسكين من جريمة قتل القاضي الشنيعة. ووصلت تلك الحكاية إلى مسامع حاكم البلد فأرسل

جنوده على الفور لإلقاء القبض على المجرمين وهما التاجر وابنه. فاندفع الجنود إلى منزل التاجر وما إن وصلوا إليه حتى شاهدوا منظر الجريمة الآثمة.قام الجنود بوضع القيود بأيدي وأرجل التاجر وابنه واقتادوهما إلى السجن .و قد تجمهر الناس حولهما يتساءلون عن جريمتهما النكراء وكيف ارتكبها الأب. وكثرت الإشاعات والأقاويل وانهالت الشتائم على القاتل المجرم. وكان على رأس هؤلاء الأصدقاء المزعومين.

من ناحية أخرى لا يخلو المشهد تماما من المخلصين، وإن كانوا ممن أطلق الأب عليهم «نصف أصدقاء». إذ مر أحدهم في السوق، وما إن سمع الخبر حتى اندفع يستجلي الخبر ليقدم العون لصديقه. وفي الحال تقدم نحو قائد الجنود فأوقفه ورجاه قائلا: آمل في مساعدة صديقي العزيز، وأطلب منك أيها القائد أن توضح لي ما جري لهذا التاجر المعروف. وروى له القائد الحكاية وأضاف أنه نفذ أوامر الحاكم دون أن يتبين أو يتأكد من صحة الراوية. فصرخ ذلك الصديق قائلا: «أيها الناس أنني لا أصدق ما يقال فهو صديق حميم، أعرفه جيدا لا يقدم على أي عمل شرير مهما ساءت الأمور». وطلب من القائد بأنه على استعداد بأن يدفع مبلغ 1000دينار عدا ونقدا أمام الجميع لإنقاذ حياة صديقه وإطلاق سراحه على الفور.لكن قائد الجنود: رفض هذا العرض وعاد الصديق وكرر العرض بمبلغ كبير مقداره عشرة آلاف دينار هو كل ما يملك.وتقدم من صديقه المسكين مؤاسيا قائلا: «إنني على استعداد بمساعدتك حسبما استطيع ولن أتخلى عنك»، فرد التاجر العجوز شاكرا له صنيعه.

تابع الاثنان (الأب وابنه) المسير.والجنود يحيطون بهما ثم قال الأب لابنه: إن هذا الصديق هو «نصف صديق» ولكن هناك نوعا آخر من الأصدقاء.

وعندما وصل الجميع إلى قصر الحاكم خرج شاب وسيم من أحد البيوت القريبة من القصر وهو متسائلا مرتبكا: ماذا أرى؟! ماذا جرى؟ إنني لا أصدق ماتراه عيناي! فأخبره الجنود بالأمر، فكان الخبر عليه كوقع الصاعقة وصرخ على الفور في وجوه الجنود قائلا: «إنهما شخصان بريئان». وتابع صراخه قائلا: «أيها الجنود المجانين، لِمَ تقبضون على الأبرياء، وتتركون المجرم الحقيقي؟» وأردف قائلا: «أنا القاتل، وما عليكم إلا أن تقبضوا علي وتزجوني في السجن». وهكذا أضاف الجنود بريئا جديدا إلى قائمة الموقوفين بجرم لم يُرتكب.

وتقدم قائد الجنود من الحاكم وشرح له كل ما شاهد بالتفصيل دون أن ينسى ما مر معه في الطريق، ولاسيما مع «نصف الصديق» ومن ثم «الصديق». وكان الحاكم مشهورا بين الناس بإحقاق الحق، وكان حكيما واسع الفكر. ومع ذلك تملكته الحيرة حول أحداث الجريمة. في هذه الأثناء وقف الصديق الشاب أمام الحاكم قائلا: «أيها الحاكم العادل، إنني أنا القاتل، ولا علاقة لهذا الرجل العجوز من قريب أو بعيد باقتراف هذه الجريمة».

طلب الحاكم من الشاب الصمت والهدوء. واتجه بنظره إلى العجوز،

فتقدم العجوز نحو الحاكم وشرح له كل تفصيلات الحكاية، ثم وجه التاجر حديثه إلى ابنه الوحيد،.مشيرا إلى ذلك الشاب قائلا: «هذا هو الصديق الوحيد».

تأكد الحاكم من صحة القضية ومغزاها. فأمر أن تكتب هذه الحكاية وتوزع على الناس جميعا ليعتبروا منها.

حكاية الحطاب والكنز

رواها الحاج عبد الله فاضل ويليامسون بتاريخ 7/ 1/ 1935

يحكى أن حطابا كان يعيش مع زوجته وابنته الشابة وبعض الأطفال، يكسب قوته من جمع الحطب حيث ينقله على حماره من البر إلى المدينة. وفي إحدى خطب صلاة الجمعة سمع الخطيب يعظ الناس قائلا: إن المؤمن الصادق يرزقه الله ما يتمني بغير حساب.

وهنا قرر الحطاب ألا يقوم بأي عمل بعد الآن؛ لأن الله يرزق من يشاء ومتى يشاء. وحاولت زوجته أن تثنيه عن عزمه لكن جهودها ذهبت سدى؛ فهو يتصف بالعناد الغريب، فأصر على عدم تراجعه عن قراره.

وفي اليوم التالي جاءت زوجته ورجته أن يخرج لجلب الحطب لأنه مصدر رزق الأسرة وإنهم سيتضورون جوعا إن لم ينهض للعمل. فلقيت منه توبيخا وردا قاسيا قائلا: أن الله سيمدهم برزقه.

أمام هذا الوضع المحزن اضطرت الزوجة أن تبيع بعض أدوات المطبخ لتستطيع شراء ما يكفي لسد رمق الأسرة. وجاء اليوم الثالث، وكررت الزوجة المسكينة توسلاتها، إلا أن الزوج لا زال مصرا على عناده ولم يعرها أي انتباه، واضطرت من جديد أن تبحث عن أي شيء تبيعه لتجلب لأطفالها قوت يومهم. وهكذا استمرت الحالة في اليوم الرابع والخامس وكل توسلات الزوجة تذهب هباء منثورا. وفي اليوم السادس وجدت نفسها أنها لم تعد تملك ما تبيعه. ولازال الحطاب مستمرا في عناده. وفي هذا اليوم حدث أن قرر شابان من تجار المدينة القيام برحلة صيد(قنص) في الصحراء؛ ولهذا بدآ بالبحث عمن يمكن أن يؤجر حماره لهذا الغرض. وقد سمعا بالحطاب وطلبا استئجار حماره لاستخدامه في رحلتهما مقابل مبلغ من النقود. هنا ستحصل الزوجة على المال لشراء طعام لأولادها.

وانطلق الصيادان للرحيل وحمّلا الحمار كل ما يلزمهما لتلك الرحلة. وأعطيا الحطاب خمس قطع فضية كانت كافية لمؤونة الأسرة لمدة خمسة أيام، وطلب من زوجته أن تثق بالله، حيث تم اجتياز أول امتحان أمامها بسلام، وسلمها قطع النقود التي تلقاها من الصيادين.

وعندما جاء اليوم الخامس ـ وهو المقرر لعودتهما إلى أهلهما ـ وكانا على مشارف المدينة. قررا أن يأخذا قسطا من الراحة وتناول القهوة، فأوقفا الحمار وأنزلا عدة القهوة وبدآ بتحضير النار اللازمة. قاما بجرف الرمل لصنع موقد للنار، وكانت المفاجأة المذهلة؛ إذ عثرا على صندوق

خشبي كبير، أخرجاه بسرعة من وسط الرمل، وفتحاه على الفور، وشعرا بالاندهاش الممزوج بالفرح عندما تبين لهما أن الصندوق كان مملوءا بالذهب.

وأخذا يفكران بإيجاد طريقة لحمل الصندوق إلى المدينة دون أن يعترضهما حراس بوابات المدينة، وبعد نقاش طويل اتفقا على أن يدخلا المدينة عند حلول الظلام، ولما كانا لا يملكان طعاما قررا أن يقوم أحدهما بالبقاء بجانب الصندوق، بينما يذهب الآخر إلى المدينة لجلب الطعام. واتفقا على أن يقتسما المال مناصفة في بيت أحدهما حين يصلان المدينة.

وقام المكلف بالذهاب إلى المدينة بشراء الطعام؛ إلا أنه فكر بشيء لم يكن من ضمن الاتفاق، فقد كان للطمع وحب المال دور آخر، وتساءل: «لماذا اقتسم هذا الكنز مع رفيقي، أليس من الأولى أن يكون لي لوحدي؟» وأستقر رأيه بأن يتخلص من ذلك الرفيق بوضع سم الزرنيخ في الطعام.

وكان للذهب تأثيره! فوضع الآخر خطته متسائلا أيضا: «لماذا اقتسم هذا الكنز مع رفيقي؟ أليس من الأولى أن يكون لي لوحدي؟» ووضع خطة لقتل رفيقه: بأن يقوم بعد وصول رفيقه بتحميل الصندوق على ظهر الحمار، وأثناء ذلك يطلق النار على ظهر صديقه، ويستولي على الكنز لوحده. كلاهما وضع خطته للغدر برفيقه.

وعاد الرفيق يحمل معه الطعام القاتل من المدينة، وما إن وصل حتى ألح على رفيقه بتناول الطعام. إلا أن ذلك الرفيق كان يستعجل رفيقه

أيضا أن يساعده على تحميل الصندوق على ظهر ذلك الحمار، وفي اللحظة المناسبة وجه سلاحه إلى ظهر رفيقه فأرداه قتيلا، وهكذا اعتقد أنه المنتصر. وكان بالطبع لا يعلم عن مكيدة رفيقه. وبعد أن نفذ المهمة، أحس بالجوع فقرر تناول طعامه. فما إن تناول الطعام المسموم حتى سقط ميتا على الفور قبل تنفيذ أحلامه.

بقي الحمار وحيدا وعلى ظهره صندوق الكنز. فتابع الحمار الأمين سيره باتجاه بيت سيده وقد شاءت الأقدار أن لا يراه حرس البوابات ودخل من البوابة الكبيرة. وكان من عادة الحمار أن ينهق حال وصوله بيت صاحبه. وعند سماع النهيق نهض صاحبه ترافقه زوجته لاستقبال الحمار العزيز، وما إن فتحا الباب حتى فوجئا بحمارهما وهو يحمل الصندوق العجيب.فأنزلا الصندوق عن ظهر حمارهما، وكم كانت الدهشة كبيرة عندما وجدا الصندوق مملوءا بالدنانير الذهبية.

وما إن شاهدت الزوجة ذلك الذهب حتى أسرعت قائلة: «أسرع يا زوجي وأخبر السلطات الرسمية عما حمله الحمار من ذهب، إنه ليس ملكا لنا». فرد عليها الزوج قائلا: «إن ما حمله ذلك الحمار من ذهب إنما هو هدية من الله القدير إلى عبده المؤمن وهذه مشيئة الله؟ فحمدا لله وشكرا له».

وقام الحطاب على الفور فحفر حفرة في المكان الذي ينام فيه عادة وخبأ الصندوق ثم وضع فراشه فوقه. وقد اظهر الحطاب كل حيطة وحذر

حتى مرور مدة على البحث عن الشابين التاجرين اللذين ذهبا للصيد ولم يعودا، لم يأخذ من الصندوق إلا القليل لسد حاجاته اليومية فقط. وانقضت مدة ستة أشهر على هذه الحالة، ولاحظ أخيرا أن ليس هناك ما يمكن أن يثير الانتباه حوله. ولهذا قرر أن يودّع حياة الفقر ويبدأ حياة جديدة بإنفاق ما رزقه الله من مال. اشترى قصرا فخما، وبستانا فيه كل أنواع الفواكه، وارتدى أجود أنواع الملابس هو وأفراد أسرته. كما اشترى الخيول الأصيلة، وقطعانا من الإبل والأغنام والماعز، واستخدم العبيد والخدم من الرجال والنساء.

بدأ الناس يتساءلون عن الثراء الفاحش لهذا الحطاب الفقير. وبلغت أخباره حاكم البلاد، فأرسل في طلبه. وحين وقف أمام الحاكم، خاطبه قائلا: «أخبرني كيف تغيرت أحوالك من فقر مدقع إلى ثراء فاحش: تملك قصرا، وخيولا عربية أصيلة، وقطعان الإبل والأغنام والماعز، والعبيد والخدم؟»

فأجابه الحطاب: «إن ذلك من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب». وسأله الحاكم من جديد: «والنعم بالله، لكن قل لي كيف انتقلت بهذه السرعة من فقر مدقع إلى غنى مفرط؟ إنك تكذب علي ولا بد أن نكتشف الحقيقة».

فأجابه الحطاب قائلا: «كلا يا مليكي العظيم.إنني لا أقول سوى الصدق» فرد الملك من جديد: «إنني أشك بكل ما تقوله».

قرر الحاكم اللجوء للحلية ليتبين مدى مصداقية الحطاب فخاطبه قائلا: «أعتقد أنك تملك مالا كثيرا، وقد خبأته في مكان ما، وتخشى أن تخبرنا عنه. وعلى كل حال سأطرح عليك ثلاثة أسئلة فإن أجبت عنها بشكل صحيح عشت بأمان وسأسمح لك أن تعيش كما ترغب، أما إذا أخفقت في الإجابة الصحيحة فستصادر أموالك. أما الأسئلة فهي:

أولا: ما هو الشيء الأقسى، وهو بنفس الوقت الشيء الأكثر لينا في العالم؟

ثانيا: ما هو الشيء الأكثر إرعابا وإرهابا في العالم؟

ثالثا: ما هو الشيء الأكثر بعثا للسرور في العالم؟

«والآن أسمح لك بالذهاب إلى منزلك ورؤية عائلتك على أن تحضر غدا صباحا ومعك الأجوبة الصحيحة».

عاد الحطاب إلى منزله مهموما، لأنه لا يعرف كيف يجيب الحاكم عن أسئلته فهو لم يتلق علما ولم يكتسب معـرفة، إنه مجرد حطاب فقير جاهل. كان في حيرة من أمره، حتى أنه رفض تناول الطعام. ولاحظت ابنته إن أباها مهموم وحزين، فسألته عن سبب حزنه ووضح لها قصته مع الحاكم، فقالت له: «سأساعدك يا والدي العزيز وسأحل لك تلك الألغاز». فرح الحطاب وعانق ابنته ابتهاجا. تأملت ابنته تلك الأسئلة جيدا وأجابت قائلة:

الجواب الأول هو الماء فهو الألين لتناوله، والأصلب أو الأقسى لطرقه.

الجواب الثاني فهو الصوت الصادر عن آلاف الفرسان.

الجواب الثالث هو عندما تنام مع زوجتك فإنك تنسى كل شيء، وتحصل على متعة لا تعادلها متعة في العالم أجمع.

وما إن سمع الحطاب من ابنته الجواب الأخير، حتى ثارت ثائرته واستشاط غضبا وصرخ في وجهها قائلا: «كيف تجروءين على مثل هذا القول، ومن أين علمت به؟». مشككا بسلوك ابنته. إلا أن البنت هدأت ثورة غضبه قائلة: «يا والدي لا يتسرب الشك إلى نفسك، إن ابنتك بريئة من كل الظنون، إن لي عينين أرى بهما، وقلبا يحب، لكن لي عقل يتمسك بالقيم والأخلاق. يا والدي العزيز سأروي لك ما حدث معك يومًا ما، وأظنك لن تنكر ما سأقوله.مرضتُ عندما كنت صغيرة مرضا شديدا، واعترف أنك سهرت على رعايتي، وكنت ألاحظ الأسى والحزن في عينيك، وكنت تناولني الماء بيديك إذا عطشت. وفي إحدى الليالي كانت الحمى تلهب رأسي، أفقت وطلبت الماء، ورفعت رأسي ودعوتك صارخة فرأيتك بين ذراعي أمي تتبادلان الحب والغرام. ولهذا عرفت سبب عدم استجابتك لطلبي، وأنا المريضة المنهكة، فكنت كالأصم عند سماع صوتي، وإن ذلك الشيء أنساك حتى صوت ابنتك الصغيرة التي تحبها، ولقد فهمت أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يبعث في نفسك السرور، وينسيك كل العالم».

في اليوم التالي ذهب إلى الحاكم ومعه حلول الأسئلة.تلقاها الملك بذهول واستغراب، وتعجب كيف يستطيع إنسان غبي مثله الإجابة على

تلك الأسئلة. واعتقد جازما أن وراءه من يوجهه ويعطيه الحلول، فقال للحطاب: «أجوبتك صحيحة» وأردف: «سأتابع معك نفس الاختبار وفي المرة القادمة ستكون الأسئلة أصعب، وذلك لأزيل كل شك بقدرتك على الفهم ولكي أثق بك تماما». ثم طلب منه أن يأتيه بخمسة جواميس ومعها خمسة أقنعة على رؤوسها، وإن لم يقم بذلك فحياته مهددة بالموت.

وعاد الحطاب المسكين إلى منزله حزينا. ولاحظت ابنته على الفور ما يعانيه من هم وحزن فسألته بلطف عما ألم به وإذا كان بحاجة لمساعدتها. وروى لها ما طلبه منه الحاكم. وفهمت تلك الفتاة على الفور ما يقصده الملك وقالت لوالدها «إن الحاكم لا يقصد الجواميس بالمعني الحرفي للكلمة، وإنما يقصد شيئا آخر كالجواميس». وطلبت من والدها أن يذهب إلى الجامع الكبير يوم الجمعة، ويقف على بابه بعد نهاية الصلاة،وسيشاهد شيوخا من رجال الدين ذوي العمامات البيضاء، وعند خروجهم من المسجد يسألهم قائلا: «هل تخبروني ما هو اليوم من أيام الأسبوع؟». ومن أجوبتهم، ستجد دون شك ضالتك.

انتظر الحطاب يوم الجمعة، واستعد منذ الصباح ليقوم بما نصحته به ابنته واندفع إلى المسجد ووقف على بابه ينتظر خروج المصلين، وشاهد من بين الخارجين أصحاب العمائم البيضاء.فاقترب منهم وقال لهم: «هل تخبروني ما هو اليوم من أيام الأسبوع؟». فأجاب أغلبهم: «يا

رجل هل أنت مجنون لتسألنا سؤالا غبيا، وأنت ترانا نخرج من صلاة الجمعة؟».

ووجد ضالته من أصحاب العمائم، ولكن لم يجد سوى أربعة منهم أجابوه: «لماذا تسألنا عن يوم نحن فيه، ولماذا لا تعرف أنت الجواب؟» فأجابهم أن الحاكم هو الذي كلفه بذلك وسيقابلونه فيما بعد. ورجاهم الذهاب معه إلى منزله، وهناك التقى بابنته على الفور وروى لها ما جري معه، وانه لم يجد ممن يبحث عنهم سوي أربعة وإن الحاكم طلب خمسة وإنه عجز عن العثور على الخامس. فأجابت ابنته: «الخامس هو أنت يا والدي، اذهب إلى الحاكم فورا. وخذ معك هؤلاء الرجال الأربعة، وقل له أنك وجدت الجواميس الخمسة، وهم أمامك وعلى رؤوسهم عمائمهم، وهذا حسبما طلبت».

فأجاب ابنته قائلا: «أليس صحيحا أن أقول إنني وجدت أربعة جواميس فقط ؟» فأجابته تلك الابنة الذكية: «هذا صحيح انك لم تجد سوى أربعة لكن يجب ان توضح للحاكم أنك أنت الخامس من الجواميس المطلوبة». وهذه هي إجابة سؤاله، وسيسر لمثل ذلك الجواب.

واصطحب الحطاب الرجال الأربعة نحو قصر الحاكم. ودخلوا القصر، وانحنى الحطاب أمام الحاكم بكل أدب واحترام وخاطبه قائلا: «أيها الحاكم العظيم، دونك الجواميس الخمسة المطلوبة وعلى رؤوسهم أقنعتهم» فأجابه الحاكم: «لم تقدم لي سوى أربعة فأين خامسهم ؟» فأجابه الحطاب: «أنا الخامس».

انشرحت أسارير الحاكم وقال:.إنني متيقن أن وراءك من يعلمك الأجوبة، أخرج الآن جواميسك وابق أنت لتعلمني من هو الذي يلقنك الأجوبة، وعندئذ سأسمح لك بالعودة إلى أهلك حرا طليقا».

واعترف الحطاب بعثوره على الكنز وأن ابنته الذكية هي التي تلقنه الإجابات الصعبة، وأصغى الحاكم بانتباه كبير وسرور لما قاله الحطاب عن ابنته وقال: «أتشرف بطلب يد هذه الفتاة الذكية الجديرة بكل الاحترام». وأقيمت الاحتفالات لعرس الحاكم على ابنة الحطاب. وقرر الملك أن يضع البنت أمام اختبار قبل دخوله عليها، وقد أظهر لها أنه يشك بأخلاقها وحبها له، وأخبرها أنه لن يقضي ليلته الأولى معها أملا في إبقائها عذراء حتى عودته من رحلة صيد مفاجئة. وأن رحلة الصيد هذه ستدوم طويلا. وقبل أن يشرع بالرحيل قال لها: «أوصيك أن تعتني بفرسي الحمدانية الشهباء، يجب أن تعلمي أنها لم تختلط بحصان حتى الآن، وسآخذ معي حصاني الفحل كروش، وعند عودتي أتوقع أن تكون فرسي هذه قد حملت وولدت مهرا من حصاني كروش، كذلك فإنني أتوقع أن يكون لي طفل منك من صُلْبي».

أنطلق ركب الحاكم في رحلة صيد طويلة تاركا زوجته الصبية في قصرها وحيدة، يحيط بها الخدم والحراس. وكان الحاكم يهدف من إعطاء زوجته تلك المهمة المستحيلة ليختبرها. واعتقد أنها لن تنجح هذه المرة كما نجحت في المرات السابقة عندما وجدت الحلول المناسبة لوالدها.

إن ابنة الحطاب واثقة من نفسها بأن تجتاز هذا الاختبار الصعب. هناك سؤال صعب: كيف يمكن لفرس أن تحمل دون أن ينزو عليها حصان؟ وكيف تلد الزوجة له طفلا والزوج غائب وهي عذراء؟

وقد أوصى الحاكم عبده المخلص الأمين أن يشدد حراسته عليها وقامت الزوجة الشابة فتملقت العبد المكلف بحراستها، ونجحت خلال أيام قليلة من أن تجعله يلبي طلباتها بلا تردد، فأقنعته أن يشتري لها ثيابا من التي يلبسها عادة شيوخ البدو الشباب، وخيمة صغيرة، كما طلبت منه أيضا أن يساعدها على مغادرة القصر سرا حينما ترغب للبحث عن زوجها لأنها ستقوم بلعب حيلة معه تتحداه بها. وقد وعدت ذلك العبد على أنها ستعود خلال ثلاثة أسابيع.

طلبت من العبد أن يصبغ الفرس الشهباء بلون الكهرمان وطلبت منه أيضا أن يشيع بين الناس أنها مريضة بالحمى وملازمة للفراش وغادرت القصر بعد أن تم التحضير للرحلة وأخذت جميع الاحتياطات اللازمة.

انطلقت بعيدا في الصحراء تسأل عن أماكن الصيد التي يرتادها الحاكم إلى أن وجدت ضالتها. وجدت زوجها يخيم بالقرب من مجموعة آبار في الصحراء وسط واحة نخيل فنصبت خيمتها بين أشجار النخيل، وكانت تلبس ثيابا أنيقة لشيخ بدوي شاب، وقد تنكرت بشكل دقيق حتى أنه لا أحد يشك في مظهرها. كما قامت بتلويث ثيابها برمل الصحراء لتبدو بدويا حقيقيا، واستعدت لمقابلة الحاكم كأحد شيوخ البدو.ومن

عادات العرب ان الحاكم يرحب بضيوفه الشيوخ. وفي المساء قامت بزيارة الحاكم، فاستقبلها بما يليق من الاحترام، ودارت بينهما الأحاديث وروى الشاب كثيرا من قصص وحكايات البدو في الصحراء فأعجب الحاكم بفصاحة الشاب، وكان يصغي إليه باهتمام. وتكررت الزيارات المسائية هذه، وتوطدت عرى الصداقة بينهما. وأصبح الحاكم يسأل عن الشاب إذا ما تأخر في المجيء. وفي نهاية الأسبوع الأول من لقائهما سأل الحاكم الشاب فيما إذا كان له أخت بنفس صفاته، وأنه سيكون سعيدا جدا أن يتزوجها على أن تكون تلك الأخت شبيهه به من حيث الذكاء والجمال.

فأجابه الشاب بالإيجاب قائلا: «إن له أخته تشبهه في كل شيء تماما لأنهما توأمان، ولكن إذا أراد الحاكم الزواج بها فيجب أن يجري ذلك سرا لعدة ليال فقط وعليه أن يطلقها بعد أسبوع، لأنها ترغب بالزواج من ابن عمها». فوافق الحاكم على ذلك. وللحفاظ على سرية الزواج اشترط الشاب أن تجري الدخلة في خيمة صغيرة بعيدا عن مخيم الحاكم الكبير. وذهب الحاكم إلى الخيمة الصغيرة التي نصبت لتلك المناسبة وانتظر هناك قدوم تلك العروس.

عاد ذلك الشاب المزعوم إلى خيمته.بدأ يستعد للمساء، فغيرت ثيابها ولبست أحلى حلل العرس لدى البدو، وما إن حل المساء حتى توجهت إلى خيمة العرس التي نصبت لهذه الغاية، قضت ليلتها مع الحاكم كما

تنقضي بين الأزواج، وكان الحاكم سعيدا جدا وهو بجانبها. وبعد مضي أربع ليال: في النهار شيخ شاب بدوي، وفي الليل عروس.

في إحدى المرات سأل الحاكم الشيخ الشاب بماذا يكافئه على حسن صنيعه معه؟ هذا السؤال كان ينتظره الشاب على أحر من الجمر وأجابه: أتمنى أن تسمح لحصانك الأسود كروش أن ينزو فرسي. ودون تردد وافق الحاكم، وكذلك عرض عليه مبلغا من المال كهدية إلا أن الشاب اعتذر عن عدم قبوله المال.

وفي الليلة الأخيرة حضرت العروس إلى خيمة العريس حسبما جرت العادة وسرقت منه خاتمه دون أن يشعر بذلك. كما نزا الحصان كروش على الفرس. ثم اختفي ذلك الشيخ الشاب مع أخته المزعومة.

وقرر الحاكم العودة إلى بلاده بعد أن مكث 11 شهرا في الصحراء. وأرسل رسولًا سبقه ليخبر زوجته لكي تستعد لاستقباله وتكون قد نفذت طلباته. وعاد الرسول ـ وكان يجهل الشروط التي طلبها الحاكم من زوجته قبل رحلته ـ وأخبره قائلا: «أبارك لجلالتكم.فقد رأيت زوجتكم وهي تحمل طفلًا ذكرًا جميلا، أما فرسكم الحمدانية فبجوارها أيضًا مهر جميل».

وما إن سمع الحاكم ما قاله الرسول، حتى استشاط غضبًا، وأصبح مهموما قلقا.لابد أن يتحرى هذا الخبر حول خيانة زوجته له.

وما أن دخل القصر حتى استقبلته تلك الزوجة بود واحترام والبسمة تعلو محياها. وسألها بغضب على الفور عن مدى صحة الخبر الذي نقله الرسول بشأن الطفل.لم تجبه الزوجة بل قدمت له الطفل قائلة: «أيها الحاكم إن ما قيل لك صحيح وها هو الدليل، لقد أمرتني أن أحمل لك بطفل، وأن تلد فرسك مهرا، وقمت بتنفيذ ذلك».وأبدى سخطه وغضبه بسبب وقاحتها واستخفافها به، واستل سيفه ليقتلها، فصرخت قائلة: «أيها الحاكم العظيم انتظر قليلًا حتى أقص عليك الحكاية بأكملها، ومن ثم افعل ما تشاء، ألم تتزوج سرًا بفتاه أدعت أنها ابنة أحد شيوخ القبائل، وقبلت بشروطها». وشعر الحاكم أن في الأمر سرًا. وروت له تفصيلات ما جرى معها من زواجها من الحاكم في الصحراء أثناء رحلة الصيد، وناولته الخاتم الذي سرقته منه.فرح الحاكم بذكائها وجعل منها الزوجة المفضلة يستشيرها في الملمات التي تصادفه.

حكايات القبائل العربية ...

الكتــــاب:

هذا الكتاب يروي مترجما مجموعة من حكايات القبائل العربية أو مخزونها الشفاهي، استطاع صاحبه أن يصل إليها ويسمعها من رواتها في أربعينات القرن المنصرم أي في الوقت الذي كانت فيه حياة القبائل تتعرض لتغيرات جارفة، وقبل أن يحل التلفاز والمذياع والصحيفة محل الذاكرة الشفاهية تماما.

وتشكل هذه الحكايات جزءا من موروث ضخم يمكن اعتباره «ديوان القبيلة» العربية وهو غير الديوان الرسمي المعروف باسم «ديوان العرب» أي الشعر العربي هذا الموروث الضخم بخياليته وواقعيته، لم يقيض له أن يدون في لغة من اللغات. ويعتقد صاحب الكتاب إنه اندثر بموت حامله، أي الراوي القبلي رغم أن القبيلة لم يندثر دورها الذي تحول فقط حين انتقلت من الهوامش إلى العواصم والحواضر، وبدأت حياة جديدة.

يمكن اعتبار الكتاب «ألف ليلة وليلة» القبائل التي لم تعرف طوال عدة قرون سوى الرواية الشفاهية، فجمعت في هذه الحكايات حكمتها وقيمتها، وعكست فيها عدة أزمان تاريخية وخيالية.

وصف فيلبي، الخبير الشهير في تاريخ الجزيرة العربية، حكايات هذا الكتاب بقوله: «هذا الكتاب وبكل إنصاف يعد تحفة رائعة».

الكاتــــب:

سي. جي. كامبل (1912-1953) C. G. Campbell

جامع هذه الحكايات الفريدة الواردة في هذا الكتاب، رائد سابق في الجيش البريطاني، جمعها بعد فترة وجيزة من الحرب العالمية الثانية أثناء خدمته في العراق. وكامبل ليس مجرد عسكري، ولكنه كان أيضا مستعربا مثقفا أولى اهتماما كبيرا لحياة العرب وثقافتهم وتراثهم، وأصبح أكاديميا متخصصا في ثقافة وتراث الشرق الأدنى.

المترجـم:

عطية بن كريم الظفيري، اختصاصي في الاقتصاد والبنوك (ماجستير في الاقتصاد من جامعة سانغمون الحكومية - إلينوي - الولايات المتحدة الأمريكية، ودبلوم عال في البنوك من معهد الدراسات المصرفية، وبكالوريوس في الاقتصاد من جامعة الكويت). له اهتمامات في ترجمة المسائل المتعلقة بالتراث والتاريخ، صدرت له ترجمات الكتب التالية:

- حرب في الصحراء مذكرات غلوب باشا. الجنرال البريطاني جون غلوب.
- قبيلة الظفير دراسة تاريخية لغوية مقارنة. المستشرق البريطاني البروفيسور بروس إنغام.
- الكويت في كتابات رحالة أوروبيين. لويس بيلي ورونكيير وجون دانيالز.
- أوراق منسية من تاريخ الجزيرة العربية. غيرترود بيل.
- رحلة الكويت. جون دانيالز.

مكتبة آفاق Aafaq Bookstore

Tel: +965-22256141 - Fax: +965-22256142

P.O.Box: 20585 Safat Postal code: 13066 Kuwait

info@aafaq.com.kw - www.aafaq.com.kw



